

دراسات في السيرة والتاريخ

سيرة النبي ﷺ
وأهل بيته ﷺ
درس وعبرة



د. محمد محمود مرتضى

مركز برatha للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research



سِيرةُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَهْلِ بَيْتِهِ ﺍﻟﯩﻤﺎﺍ

دُروسٌ وعبر

د. محمد محمود مرتضى

رقم الطبعة: الأولى
تاريخ الطبعة: ٢٠٢٥ م - ١٤٤٧ هـ
مكان الطبعة: بيروت - بغداد

■ الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة ■

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research

www.barathacenter.com

barathacenter@gmail.com

— درِاسَاتُ فِي السَّيْرَةِ وَالتَّارِيخِ —

سيرة النبي
وأهل بيته
دروس وعبر



د . محمد محمود مرتضى

دراسات في السيرة والتاريخ

تُمثِّل دراسة التاريخ فعل وعي يُعيد للإنسان قدرته على فهم حاضره وتوجيه مستقبله. فالأُمم التي تُحسن قراءة تاريخها تمتلك مفاتيح قوتها، وتتعلم من مصادر الحكمة المتجدِّدة في تجاربها؛ إذ يكشف التاريخ، حين يُقرأ بوعي، عن السنن التي تحكم تحولات المجتمعات، كما يكشف عن أثر القيادة والرسالة في صناعة الحضارة.

ومن بين صفحات التاريخ كلُّه، تبقى سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسيرة أهل بيته عليهم السلام المركز الذي تشعَّب منه الهداية، والميزان الذي يُقاس به صدق التجارب البشرية وعمقها. فهي ليست سجلَّ أحداث، وإنما مدرسة في الإيمان، والسياسة، والاجتماع، وبناء الإنسان، ومعرفة السنن الإلهية في التغيير.

انطلاقاً من هذه الرؤية، تأتي سلسلة «دراسات في السيرة والتاريخ» لتشكِّل مشروعاً بحثياً يسعى إلى قراءة تلك السيرة وما يرتبط بها من قضايا تاريخية كبرى، قراءة تجمع بين التحقيق العلمي ووعي السنن واستخراج الدروس والعبر. تعتمد السلسلة منهجاً تحليلياً رصيناً يبرز الصورة الواقعية للنبي وأهل بيته بعيداً عن القراءات المجتزأة، مع ربط الأحداث بسياقاتها السياسية والاجتماعية والثقافية.

وتهدف السلسلة إلى:

- إعادة وصل القارئ بالجذور الرسالية التي انطلقت منها حضارة الإسلام.
- إبراز محورية شخصية النبي وأهل بيته في تشكيل الوعي الإيماني والإنساني.
- تحليل القضايا التاريخية المفصلية التي صنعت مسار الأمة.
- تقديم دراسات عميقة وهادئة تُعين الباحث والمهتم على فهم الحاضر واستشراف آفاق المستقبل.

من هنا، تأتي «دراسات في السيرة والتاريخ» لتكون منصّة علمية تُعيد بناء تصوّر التاريخي على أسس راسخة، وتمنح القارئ مادةً محقّقة وواعية تتجاوز السرد التقليدي إلى الفهم العميق لدور الرسالة والقيادة ومتغيرات الزمان.

مقدمة

ليس هذا الكتابُ سرداً تقريرياً للسيرة، ولا تجميعاً للوقائع من بطون التاريخ، بل محاولة لقراءة النور الإلهي وهو يتجسّد في حياة بشر اصطفاهم الله لتكميل الإنسان. فالسيرة هنا لا تُروى لتُحفظ بل لتُفهم، ولا تُستعاد لتؤسّر الماضي بل لتُنير الحاضر وتوجّه المستقبل. إنّ النبيّ الأكرم محمّداً ﷺ وأهل بيته الطاهرين (عليهم السلام) لا يمثلون متتالية زمنيّة من القادة، بل منظومة واحدة تُترجم الوحي في حركة التاريخ، بحيث يكون كلّ إمام امتداداً للنبوّة في وظيفتها: حفظ الرسالة، وتجسيد القيم، وصيانة العقل والضمير من الانحراف.

ليست السيرة النبويّة، في أصلها، سجلّ أحداثٍ بل منهجٌ وعي. فهي ترينا كيف يتحوّل الإيمان إلى نظام حياة، وكيف يُترجم التوحيد إلى عدل، وكيف تُدار الصراعات لا بروح الانتقام بل بروح الإصلاح. لذلك، يبدأ هذا الكتاب بسيرة النبيّ الأكرم ﷺ لا بوصفه مؤسس دينٍ فحسب بل بوصفه النموذج الأكمل للإنسان الذي جمع بين الوحي

والعمل، وبين الرحمة والقيادة، وبين العبادة والسياسة، فكانت حياته كلها ترجمةً عمليةً للقرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلِقَ عَظِيمٌ﴾ [القلم: ٤]. ومنه تنبثق سيرة الأئمة المعصومين ﷺ بوصفها امتداداً حياً للنبوة الخاتمة، يواصلون بها تجسيد الحقيقة في سياقات التاريخ المختلفة.

لقد كان لكلِّ إمامٍ من الأئمة ﷺ دوره الخاصّ في حفظ الدين وتكميل الأئمة، لكنَّ جوهر الإمامة واحد: هداية الإنسان إلى الله عبر تحريره من عبوديّة السلطة والهوى. فالإمام عليّ ﷺ أعاد تعريف السلطة بوصفها تكليفاً لا تملكاً، والإمام الحسن ﷺ صان وحدة الدين بالحكمة، والإمام الحسين ﷺ استعاد كرامة الإيمان بالشهادة، والإمام زين العابدين ﷺ أعاد بناء الوعي بالعبادة والدعاء، والإمام الباقر ﷺ فتح باب العلم المؤسّس، والإمام الصادق ﷺ أرسى منهج الفقه والحوار، والإمام الكاظم ﷺ علّم الصبر بصفته قوّة روحية، والإمام الرضا ﷺ واجه الدولة بالعلم والعقل، والإمام الجواد ﷺ بين أنَّ صغر السن لا يحجب كمال العلم، والإمام الهادي ﷺ أسّس شبكة الوكلاء ومؤسّسة الإمامة، والإمام العسكري ﷺ مهّد لمرحلة الغيبة بترسيخ القيادة العلميّة، ثمّ ختم الإمام المهديّ ﷺ سلسلة النور بوعد الظهور الذي يبقى الأفق المفتوح للعدل الشامل.

من هنا، فإنّ فصول هذا الكتاب لا تُقدّم بترتيب زمنيّ فحسب، بل

بمنطق تربويٍّ وتحليليٍّ يرى في كلّ فصل حلقةً من مشروع الهداية الإلهيّة. فكلّ إمامٍ يعالج جانباً من أمراض الإنسان والمجتمع، ويقدم درساً عملياً في الإصلاح: من الجهاد إلى الصبر، ومن المعرفة إلى العمل، ومن الثورة إلى الدعاء. إنّها مسيرة الإنسان في مدارج الكمال، تتجسّد في سيرتهم لتصبح منهجاً تربوياً لا تاريخياً فقط.

ولا يكتمل فهم هذه السيرة إلا إذا نُظِرَ إليها بوصفها «خطاً متّصلاً» لا سلسلة من الشخصيّات المتفرّقة؛ فليست النبوة والإمامة مرحلتين منفصلتين، بل وجهين لمشروع واحد: الوحي في مساره التاريخي لحماية الفطرة وبناء الأُمّة. بهذا الفهم يصبح التاريخ مجالاً للتكليف، لا مساحةً للتأمّل العاطفي. إنّ كلّ مبحث من مباحث هذا الكتاب يذكّر بأنّ الهداية ليست فكرةً موروثّة، بل عهدٌ متجدّد بين الله وعباده، يتجدّد بقدر ما نقرأ سيرة النبي ﷺ والأئمّة (عليهم السلام) بعينٍ تتعلّم وتعمل.

ولذلك، فإنّ «الدروس والعبر»، التي يشير إليها عنوان الكتاب، ليست عبراً وعظيّة بل قواعد في الوعي والسلوك: كيف نفهم العلاقة بين الإيمان والسياسة، وبين العبادة والمسؤوليّة، وبين المعرفة والعمل، وبين الانتظار والحركة. فحين نقرأ طفولة النبي ﷺ لا نبحت عن العجائب بل عن إعداد السماء للعقل الكامل، وحين نقرأ كربلاء لا نبحت عن المأساة بل عن معنى النهوض والحريّة، وحين نقرأ سجن

الإمام الكاظم عليه السلام ندرك أنَّ الصبر ليس سكونًا بل مقاومة، وحين نتأمل غيبة الإمام المهدي عليه السلام نفهم أنَّ الحضور لا يُقاس بالمكان، بل بالاستمرار في مشروع العدالة الإلهية.

إنَّ هذا الكتاب إذ يجمع سيرة النبي ﷺ وأهل بيته عليه السلام في بناء واحد، إنما يدعو إلى استعادة «المنهج الحي» في قراءة التاريخ الإسلامي: أن نرى في كلِّ واقعة من وقائعهم درسًا في بناء الإنسان، وفي كلِّ موقف من مواقفهم معيارًا يُصحَّح وعينا، وأن نفهم أنَّ الرسالة التي بدأها محمد ﷺ لم تنته، بل ما زالت تسري في ضمير الأمة من خلال خطِّ الإمامة الذي يحفظ جوهرها من التحريف والضياع.

الفصل الأول:

الرسول الأكرم ﷺ خاتم النبيين
وسيد المرسلين

عندما نريد أن نقرأ سيرة النبي محمد ﷺ فإنه ينبغي أن نقرأها من باب أنها مفاتيح لفهم ختم النبوة وما ترتب عليه في الاجتماع والسياسة والأخلاق. فالنسب والنشأة والرضاعة في البادية يفهمون على أنها طبقات من «الإعداد»؛ أي صفاء الفطرة، واستقامة اللسان، واقتدار عملي سبق التكليف. وتُفهم كفالته (عبد المطلب) ورعاية (أبي طالب) ضمن شبكة حماية اجتماعية هيأت للرسالة شروط بقائها الأولى.

ليست الهجرة انتقالاً جغرافياً، بقدر ما هي انتقال مركز الفعل من الدعوة الفردية إلى تأسيس البنية المؤسسية. هنا يتبدى المسجد بصفته وظيفة جامعة (عبادة/علم/قضاء)، والأذان إعلاناً للسيادة الإلهية في المجال العام، والمؤاخاة والصحيفة تحويلاً للقيمة إلى عقد اجتماعي. في هذا الإطار تُقرأ المواجهات العسكرية—من بدر وأحد والخندق إلى الحديبية—ضمن مبدأ ثابت هو أن الانضباط والتخطيط قرينان للتوكل، والصلح حين يوسع المجال الدعوي أولى من معركة لا تضيف إلى ميزان القوة شيئاً.

وفي المدينة، تُفهم إدارة التعدد الديني في المدينة وفق معيار مزدوج:

وفاءً صريحاً بالعهد ما دام قائماً، وحزمٌ مشروعٌ عند نقضه. ثم يأتي فتح مكة نموذجاً لسيادة خلقية لا تتغذى بالثأر. أمّا خط الاستمرار بعد ختم النبوة فيصاغ بوضوح في حجة الوداع وغدير خمّ. وهكذا سنجد أنّ كلّ حدث يخدم وظيفة معرفية؛ فتمثّل الولادة والطفولة منطلق الإعداد، والهجرة بناء المؤسسة، والصحيفة تعريف المواطنة، والغزوات ضبط مشروع القوة، والبيعة تحديد مرجعية الهداية بعد الختم. هذه القراءة ستعيد ترتيب الدلالات بحيث يصبح النصّ العمليّ من السيرة هو المعيار.

المبحث الأول: الولادة الطاهرة والنشأة المباركة

أولاً: النسب الطاهر الشريف

ينتمي النبي الكريم محمد ﷺ إلى أسرة بني هاشم، وهي من أشرف عائلات مكة وأرفع أسرها.. ويعود هذا النسب الطاهر إلى (هاشم بن عبد مناف).. "فهو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، المنحدر من ذرية عدنان أحد أحفاد نبيّ الله إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام)"^(١). "وكان جميع آبائه وأجداده من الموحّدين المؤمنين على دين

١ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: تاج المواليد، ص ٤؛ علي بن عيسى الأربلي: كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج ١، ص ١٥.

الحنيفية الإبراهيمية السمحاء، وكان فيهم الصديقون والمخلصون من الأنبياء والمرسلين أو الأوصياء المعصومين^(١)؛ يقول -عز وجل- في كتابه الكريم: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩].

ثانياً: الولادة المباركة

جاءت ولادة النبي الكريم محمد ﷺ في عام الفيل من أبوين طاهرين، فأُمُّه كانت السيِّدة (آمنة بنت وهب) من بني زهرة، وأبيه كان (عبد الله بن عبد المطلِّب) .. وجرت الولادة في شعب (أبي طالب) في يوم الجمعة الموافق للسابع عشر من شهر ربيع الأول عام ٥٧١ للميلاد، قبل البعثة النبوية بأربعين عاماً^(٢)، وتحدّثت الأخبار والروايات المتطابقة عن أنّ ولادته المباركة رافقتها حوادث عدّة مختلفة على مستوى العالم، ومنها اضطراب إيوان كسرى أنوشيروان، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته، وغير ذلك^(٣).

-
- ١ - راجع: محمد بن النعمان (الشيخ المفيد): تصحيح اعتقادات الإمامية، ص ٦٧؛ محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج ١٥، ص ١١٧.
 - ٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٤٤٠.
 - ٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج ١٥، ص ٢٦٣.

وقد خلقت ولادته أجواء واسعة من الفرح والسعادة الغامرة لدى عائلته بالذات، خاصة جدّه (عبد المطلب بن هاشم) الذي التزم بتربيته؛ باعتبار أنّ والد النبي (عبد الله) كان في ظرف سفر إلى الشام لقضاء أعمال تجارية، وقد تُوفي في المدينة قبل ولادة النبي ﷺ^(١)، وحيث جرى دفنه في دار النابغة (قيس بن عبد الله)^(٢).

ثالثاً: الرضاعة:

شاءت الأقدار الإلهية ألا يرتضع النبي الكريم ﷺ من والدته (السيدة آمنه) إلا عدّة أيام، ليجري وضعه بعدها في كنف السيدة (حليمة السعدية) التي حظيت بشرف إرضاعه، وهي من قبيلة بني سعد^(٣). وقد كان صاحب الرأي في هذا جدّه (عبد المطلب) الذي قرّر إرسال حفيده لاستكمال التنشئة والرعاية في أجواء البادية التي تتوافر فيها مقومات

١ - راجع: محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٤٤٠؛ أحمد بن إسحاق اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٠؛ أحمد بن يحيى البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٩٢.

٢ - راجع: محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ١٦٥ - ٢٤٦؛ خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي: الأعلام، ج ٥، ص ٢٠٧.

٣ - جعفر مرتضى العاملي: الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ، ج ٢، ص ١٤٧.

تعلّمه واكتسابه اللغة والبيان، وتقوية شخصيّته وتحصينه مناعته^(١).
 أحاطت المُرْضِعة (حليمة السعدية) النبي الكريم ﷺ برعاية فائقة
 واهتمام بالغ، ووجدت في رعايته عوناً من زوجها الذي شاركها في
 هذه المهمة الجليلة. وقد أولت النبي ﷺ من العناية في تربيته ما فاق
 اهتمامها بأبنائها أنفسهم؛ إذ لمست فيه منذ اللحظة الأولى معاني البركة
 والخير، واستشعرت النبْل والنور الذي يشعّ من شخصيّته. وتُروى عنها
 قصّتها الشهيرة التي قالت فيها: ”لَمَّا عدنا إلى ديار بني سعد ومعنا ذلك
 اليتيم، كانت أرضنا تعاني من قحط شديد، وكانت أغنامنا جائعة لا تجد
 ما تشبع به. ولكن منذ حلّ محمّد ﷺ بيننا، انقلب الحال فأصبحت
 أغنامنا دارةً للبلن بوفرة، حتى أصبح جيراننا يتمنون لو كان لديهم مثله،
 فقد أزال الله به عنا الفقر والشدة، وجعل فيه البركة كلها“^(٢).
 وبقي الرسول ﷺ في رعاية (حليمة) وأسرتها في البادية حتى بلغ
 الخامسة من عمره، لتعود به بعد ذلك إلى أمّه وجدّه (عبد المطّلب)

١ - للمزيد راجع: عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين السيوطي):
 الخصائص الكبرى، ج ١، ص ٥٧؛ جعفر مرتضى العاملي: الصحيح من سيرة
 النبي الأعظم ﷺ، ج ٢، ص ١٤٧.
 ٢ - راجع: أحمد بن إسحاق اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٠؛ محمد بن
 جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ١، ص ٥٧٣.

الذي تكفل به قبل أن ينتقل إلى كف عمّه (أبي طالب) الذي واصل رعايته وحمايته.

رابعاً: النَّبِيُّ ﷺ في كفالة جدّه

بعد أن عاد الرسول الكريم ﷺ من حي (بني سعد)، تُوفيت والدته، وهو ما زال في السادسة من عمره، وبهذا بات يتيم الوالدين...! فانتقل ﷺ للعيش في كف جدّه لأبيه (عبد المطلب) الذي وفر له كلّ اهتمام ورعاية وحضانة أبويّة حقيقيّة، حتى أنّه كان يفضّله على باقي عائلته أبناء وأحفاداً... وعلى ما يبدو فقد كان هناك سرٌّ كامن وراء هذا الاهتمام والاحتضان الأسري للجدّ (عبد المطلب)، وهو أنّه كان يعرف بما سيكون عليه محمّد ﷺ في المستقبل على مستوى عظمة شأنه وموقعيّته، وقد ظهر هذا من خلال أمرين اثنين:

١. ظهور كثير من الخصال والصفات والملامح لدى محمّد ﷺ منذ صغره، خاصّة لجهة تدفق الخيرات والبركات، وأيضاً ما رافق حياته من بعض الأحداث منذ لحظة الولادة، ومن ثمّ وهو في حضن أمّه، ولاحقاً انتقاله إلى بيت المُرُضعة التي سلّطت الضوء على ما جرى لها من سعادة وسرور بعد إرضاعها له، وما حصل لعائلتها من خير وفير.

٢. كثير من البشائر والروايات التي تحدّث (وتنبّأت) عن وجود مستقبل زاهر ينتظر هذا الطفل خاصّة على صعيد نبوّته. ومع زيادة تلك العلامات والبشائر، ترسّخت في نفس (عبد المطّلب) حالة اعتقاديّة عميقة في شأنيّة الحفيد العظيم، وهذا ما دفعه إلى تعميق اهتمامه بالنبي الكريم ﷺ، وإحاطته بالحبّ والعناية الأبويّة الكاملة، جاعلاً له مكانة عالية ومرموقة لم يصل إليها أحد غيره، حتى من الأبناء... لكنّ هذا الحنان الدافق وهذه الرعاية الكريمة لم تدم له ﷺ طويلاً، فقد تُوفيَّ (عبد المطّلب) والنبيّ في الثامنة من عمره، فانتقل بعده إلى دار عمّه (أبي طالب)^(١).

خامساً: محمّد ﷺ في ظلّ رعاية (أبي طالب) الهاشميّة:
ذكرت الأخبار الموثّقة أنّ (عبد المطّلب)، جدّ النبي الكريم ﷺ، جمّع أبناءه العشرة قبل وفاته بقليل، وأودعهم أهمّ وصيّة لديه، وهي ضرورة اهتمامهم الكبير واحتضانهم العميق لهذا الطفل اليتيم، ملمّحاً لهم أنّ شأنًا عظيمًا سيحصل له في قادم الأيام، حتى أنّ بعض الروايات

١ - راجع: محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ص ١٧١.

نقلت عنه أنه قال بالحرف: "قد خلقتُ في أيديكم الشرف العظيم الذي تطؤون به رقاب العرب" ^(١)... ولم يتأخر كثيراً (عبد المطلب) في اختيار (أبي طالب) ليكون كفيلاً لابن أخيه محمد ﷺ، يشرف على رعايته وتنشئته، ويدير شؤونه، وهو ما زال طفلاً ينمو ويكبر، وهذا الاختيار جاء لدافعين:

١. إنَّ (أبا طالب) كان أخاً لوالد الرسول الكريم ﷺ من أمِّه، أي إنَّ (عبد الله) و(أبا طالب) كانا من الأم نفسها والأب نفسه.. وأمهما هي (فاطمة بنت عائد المخزومية)، بما يعني عملياً أنَّ عمَّ الرسول ﷺ سيكون أكثر رعاية واحتضاناً وحناناً لابن أخيه من أمِّه وأبيه، من بقية إخوته الذين اشترك معهم فقط بالنسب الأبوي؛ لأنَّهم كانوا من أمِّهات شتى.

٢. يكمن في طبيعة شخصية العم (أبي طالب) الذي كان يتمتّع بصفات شخصية عالية من الكرم، والأخلاق، والنبل، والعطف، والإنسانية، والمكانة العالية، يتفوق بها على أخوته.. وهذا ما أعطاه مكاسب عملية أكثر منهم، فورث زعامة أبيه، وخضع لزعامته القريب والبعيد بالرغم من

فقره^(١).. وهنا نذكر الحديث الآتي الوارد عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام بهذا الخصوص؛ حيث يقول: "إنَّ أبا سادَّ الناسَ فقيراً، وما سادَّ فقيراً قبْلَه"^(٢).

وبالنتيجة، فقد نفذ العم (أبو طالب) وصية أبيه بالكامل، فقد كان خير المعين والراعي لابن أخيه الرسول الكريم ﷺ، منشغلاً به طول الوقت، هو وزوجته السيدة فاطمة بنت أسد، ولم يتخلفا عن الاهتمام والعناية حتَّى آخر نفس من حياتهما المباركة.. حتى أن (أبا طالب) كان يأخذ ابن أخيه معه إذا كان مضطراً للسفر إلى خارج مكة أو الحجاز^(٣).. بما يعكس خوفه عليه، وحرصه الشديد على ألا يتعرض لأي مكروه..

سادساً: سفره إلى دمشق الشام

بعد أن أصبح النبي يافعاً، بدأ يذهب إلى الشام مع القوافل التجارية لقبيلة قريش، وكانت له رحلتان، الأولى يرافقه عمه، والثانية، يكون

١ - محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ص ١٧١.

٢ - راجع: أحمد بن إسحاق اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٤.

٣ - راجع: محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ص ١٧١؛ محمد بن علي (الشيخ الصدوق): الأمالي، ص ٣٩١.

بصحبة غلام لخديجة لقضاء حوائج تجارية لها.. وبشيء من التفصيل يمكن أن نتحدث عن طبيعة الرحلتين السابقتين..

ففي الرحلة الأولى التي كان يخرج فيها النبي (وعمره اثنتا عشرة سنة) مع عمه (أبي طالب) للتبادل التجاري مع الشام، تذكر الروايات أن القافلة توقفت لبعض الوقت في منطقة بُصرى (التابعة لمدينة درعا السورية حالياً)، وكان في المنطقة راهب يدعى بحيرا. وبالصدفة، لاحظ راهبٌ قافلة قريش، فاستوقفته شخصية النبي محمد ﷺ وأخذت باهتمامه. وقد بدأ يتأمل ملامحه وصفاته بعناية، خاصة بعد أن رأى غيمةً بيضاء تظله وتتحرك معه أين ما جلس لتقيه حرارة الشمس. عندئذ، سأل بعض أفراد القافلة عن هذا الفتى، فأرشدوه إلى عمه (أبي طالب). فتوجه الراهب إليه مسرعاً وبشّره بأن ابن أخيه هو النبي المنتظر لهذه الأمة، موضّحاً له أنّ العلامات التي رآها على جسده الشريف، ومنها خاتم النبوة بين كتفيه، تطابق تماماً النعوت والصفات المذكورة في الكتب السماوية السابقة، مثل التوراة والإنجيل وغيرها^(١).

وتتحدث الروايات أنّ الراهب (بحيرى) أبدى إصراراً كبيراً في ضرورة أن يعود (أبو طالب) إلى مكة للمحافظة على النبي ﷺ، وإبقائه

تحت رقابته حماية له من كيد اليهود وغيرهم، وهذا ما فعله العم (أبو طالب)؛ حيث قطع رحلته وعاد أدراجه -مع ابن أخيه- إلى مكة. وفي الرحلة الثانية: حيث وصل عمر النبي الكرم ﷺ إلى سن الخامسة والعشرين، غادر مكة في تجارة خاصة بالسيدة خديجة، ويشير الرواة والمؤرخون إلى «أنَّ أبا طالب (عم الرسول) هو من أشار على النبي بالعمل التجاري مع خديجة، بسبب الوضع المادي الصعب الذي كان يعيشه آنذاك»^(١)... والجدير ذكره هنا أنَّ العمل التجاري مع السيدة خديجة كان على شكل شراكة وليس تبعيَّة، بما يعني أنَّه ﷺ لم يعمل أجيراً عندها أبداً؛ حيث سافر «برفقة ميسرة، وهو يعمل لدى خديجة، وربح في تجارته أضعاف ما كان يربحه غيره، وظهرت له في سفره بعض الكرامات الباهرة، فلما عادت القافلة إلى مكة أخبر ميسرة غلام خديجة سيِّدته بذلك»^(٢).

سابعاً: زواجه ﷺ من السيِّدة خديجة (عليها السلام)

أصبح النبي ﷺ شاباً، وبدأ نجمه يلعب بين القبائل أخلاقاً وكرماً ونبلاً

-
- ١ - راجع: عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج ٥، ص ٣١٨، باب ما جاء في حفر زمزم، ح ٩٧١٨؛ عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ١١٨؛ جعفر مرتضى العاملي: الصحيح من سيرة الرسول ﷺ، ج ٢، ص ١٧٦، ج ٣، ص ٢٣.
 - ٢ - جعفر مرتضى العاملي: الصحيح من سيرة الرسول ﷺ، ج ٢، ص ١٩٨.

وصدقاً في الحديث والمعاملة، وبهذه الصفات احتلّ قلوب الناس، وذاع صيته، حتى أنّ السيِّدة خديجة هي من تقدّمت بطلب الزواج منه، قبل البعثة النبويّة قرابة خمس سنوات.. وبالفعل حصل الزواج بعد أن عاد ﷺ من رحلته الثانية إلى الشام، وكان وقتها في الثلاثينات من عمره الشريف.. ويعتقد كثير من الرواة التاريخيين أنّ عمر السيِّدة خديجة حين زواجها من الرسول الكريم ﷺ لم يكن أكثر من ثمانية وعشرين عاماً^(١).. وكان زواجها منه ﷺ هو الزواج الأوّل في حياتها رغم وجود بعض الروايات والنصوص التاريخيّة التي أشاع أصحابها عن زواجها لمرّتين قبله^(٢)، ولكنّها السياسة الضيّقة، ومحاولات النيل من شخصيّة زوج الرسول..

أما عن أولاد النبيّ محمد ﷺ من زواجه هذا، فكانوا: (القاسم)، و(عبد الله)، و(زينب)، و(رقية)، و(أم كلثوم)، و(فاطمة الزهراء) ﷺ، أما (إبراهيم) فقد ولدته زوجته مارية القبطيّة، وتُوفّي وهو صغير..^(٣).

١ - أحمد بن الحسين البيهقي: دلائل النبوة، ج ٢، ص ٧١.

٢ - والرجلان - كما زعموا - هما: عتيق بن عائذ المخزوميّ، ثم أبو هالة التميميّ، راجع: حسين بن محمد الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، ج ١، ص ٢٦٣.

٣ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: تاج المواليد، ص ٨؛ محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٣، ص ٢٦٢.

ثامناً: عمله ﷺ قبل البعثة

لم يكن الأنبياء ﷺ عالَةً على غيرهم، فكثير منهم كان يعمل ويستحصل على رزقه من تعبهِ وكدحه، وهذا ليس عيباً بطبيعة الحال، طالما أنَّ الغاية تكمن في تأمين العيش الكريم له ولأهله دونما مدِّ اليد إلى أحد من الناس، أو العيش على حساب الآخرين.. وفي هذا درس عملي وعبرة حياتية للأتباع والمريدين..

وفي ديننا الإسلامي، توجد كثير من النصوص الدينية، سواء منها القرآنية أم الحديثية التي تحض على قيمة العمل، وتوصي المسلمين بضرورة الانخراط في ميادينه، وتوجب عدم التثاقل والكسل، مع التأكيد على أنَّ العمل عبادة حقيقية.. وأنَّ البطالة عيب وحرام ودعوة إلى العيش الطفيلي الخالي من المسؤولية والكرامة الإنسانية.

وهذا هو الرسول الكريم ﷺ في حياته قبل أن يبعث نبياً؛ حيث كان نموذجاً للإنسان العامل من أجل كسب رزقه وتأمين حاجاته ومعيشته.. فقد عمل في رعي الأغنام، واشتغل بالتجارة (مع السيدة خديجة)، وكان فيها شريكاً له حصّة من أرباح العمل.

تاسعاً: مكانة النبي محمد ﷺ قبل البعثة

لقد كوّن مجتمع مكة والقبايل المحيطة بها انطباعاً طيباً عن شخصيّة

النبي ﷺ - التي عرفت بالإخلاص، والشهامة، والأمانة، والنبيل، والصدق في العمل، والحكمة، وبُعد النظر في التعامل - فأصبح موضع تقدير واحترام كبيرين لديهم، حتى أنَّهم أطلقوا عليه الصادق الأمين، "كما اشتهر برجاحة عقله، وصواب رأيه "حتَّى وَجَدَ فِيهِ الْمَكِّيُّونَ وَالْقُرَشِيُّونَ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ الْعَرَبِ الْمُوهَبِينَ، وَمَرْجَعًا إِلَيْهِمْ فِي الْمَهْمَّاتِ وَحَلًّا لِلْمَشْكَلاتِ وَالْخُصُومَاتِ" (١) .. ما جعل الناس تتحاكم في مشكلاتها ومنازعاتها إليه ﷺ؛ لأنَّه كان لا يُداري ولا يُماري (٢).

عاشراً: رؤية النبي ﷺ وموقفه من حرب الفجار

كانت القبائل العربية في الفترة التي سبقت بعثة الرسول ﷺ، وحتى بعدها، تختلف مع بعضها، وتدخل في ما بينها - بين وقت وآخر - في صراعات وحروب دموية بعد انعدام المعالجات والحلول السلمية.. وعندما كان الرسول الكريم محمد ﷺ في عقده الثاني، اشتعلت الصراعات - على سبيل المثال - بين كل من قبيلتي (قيس) و(قريش)، ويعود السبب في اندلاع القتال بينهما إلى قيام (النعمان بن المنذر) بقتل أخ لـ (بلعاء بن قيس)؛ حيث إنَّ (بلعاء) كان يمارس أعمال السرقة

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٦٨.

٢ - سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الأوسط، ج ٢، ص ١٤٥.

والنهب (البلطجة) والاعتداء على القوافل التجارية لـ (النعمان)،
 "فطلب النعمان من عروة بن عتبة ومن البراض بن قيس حمايتها،
 فتبرّع كلّ منهما لذلك، وتنازعا أيّهما يقدم هذه الخدمة للنعمان، فكان
 أن تعرّض البراض لعروة وقتله، فتعصّبت لكلّ منهما قبيلته ووقعت
 الحرب في شهر رجب وهو أحد الأشهر الحرم، ولذلك أطلق عليها
 بحرب الفجار؛ لأنّ المنخرطين فيها فجروا، وانتهكوا الأشهر الحرم"^(١).
 وبطبيعة الحال، وبالنظر لحكمة العم (أبي طالب)، فقد امتنع -
 مع بني هاشم- عن الانخراط في هذه المنازعة الحربية بين القبيلتين؛
 باعتبارها كانت حرباً ظالمة وخاسرة للفريقين، ولا بدّ من إيقافها.. وهنا
 تجدر الإشارة إلى أنّ النبي محمد ﷺ -وكان وقتها يعيش في كنف
 عمّه- التزم بقرار الجماعة، ولم يشارك أبداً في تلك الحرب.

حادي عشر: موقفُ النبي ﷺ من حلف الفضول

كانت مكة قبلّة للحجّاج والزائرين والتجّار ممن كانوا يتوافدون إليها

١ - راجع: عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٥؛ أحمد بن إسحاق
 اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥؛ أحمد بن عبد الوهاب النويري: نهاية الأرب
 في فنون الأدب، ج ١٦، ص ٩٣؛ عبد الرحمن بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر
 في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج ٢، ص ٦٥.

من كلِّ الشعب والأماكن، وكانت تحدث أعمال اعتداء من سرقة ونهب وغيرها على تلك الوفود والقوافل التجارية، وبهدف مواجهة قطاع الطرق واللصوص، والتخلّص من تلك الممارسات القبيحة، اقترح (الزبير بن عبد المطلب) تأسيس وعقد شكل من أشكال التحالف بين القبائل في قريش.. وبالفعل فقد تداعت القبائل، وعقد بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد وغيرهم، اجتماعاً موسّعاً في دارة (عبد الله بن جدعان)، أعلنوا في نهايته عن إقامة تحالف لمواجهة الظلم والفساد، والانتصار للمظلوم، والدفاع عن الحق، ومنع الاعتداء على القوافل، وأطلق عليه بتحالف (حلف) الفضول.. ويعود سبب التسمية إلى أنَّ زعماء قبيلة قريش قالوا بعد عقده بأنّه فضول من الحلف، وقيل: لأنَّ ثلاثة ممّن اشتركوا فيه كانوا يُعرفون باسم الفضل.. وقد حضر الحلف الرسول الأكرم (ص)، ولم يكن له من العمر إلاَّ عشرون سنة.. وقد كان هذا الحلف موضع ثنائه ﷺ، ورؤي أنّه قال ﷺ: "لقد حضرتُ في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما يسرّني به حُمر النعم، ولو دعيتُ إلى مثله لأجبتُ"^(١).

١ - راجع: عبد الحميد بن هبة الله (ابن أبي الحديد المعتزلي): شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٢٩؛ إسماعيل بن عمر القرشي (ابن كثير): البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٩٣؛ علي بن الحسين الأصفهاني: الأغاني، ج ١٦، ص ٦٥؛ علي بن ابراهيم الحلبي: السيرة الحلبيّة، ج ١، ص ١٣٢؛ علي بن الحسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ١٧.

وإذا ما حاولنا أن ننظر بتمعن وتدقيق، وشيء من التحليل العقلي إلى هذا الحلف، فيمكننا أن نؤكد على ما يأتي:

إنَّ إشادة الرسول الكريم ﷺ بهذا الحلف، وثنائه على ما ورد في حلف الفضول، من أفكار وحلول، له دلالة على أنَّه ﷺ كان موافقاً على ما ورد فيه من معالجات لا تخالف الإسلام، بل هي منسجمة مع طروحاته وأهدافه في إحقاق الحقوق، ورفع الظلم، والدعوة إلى الخير والسلام.

في دلالة على حكمته والتزامه بالقيم الإنسانية، وأنَّه فعلياً كان مبتعثاً لإتمام مكارم الأخلاق، نجد كيف أنَّ الرسول الكريم ﷺ يثني على حلف الفضول في أفكاره ورؤيته، رغم أنَّ أصحابه والقائمين عليه كانوا -في العرف الإسلامي- كفَّاراً ومشركين، ولكنَّه قام بهدم مسجد "ضرار" مع أنَّ الذين شيّدوه كانوا -يومها- مسلمين (ولو ظاهرياً)! بما يعكس حقيقة قناعة النبي ﷺ أنَّ سلوك المرء وتعامله يعكس أصل وعيه وضميره الإيماني الفطري.

يعطينا الاهتمام الذي أبداه الرسول ﷺ بحلف الفضول، دلالة واضحة على استجابة الإسلام لكلِّ فكر وعمل خيرٍ إيجابي، بما يشير إلى انفتاحه وعدم انغلاقه على أيِّ أفكار وقيم إنسانية، وهذا يأتي استناداً من شعوره العالي بالمسؤولية، واستجابة لمقتضيات الفطرة السليمة.

ثاني عشر: مجريات هدم الكعبة وتجديد بنائها

ذكرت الأخبار الواردة في كثير من كتب التاريخ المعتبرة أنَّ الكعبة -قبل النبوة قرابة خمسة أعوام- تعرضت لعملية هدم تسببت بها سيول جارفة، وقد اجتمع قادة قريش واتَّخذوا قراراً بهدم ما تبقى منها، ومن ثمَّ إعادة بنائها وتجديدها، وقاموا بتأمين ما يلزم لهذا العمل من أموال ونفقات، شارك النبي ﷺ فيها، وفي جمع حجارة الكعبة..

وعندما انتهى العمل في بناء الكعبة، ولم يبقَ إلا الحجر الأسود، اختلف القائمون على العمل في تحديد موضع الحجر... وذكرت الروايات أنَّ هذا الأمر كاد أن يتسبَّب بتفجير فتنة بينهم، فاتَّقوا على أن يُحكِّموا في هذا التنازع أوَّل شخص يدخل عليهم، وكان هذا الشخص هو الرسول الكريم ﷺ، فلمَّا رأوه، ارتاحت أساريهم لمقدمه قائلين: لقد جاءكم الصادق الأمين، أو هذا الأمين قد رضينا به حكماً.. ”فطلب منهم الرسول ﷺ إحضار ثوب، ولما أحضروه أخذ النبي الحجر ووضعه ضمن الثوب بيده، ثمَّ التفت إلى شيوخهم، وقال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ثمَّ ارفعوه جميعاً.. فاستحسنوا ذلك ووجدوا فيه حلاً يحفظ حقوق الجميع، ولا يعطي لأحد امتيازاً على الآخر، ففعلوا ما أمرهم به، فلمَّا أصبح الحجر بمحاذاة الموضع المخصَّص له، أخذه

رسول الله بيده الكريمة ووضعه مكانه“^(١).

المبحث الثاني: البعثة والهجرة

أولاً: الإعدادُ الإلهيُّ للنبيِّ الأكرم ﷺ قبل تكليفه بالنبوة
 إنّ حمل الرسالة وأداء مهام النبوة بهدف هداية الناس إلى الحق والعدل، هي من أعظم الأعمال التي جهّز الله رسوله الكريم محمد ﷺ للتصدّي لها، والقيام بأداء مهمته الرسالية على أكمل وجه، كما وهبها لتحمل ظروفها، وصعابها، والقيام بواجباتها، وأمانتها بمسؤولية وحكمة. فقد جاء في الحديث عن (أبي حمزة)، أنه قال: ”سألتُ أبا عبد الله (عليه السلام) عن العلم، أهو علمٌ يتعلّمه العالم من أفواه الرجال، أم في الكتاب عندكم تقرأونه، فتعلمون منه؟ قال (عليه السلام): الأمر أعظم من ذلك وأوجب، أما سمعتَ قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]؟ ثم قال: أيّ شيء يقول أصحابكم في هذه الآية؟ أيقرون أنه كان في

١ - راجع: ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ٢٧٨؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٠٤؛ ابن الأثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٣٠٠؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٢٩.

حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان؟ فقلتُ: لا أدري -جعلتُ فداك- ما يقولون؛ فقال [لي]: بلى قد كان في حال لا يدري ما الكتاب، ولا الإيمان حتّى بعثَ الله تعالى الروحَ التي ذكر في الكتاب، فلمّا أوحاها إليه علمَ بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء، فإذا أعطاهَا عبداً علّمه الفهم“^(١). وكان الرسول الكريم ﷺ يأتي إلى غار حراء للتعبّد والتوجّه إلى الله، قبل بعثته النبويّة، وهو المكان نفسه الذي يتعبّد فيه جدّه (عبد المطلب)^(٢).

ثانياً: التبشير بالنبوة

عندما وصل الرسول الكريم إلى عامه الأربعين، اصطفاه -تعالى- ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين، كي يبلغ رسالته ودينه للناس جميعاً، ويهديهم سواء السبيل، وقد جاء عن أئمة أهل البيت ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻴﻦ أنّ بعثة الرسول الكريم ﷺ بدأت في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب بعد عام الفيل بأربعين سنة، أي في العام ٦١٠ ميلاديّة. وابتدأت الدعوة والبشارة النبويّة بنزول الوحي بواسطة جبرائيل الأمين ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻲ على النبي في غار

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٧٣.

٢ - أحمد بن حنبل: مسند أحمد، ج ٦، ص ٢٣٣.

حراء، وكانت الآيات التي نزلت وقرأها عليه هي قوله عز وجل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

وبعد تلقّيه رسالة الوحي الإلهي وتلقينه ذلك البيان القرآني، رجع الرسول ﷺ إلى بيته وجماعته، وهو يعيش حالة من البشـرى والسعادة والسرور الكبير، فالله -تعالى- أكرمه بجعله نبياً رسولاً للعالمين، ولهذا لم يكن خائفاً ممّا قد حدث له، من مجريات بدء رسالته الإسلامية التي كانت بالنسبة له مقام تشریف، خاصّة وأنّه كان على علم بنبوّة نفسه^(١)، وكان في حالة انتظار لتلك اللحظة التي سيأتيه فيها الملك جبريل لإعلانه نبياً مرسلًا.. وهكذا عندما دخل على زوجته خديجة (عليها السلام) أعلمها بما جرى له، وما تلقّاه من جبرائيل، فوجّهت كلامها له قائلة: أبشـر فو الله لا يفعل الله بك إلا خيراً، وأبشـر فإنك رسول الله حقاً.. وبهذا الخصوص، جاء في الحديث المروي أنّ الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) سئل: كيف لم يخف رسول الله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ممّا ينزغ به الشيطان؟ فأجاب (عليه السلام): "إنّ الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه

١ - راجع: ابن حنبل: مسند أحمد، ج ٦، ص ٢٣٣؛ محمد بن اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، ج ١، ص ٣.. وغيرها من المصادر التي أشارت إلى ذلك.

السكينة والوقار، فكان الذي يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه“^(١).

ثالثاً: أوّل المسلمين

كان أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام أوّل الناس إسلاماً وإيماناً وتصديقاً بالنبوة والرسالة، رغم أنه كان صغيراً لم يتجاوز العاشرة من عمره بعد.. فهو كان ملازماً للنبي الكريم ﷺ، ولم يفارقه حتى وهو مُتَعَبِّدٌ في غار حراء^(٢). وعندما أعلم زوجته خديجة بأمر نبوته، آمنت به، لتكون أوّل امرأة من المسلمات.. وجاء في روايات التاريخ في مظانّه الأساس المعتمدة، أنّ الرسول الكريم ﷺ “بُعْثَ يوم الاثنين، وصلى عليّ وخديجة معه يوم الثلاثاء، ولم يكن على وجه الأرض أحدٌ يعبد الله على هذا الدين إلاّ النبيّ وعليّ وخديجة، وكانت أوّل صلاة صلاها عليّ مع النبي الكريم ﷺ صلاة الظهر“^(٣).

١ - محمد بن مسعود العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٠١.

٢ - راجع: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ١٥؛ أحمد بن علي المقريزي: إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، ص ١٦؛ أحمد بن شعيب النسائي: خصائص أمير المؤمنين، ص ٣؛ محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٨، ص ٢٧٩.

٣ - راجع: محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ص ١٨٩؛ محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٠٩؛ محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٤، ص ١٦٣.

رابعاً: الدَّعوةُ الإسلاميَّةُ وتحدياتها العمليَّةُ
لم تكن مسيرة الدعوة الإسلاميَّة على نسق واحد، فقد مرَّت خلال
حياة الرسول ﷺ، منذ بدء البعثة وحتى وفاته ﷺ، بمرحلتين:

١-مرحلة الدَّعوة الهادئة للأفراد:

حيث اتَّجهت دعوة الرسول في البداية إلى الجانب الفردي وآحاد
الناس، بشكلٍ هادئٍ وبعيدٍ عن مواجهة التحديات والصدامات،
خاصَّةً مع رموز قريش الذين كانوا يعيشون العصبيَّة لأوثانهم.. أي
أنَّ النبي ﷺ حرص منذ انطلاقة دعوته أن يبتعد عن الأجواء العامَّة
المشحونة، ولهذا لم يكن يظهر كثيراً في مجالس رموز قريش، بل
اقتصَر في دعوته بدايةً على كسب من كان يعتقد مسبقاً أنَّه سيؤمن به،
”فأمن به عدد قليل من الناس تبعاً.. واختار النبي ﷺ لهم دار (الأرقم
بن أبي الأرقم) في مكَّة ليلتقي بهم فيها، ولتكون مركزاً يمارسون فيه
عبادتهم وصلاتهم بعيداً عن أنظار قريش. وكانت حصيلة الدعوة في
هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلاً وامرأة، عامَّتْهم من الفقراء“^(١).. وكان

١ - راجع: محمد بن اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، ج ٢، ص ٢٠٦؛ ابن
كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٣٤؛ ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة،
ج ٣، ص ٥٩٨.

لهذا الأسلوب الدعوي نتائج مُهمّة، فمن جهةٍ وقرّ ﷺ الحماية الكاملة للجماعة المؤمنة، بعيداً عن تعريضها لأي فعل من جهة المشركين قد يعيق حركتها، أو يفكك صلتها بدعوته، بما يدفعها للتشردم.. ومن جهة أخرى، نتج عن تلك الحماية، توفيره ﷺ للعدد اللازم من المسلمين المؤمنين برسالته، بحيث تكون قادرة على تحمّل مسؤوليّات التغيير المنشود عن جدارة وإيمانٍ كاملين.

٢-مرحلة الدعوة العامّة لكلّ الناس:

في هذه المرحلة استجاب الرسول الكريم ﷺ للأمر الإلهي بإعلان دعوته لكلّ الناس، وانطلق منفذاً الأمر التكليفي من خلال تبني الخطوتين أو الأمرين الآتين:

أ. قيامه بدعوة الأقربين من بني عشيرته وقومه من أبناء (هاشم) (عبد المطّلب) إلى دين الله، وإبلاغهم بالرسالة وضرورة العمل بها خضوعاً والتزاماً بأمره -تعالى- الذي يقول بهذا الخصوص: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول بدعوة المحيطين به من أقربائه وبني قومه؛ لأنّ في ذلك تركيزاً للرسالة وتشبيهاً لدعائمتها الأولى، فحضّ أهله وبني عشيرته للدّود عنها في

حال تعرّضت للمخاطر والتحديّات.

ب. قام النبي الكريم ﷺ بإعلان دعوته إلى عامّة الناس، بمن فيهم مجتمع قريش الذي كان ينتمي إليه؛ حيث دعاهم إلى الدخول في الدين الإسلامي، مستجيباً لأمر الله تعالى؛ حيث جاء في الروايات: "صعد النبيّ على الصفا، ونادى قريشاً وقبائل مكّة؛ فلما اجتمعوا قال لهم: "أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً في سفح جبل قد طلعت عليكم، أكنتم مصدقي؟! قالوا: نعم، أنت عندنا غير متّهم، وما جربنا عليك كذباً قط. فقال ﷺ: "إنيّ نذيرٌ لكم من عذابٍ شديد، إنّ الله أمرني أن أنذركم من عقابه، وإنّي لا أملكُ لكم من الدّنيا منفعَةً ولا من الآخرة نصيباً إلّا أن تقولوا لا إله إلا الله"، فلم تستجب له قريشٌ، وقامت بخطوات لمواجهة حركته ودعوته في قريش ومكّة^(١).

١ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص ٧٦٨؛ علي بن إبراهيم القمي: تفسير القمي، ج ٢، ص ٤٢٨؛ العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٥٣؛ أحمد بن إسحاق اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٤.

خامساً: محاولات قريش لإسقاط النبوة

١. تكذيب النبي ﷺ والاستهزاء به، وبما جاء من تعاليم وقِيم وأوامر إلهية.. ورموه بالسحر والشعوذة، واتَّهموه بالجنون.. وهذا كان ردُّهم الأوَّلي؛ حيث بقيت المواجهات في إطارها النظري والسجال الكلامي الذي لم يصل إلى مرحلة الصدام المباشر.. ولكن الدعوة يجب أن تستمرَّ وتحرك، وتتجدَّر مع ازدياد نشاط النبي ﷺ. ولهذا من الطبيعي أن يكونَ له ولدعوته أعداءٌ وخصوم؛ لأنَّ الأمر الإلهي يقوم على التوحيد، ورفض الشرك، وهذا بالضرورة سيجعل الدعوة تتواجه مع أصنام قريش وآلهتها والقائمين عليها.. ومع الاستمرار في الدعوة، وتثبيتها، وزيادة أعداد المؤمنين بها، جعل المشركون يفكِّرون بأنَّها دعوة جدِّية وقويَّة، وتبحث عن تقوية مواقعها.. ولهذا وجدوا أنَّه لا مناص من المحاوراة والمفاوضة مع رأس الدعوة، النبيِّ الكريم ﷺ؛ حيث بدؤوا بمساومته على دعوته.. وتذكر لنا كتب التاريخ أنَّ مجريات التفاوض مرَّت بعدَّة مراحل، كانت بمجملها فاشلة وعقيمة، ولم ينتج عنها أيُّ شيء.. وهي:

أ. ففي مرحلة التفاوض الأولى: بدأت نخب قريش بمحاولات استعطاف عمّ الرسول (أبي طالب) لكي يقوم هو بالضغط على النبي ﷺ؛ حيث قالوا له: "إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل أبناءنا، فإمّا أن تكفّه عنّا، وإمّا أن تخلي بيننا وبينه.. فردّهم أبو طالب ردّاً رفيقاً، فانصرفوا عنه"^(١).

ب. مرحلة التفاوض الثانية: رفع قادة قريش من مستوى الضغط على النبي الكريم ﷺ، وقرّروا عدم المهادنة معه، ولهذا جاؤوا إلى عمّه (أبي طالب) ثانية قائلين له: "إنّا كنّا قد استنهيناك عن ابن أخيك، فلم تنهه عنّا، وإنّا والله لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا وعيب آلهتنا حتّى تكفّه عنّا، أو ننازله وإيّاك حتّى يهلك أحد الفريقين.. فما كان من (أبي طالب) إلا أن وعدهم بأنّه سيقوم بإبلاغ ابن أخيه بموقفهم هذا، وهذا ما فعله، لكن ردّ الرسول الكريم ﷺ كان حاسماً، وكان ذلك الردّ الأبدي الخالد: "والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في

١ - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٥٢.

يساري على أن أترك هذا الأمر حتّى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته“^(١).

ج. مرحلة التفاوض الثالثة: حاولوا إغراء عمّ الرسول (أبي طالب) من خلال عرضهم القائم على مبادلة الرسول لكي يقتلوه، بـ (عمارة بن الوليد)، وهو أجمل فتى في قريش، ليصبح في كنفه ورعايته عوضاً عن النبي الكريم ﷺ، ولكنّ (أبا طالب) رفضه عرضهم، ووبّخهم قائلاً: ”لبئس ما تسومونني عليه، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكُم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً“^(٢).

د. كما حاولوا إجراء مساومة مع الرسول ﷺ من خلال إغرائه بالمال والنفوذ والجاه، ولكنّه ﷺ أبى ورفض، ما جعلهم يقرّرون أنّه رجل حازم ومؤمن بقضيّته، لا يساوم، وبالتالي لا يمكن إخضاعه لا بمال ولا بسلطان^(٣).

١ - ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٦٦.

٢ - الموفق بن أحمد الخوارزمي: مناقب علي بن أبي طالب، ج ١، ص ٧٣.

٣ - راجع: أحمد بن إسحاق اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٤؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٦٥؛ محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٢٦.

٢. محاولتهم منع الناس عن اللقاء بالرسول ﷺ، والغاية من ذلك هو ألا يستمعوا وينصتوا لما كان يتلوهُ ﷺ من آيات قرآنيّة. وقد تحدّث القرآن عن ذلك في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

٣. التعرّض المباشر للرسول ﷺ عبر محاولات الإيذاء الجسدي.. فقد قاموا برجم منزله بالحجارة، كما رموا عليه التراب، ودفعوا الأولاد والأطفال ليسخروا منه، ويرمونه بالحجارة أيضاً. وكان ما فعله مشركو قريش وسفهاؤها (كأبي جهل، وعقبة بن أبي معيط، وأبي لهب وزوجته) في محاولاتهم النيل من النبي الكريم وإلحاق الضرر به، أمر لم يسبق أن تعرّض له أي نبي آخر، حتى قال ﷺ: "ما أُوذي نبيٌّ مثْلَ ما أُوذيتُ"^(١).

٤. تبنّيهم لسياسات القوّة القائمة على العنف، والإرهاب، والتنكيل بالنخبة المسلمة والمؤمنّة التي التحقت بالإسلام، وخاصّة الفقراء منهم والضعفاء ممن لا ظهرَ يسندهم، ولا

عشيرة تدافع عنهم، كـ (آل ياسر)، و(بلال الحبشي)، ومن لفّ لفهم.

٥. استخدامهم لسلح الضَّغَط الإعلامي والدعايات المضلَّلة ضدَّ الرسول ﷺ، وهذا ما نلاحظه من خلال قيام سادة قريش ومحازبيهم بالترويج بين الوفود القادمة إلى مكّة بأنَّ محمَّدًا هذا ليس أكثر من ساحر، وأنَّه يفرِّق بين المرء وأبيه، وغير ذلك^(١).

سادسًا: الحصار في شعب (أبي طالب)^(٢)

حصارُ الشَّعب، هو الحصار الاقتصادي والاجتماعي الذي فرضته زعامات قريش على بني هاشم، من أجل إخضاعهم، بعد أن بدأت نبوّة ابنهم محمَّد ﷺ؛ حيث عقدوا اجتماعهم في دار الندوة، وكتبوا وثيقتهم التي تعاهدوا فيها على ما يأتي:

١. عدم التزاوج مع بني هاشم، فلا يزوّجهم، ولا يتزوَّجوا منهم.

١ - محمد بن إسحاق: سيرة ابن إسحاق (السير والمغازي)، ص ١٥١.

٢ - شعب أبي طالب: هو مكان في مكّة المكرمة، وهو أحد المواقع التي شهدت بداية ظهور الإسلام.

٢. منع البيع والشراء معهم، فلا تبادل اقتصادي مع بني هاشم أبداً.

٣. عدم الاجتماع مع بني هاشم على أي أمر.

٤. التعاون الكامل في ما بينهم، وأن يكونوا يداً بيد ضدَّ محمد ﷺ وبني هاشم وأتباعهم.

طبعاً، كانت قريش تفترض أنَّ هذا الضغط على بني هاشم، وعلى النبي الكريم، سيفضي إلى أمر من الأمور الثلاثة الآتية، فإمَّا أن يقوم بنو هاشم بتسليم بقتل ولدهم محمد ﷺ، وإمَّا أن يخاف النبي ويبدأ بالتراجع عن دعوته، وأخيراً يتحقَّق القضاء المبرم عليه وعلى كل من يقف معه نتيجة الحصار.

دام حصار قريش على بني هاشم ثلاث سنوات، وكان حصاراً جائراً استنزف كثيراً من معيشة المسلمين الذين كانوا ينفقون من الأموال العائدة لكلِّ من السيدة خديجة (عليها السلام)، وعمِّ الرسول (أبي طالب). وعندما نفدت الأموال، زادت حياتهم صعوبة؛ إذ لم يبقَ لهم شيء من الطعام يؤكَل، فاضطَّرتَّهم الظروف القاسية إلى أكل أوراق الشجر.. ونتيجة للحصار لم يكن المسلمون قادرين على الخروج من شعب (أبي طالب) إلا خلال عمرة شهر رجب، وموسم الحجِّ في شهر ذي الحجة.

وخلال تلك الفترة لم يتوان الإمام علي عليه السلام عن اختراق الحصار، وجلب الأكل والشراب للمسلمين بشكل سرّي من مكة.. أما العمّ (أبو طالب) فقد كان يفرض حراسة ورقابة صارمة على ابن أخيه محمد ﷺ، خوفاً من اغتياله على حين غرة؛ حيث كان يقوم بنقل الرسول الكريم ﷺ ليلاً إلى مكان آخر، ويكلف ابنه الامام علي عليه السلام بحراسته في مكانه الجديد. ومع عدم تسليم المسلمين للمشركين، وصل الحصار إلى نهايته، ”بعدما أكلت الأرضة ما في صحيفة المشركين التي تعاقدوا فيها على الحصار، وقيام جماعة منهم ممّن تربطهم ببني هاشم علاقات نسبيّة بنقض الصحيفة وإلغاء مفاعيلها“^(١).

سابعاً: أمر النبوة بالهجرة إلى مملكة الحبشة

أمر الرسول الكريم ﷺ المسلمين، بضرورة السفر والهجرة إلى الحبشة التي كان يحكمها ملك عادل، عرف بتسامحه. وبلغ عدد المهاجرين ممّن وُجدوا على أرض الحبشة ثلاثة وثمانين، ما بين رجل

١ - راجع: علي بن الحسين المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٠٠؛ الشيخ محمد بن محمد المفيد: إيمان أبي طالب، ص ٣؛ قطب الدين الراوندي: الخرائج والجرائح، ج ١، ٨٥.

وامرأة عدا الأطفال، وكان في مقدمتهم (جعفر بن أبي طالب) ابن عم رسول الله ﷺ^(١). ويمكن تلخيص الغاية من هذه الهجرة:

١. توفير الحماية للمسلمين في بداية الدعوة من الأذى، والظلم، وسياسات الإرهاب والعنف الذي كانت تمارسه ضدهم زعامات قريش، والتخلص من ضغوطهم الواصلة حدوداً لا تُطاق.

٢. الحصول على ملاذ آمن لجموع المسلمين، ولأي شخص جديد يدخل في دين الله، كي يتمكنوا من ممارسة طقوسهم وشعائهم الدينية بحرية ودون قيود أو ضغوط، خاصة في ظل ما كانت تقوم به قريش من تضيق الخناق على المسلمين، وزيادة اضطهادهم وقمعهم ومنعهم من ممارسة حريتهم الدينية.

٣. الانتقال إلى أرض جديدة، وفيها مسؤولية الدعوة للإسلام والتبشير بهذا الدين الجديد في قيمه ومبادئه وتعاليمه وتشريعاته، خارج منطقة الجزيرة العربية، خاصة أن الإسلام

١ - راجع: ابن أبي الحديد: نهج البلاغة، ج ١٣، ص ٢٦٨؛ محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٤١٢؛ محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٠٤؛ محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٢٩.

جاء ليكون ديناً عالمياً ورسالة للبشرية جمعاء، وفي هذا ضربة كبيرة لكبرياء زعامات قريش تفوقُ تصوراتهم وقدراتهم.

ثامناً: الخروجُ إلى الطائف

جاء في سيرة (ابن هشام) أنَّ النَّبيَّ الكريم ﷺ جاءَ إلى مدينة الطائف في السنة العاشرة من البعثة النبوية الشريفة، ومكث فيها قرابة عشرة أيام، فتجولَ بين أمكنتها وأحيائها داعياً الناس إلى الإسلام، ولكنَّهم لم يسمعوا منه، بل جلسوا في الطريق يرمونه بالحجارة حتَّى جرح في رأسه، فانصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى مكَّة^(١). وكان هدف النَّبيِّ ﷺ من انتقاله إلى الطائف -التي تمثلُ بلداً مُهمَّاً وكبيراً في الحجاز- محاولة إيجاد قاعدة شعبية قوية لدعوته تعوِّضه عن مكَّة (التي تعرض فيها -هو وأصحابه- إلى ضغوط قاسية من العنف والتعذيب)، خاصَّة مع وجود قبيلة كبيرة هناك في الطائف هي ثقيف.

١ - راجع: ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٥٧؛ محمد بن إسحاق: سيرة ابن إسحاق (السير والمغازي)، ص ٢٣٩؛ العياشي: تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٥٧.

تاسعاً: لقاء النبي ﷺ مع أهل يثرب

مع عودته من مدينة الطائف، انطلق النبي الكريم خلال موسم الحجّ ليستأنف دعوته، فاجتمع مع عدّة أشخاص من مجتمع يثرب في السنة الحادية عشرة للبعثة؛ حيث دعاهم إلى الإسلام، فأسلموا وآمنوا برسالته، وأعلنوا عن استعدادهم للعمل معه في سبيل تقوية هذه الدعوة حال رجوعهم إلى يثرب. وكان اجتماعه السريّ مع هؤلاء الأشخاص (وكان عددهم ستة) مهمّ وحيوي ومقصود؛ إذ إنّ سرّيّة العمل مع وجود عدد محدود من الأشخاص الموثوقين، سيسهم في تقوية الدعوة، خاصّة في بدايتها مع وجود أعداء كثر لها. أما العلانية، فما زال الوقت مبكراً عليها. والواضح أنّ الهدف النهائي للنبي ﷺ من وراء عقد هذا الاجتماع السريّ مع هؤلاء الرجال، كان يتمثّل في حضّ هؤلاء الأشخاص على القيام بنشاطات في بلدهم من أجل توفير المناخ اللازم لاستشارة التعاطف والتأييد مع الدعوة في قيّمها، ومعالمتها، ومبادئها الجديدة ضمن المدينة^(١).

١ - راجع: ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٧٧؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٨١.

عاشراً: العقبة الأولى

في موسم حجّ العام الثاني للهجرة، التقى النبي محمد ﷺ سرّاً مع اثني عشر رجلاً من أهل يثرب في مشعر صغير يُعرف بـ ”العقبة“ بين مكّة ومنى، في لقاءٍ عُرف لاحقاً ببيعة العقبة الأولى. وأعلن الوفد اليثربي في ذلك اللقاء إيمانهم برسالة الإسلام، وتعاهدوا مع النبي ﷺ على السعي إلى نشر الدعوة في مدينتهم.

ولتعزيز هذا النجاح، أرسل رسول الله ﷺ معهم الصحابي الجليل (مصعب بن عمير) ليكون أوّل مبعوث إليهم؛ حيث كلفه بمهمّة تعليمهم مبادئ الإسلام وتفقههم في دينهم الجديد، وتنظيم صفوفهم، ليكونوا نواة فعّالة وقويّة لنشر الدعوة الإسلاميّة بين قبائل يثرب. وقد أدّى (مصعب) مهمّته بنجاح باهر، ما أسهم في انتشار الإسلام بشكل ملحوظ بين أهل المدينة^(١).

حادي عشر: العقبة الثانية

في العام الثالث عشر من البعثة النبويّة الشريفة، وبعد مضيّ عام كامل على بيعة العقبة الأولى، عاد (مصعب بن عمير) إلى مكّة

١ - راجع: أحمد بن زيني دحلان: السيرة النبوية، ج ١، ص ١٥١؛ علي بن إبراهيم الحلبي: السيرة الحلبيّة، ج ٢، ص ٩؛ السيوطي: الدر المنثور، ج ٦، ص ٢١٨.

المكرّمة، ولكن هذه المرة لم يكن وحيداً؛ فقد صحبه وفد كبير من مسلمي المدينة (يثرب)، خرجوا متخفين بين قوافل حجاج قومهم من المشركين.

وَيُرَجَّحُ أَنَّ (مصعباً) كان قد دبر -قبل وصوله- اجتماع سرّي يجمع النبي محمد ﷺ بهؤلاء المسلمين القادمين من مدينة يثرب بعد انتهاء مناسك الحج. وكان الرسول الأكرم ﷺ يقيم خلال أيام الحج في دار (عبد المطلب)، ومعه الإمام علي عليه السلام و(الحمزة بن عبد المطلب).

التقى رسول الله ﷺ بالوفد من قبيلتي الأوس والخزرج، واتفق معهم على عقد اجتماع سرّي في ليالي أيام التشريق، وأوصاهم بكتمان الأمر وعدم إيقاظ نائم أو انتظار غائب بينهم؛ لضمان السريّة التامة، وعدم إثارة شكوك المشركين.

وفي ذلك الاجتماع الخفي، بايع المسلمون النبي ﷺ ببيعة عُرِفَتْ في التاريخ بـ "بيعة العقبة الثانية". تعهّدوا فيها بحمايته ونصرته كما يحمون وينصرون أنفسهم وأهلهم، ووعدوه بالوقوف إلى جانبه في السراء والضراء، والسمع والطاعة في العسر واليسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله دون خوف من لومة لائم.

مثّلت بيعة العقبة الثانية اللبنة الأساس والخطوة المحوريّة التي مهدّت الطريق لهجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، والتي كانت

بدورها انطلاقة المرحلة الثالثة من مراحل الدعوة الإسلامية، وهي مرحلة بناء الدولة الإسلامية والدفاع عن كيانها وعقيدتها^(١).

ثاني عشر: الهجرة إلى المدينة

أسس الرسول الكريم ﷺ في المدينة المنورة (يثرب) ركيزة وقاعدة آمنة مستقرة جديدة للمسلمين، بعد أن وصلت الدعوة في مكة إلى طريق صعب ومسدود مع تصاعد عناد قريش وزعاماتها، وتجدّر استكبارها على مدى ثلاث عشرة سنة. فأمر النبي ﷺ أتباعه بالهجرة إلى هذا الملاذ الآمن، مبلّغاً إياهم بقوله: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قد جعل لكم إخواناً وداراً يأمنون بها»^(٢).

وقد استجاب المسلمون للأمر، فهاجروا بشكل جماعي وفردى، سرّاً وعلانية، تاركين وراءهم أوطانهم وأهاليهم وعلاقاتهم الاجتماعية وممتلكاتهم ومكانتهم في المجتمع المكيّ، مقدّمين تضحيات جسيمة في سبيل الحفاظ على عقيدتهم وإسلامهم.

١ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: إعلام الوري بأعلام الهدى، ١٤١٧هـ، ص ٥٩؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٤٩-٢٢٠؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٥٧.

٢ - ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٤٦٨.

لقد أدركت قريش أنه سيكون لهجرة المسلمين آثار وتبعات خطيرة على نفوذها الاقتصادي والأمني، خاصة أن طرق تجارتها الحيوية إلى بلاد الشام كانت تمرّ بقرب المدينة، وهذا ما دفعها إلى محاولة منع الهجرة بكل قوة، عبر ملاحقة المسلمين، وتعذيبهم، وشن حملة من الإرهاب لإرغامهم على البقاء.

بقي في مكة بعد هذه الهجرة الجماعية النبي ﷺ والإمام علي عليه السلام فقط، وبضعة مسلمين لم يتمكنوا من الخروج، وبعض النساء. فشعرت قريش بخطر وجودي حقيقي إذا ما انضمَّ النبي ﷺ إلى قاعدته الشيعية والقوية في المدينة. فاجتمع زعماء قريش وهم في حالة من الذعر واليأس، واتخذوا قراراً مصيرياً باغتيال النبي ﷺ، ونظّموا خطة دموية تقضي بأن يشارك شاب من كل قبيلة في قتله ليلاً؛ حتى يتفرّق دمه بين القبائل جميعاً، الأمر الذي يجعل من المستحيل على بني هاشم أن يطالبوا بالتأثر من قبيلة واحدة محدّدة^(١). وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

١ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٤٥٥؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٢١؛ السيوطي: الدر المنثور، ج ٥، ص ١٤١.

ثالث عشر: ليلة مبيت علي ﺍﻟﻪﻳﻤﺎ في فراش النبي ﷺ - تضحية ونصر إلهية:

كَشَفَ الله - تعالى - لرسوله الكريم ﷺ عن طبيعة المؤامرة الدينية التي دبرها زعماء قريش لاغتياله والقضاء على الدعوة نهائياً في مهدها كونها تشكل خطراً على مصالحهم ونفوذهم وسيطرتهم. فأمره - تعالى - بالخروج من مكة تحت جنح الظلام، وأن يجعل ابن عمه علياً ﺍﻟﻪﻳﻤﺎ يبيت على فراشه، من أجل أن يخدع المشركين، ويُوهمهم أنه لا يزال نائماً في بيته، ما يُفشل خططهم. وبالفعل، انطلق الرسول ﷺ تحت ستر الله متجهاً نحو غار ثور، بينما اضطجع الإمام علي ﺍﻟﻪﻳﻤﺎ بكل شجاعة وتضحية على فراش النبي، مُستعداً لمواجهة أي خطر حتى لو كان الثمن الموت في سبيل الرسالة ونيهاً الكريم. وعندما اقتحم المسلحون بيت النبي ﷺ فوجئوا بوجود علي ﺍﻟﻪﻳﻤﺎ وحده، ففشلت خططهم فشلاً ذريعاً.

وقد نزلت الآية الكريمة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] في الثناء على ما قام به الإمام علي ﺍﻟﻪﻳﻤﺎ، ومديح هذه التضحية الفذة له، وهو الذي باع نفسه في سبيل مرضاة الله وتمكين دعوة نبيه ومعالم دينه. وقد زاد الله هذه اللحظة قدسيةً بأن أهبط الملكين جبرائيل وميكائيل ليكونا بجانب علي ﺍﻟﻪﻳﻤﺎ طوال الليلة،

يشدان من أزره ويُنَيان على شجاعته، حتى قال جبرائيل: ”بخٍ بخٍ، من مثلك يا بن أبي طالب؟! يباهي الله بك ملائكته^(١)“.

رابع عشر: الحماية الإلهية في الطريق إلى الغار

أمّا رسول الله ﷺ، فقد خرج من بين أعدائه وهو محفوظ بحفظ الله له، يقرأ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، فعمي الله أبصارهم عنه.. ولمّا فشلت قريش في العثور عليه في بيته، استنفرت كلّ قدراتها وإمكانيّاتها، وبدأت حملة مطاردة محمومة للنبي الكريم، ولكن بتدبير إلهي محكم، أخفى الله نبيّه عن أعينهم داخل غار ثور.. وقد سجّل القرآن الكريم هذا المشهد بأروع وصف فيما ورد بسورة التوبة، قوله عزّ وجلّ: ﴿...إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

١- راجع: علي بن إبراهيم القمي: تفسير القمي، ج ١، ص ٢٧٣؛ علي بن موسى السيد ابن طاووس: الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص ٣٧.

ومكث النبي ﷺ -وصاحبه (أبو بكر) في الغار- ثلاثة أيّام، إلى أن هدأت مطاردة قريش، ثمّ تابعا رحلتها حتى وصلا بسلام إلى قرية "قباء" على مشارف المدينة المنورة^(١).

وقد كانت هجرة النبي ﷺ في اليوم الأول من شهر ربيع الأول، بعد أن أمضى ثلاثة عشر عاماً في مكة يدعو إلى الله. ولم تكن هذه الهجرة مجرد انتقال من مكان إلى مكان، بل كانت نقلة تاريخية انطلقت منها دولة الإسلام، فأصبح هذا الحدث الكبير والعظيم بداية التقويم الهجري، الذي يُذكر المسلمين دائماً ببداية عصر جديد قائم على الإيمان والتضحية^(٢).

خامس عشر: استخلاف الإمام عليّ (عليه السلام):

كانت قريش قبل الإسلام تُلقّب رسول الله محمد ﷺ بـ "الأمين"؛ حيث كانوا يودعونه أموالهم ومتاعهم، ويأتمنونه عليها، وكذلك كان يفعل من يزور مكة من قبائل العرب في موسم الحجّ.

١ - راجع: ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٣٢؛ محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٦٨؛ سعيد بن هبة الله الراوندي: الخرائج والجرائح، ج ١، ص ١٤٤،

٢ - راجع: سعيد بن هبة الله الراوندي: قصص الأنبياء، ص ٣٣٤؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٢٨؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٣٦.

وبعد أن أكرمه الله بالنبوة والرسالة، حافظ عليه السلام على هذه الصفة العظيمة، فأمر ابن عمه علياً عليه السلام أن يقف في مكان مرتفع عند "الأبطح" في مكة وينادي بصوت عالٍ في الصباح والمساء: "ألا من كان له عند محمد أمانة أو وديعة، فليأت ليأخذها"^(١). ثم قال النبي صلى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام مُطْمَئِنَّا إِيَّاهُ: «إِنَّهُمْ لَن يَصْلُوا مِن الْآنَ إِلَيْكَ يَا عَلِيُّ بِأَمْرِ تَكْرَهُهُ حَتَّى تَقْدُمَ عَلَيَّ، فَأَدِّ أَمَانَتِي عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ ظَاهِرًا، ثُمَّ إِنِّي مُسْتَخْلَفُكَ عَلَى فَاطِمَةَ ابْنَتِي، وَمُسْتَخْلَفُ رَبِّي عَلَيْكُمَا وَمُسْتَحْفَظُهُ فَيْكُمَا...»^(٢). كما كلفه عليه السلام بتجهيز رواحل السفر لهنّ ولمن عزم على الهجرة من بني هاشم. وقال له وهو يوصيه: «وإذا أنهيت ما أمرتك به، فاستعدّ للهجرة إلى الله ورسوله، وغادر إلى مكاني فور وصول كتابي إليك دون أي تأخير».. فنفذ الإمام علي عليه السلام الأوامر بدقة، فأدى جميع الأمانات إلى أصحابها^(٣)، ثم هاجر مصطحباً معه النسوة من آل بيت النبي صلى الله عليه وآله، وهنّ:

١ - راجع: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٧٣؛ الحلبي: السيرة الحلبية: ج ٢، ص ٥٣.

٢ - راجع: محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٦٢؛ جعفر مرتضى العاملي: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج ٤، ص ١١.

٣ - راجع: افضل بن الحسن الطبرسي: إعلام الوري بأعلام الهدى، ج ١، ص ٣٧٤؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ٥٧.

أمُّه (فاطمة بنت أسد)، وزوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ، و(فاطمة بنت الزبير)، متوجَّهًا بهنَّ إلى المدينة المنورة (يثرب)^(١).

سادس عشر: وصول النبي محمد ﷺ إلى يثرب واستقباله فيها
غادرَ النبي الكريم ﷺ مَكَّةَ المكرمة في أوَّل أيام شهر ربيع الأول مهاجرًا إلى يثرب، حتى وصل إلى منطقة "قباء" في ضواحيها. وما إن انتشر خبر وصوله حتى توافد المسلمون بأسرهم وأهليهم لاستقباله والتشرفَ بلقائه، مفعمين بالفرح والبهجة. ورغم حماسة الجميع لدخوله إلى المدينة، أبدى رسول الله ﷺ تمسُّكًا بالبقاء في قباء، ريثما يلتحق به أخوه وابن عمِّه علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قائلاً: «لن أرحل من هنا حتى يقدم ابن عمِّي وأخي في الله، وهو أحب أهل بيتي إليّ، فقد وقاني بنفسه من أذى المشركين»^(٢).

وبعد انتظار دام خمسة عشر يومًا، وصل الإمام علي (عليه السلام) ومعه نساء البيت النبوي (الفواطم). فلما علم النبي ﷺ بقدومه، طلب رؤيته على الفور، ف قيل له: "يا رسول الله، إنَّه لا يستطيع المشي من شدة التعب".

١ - هاشم البحراني: حلية الأبرار، ج ١، ص ٩١.

٢ - راجع: محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٨٠؛ ابن الصباغ المالكي: الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، ص ٣٥.

فما كان من النبي ﷺ إلا أن ذهب بنفسه إليه. ولمَّا رآه، احتضنه بشدَّةٍ واغرورت عيناه بالدموع حزناً لما رأى من آثار التعب والألم البادية على قدميه المتورمتين المتقرحتين من مشقَّة الطريق.

وخاطبه ﷺ قائلاً: «يا عليّ، أنتَ أوَّل هذه الأُمَّة إيماناً بالله، وأوَّلها هجرة إلى الله ورسوله، وآخرها عهداً برسوله. والذي نفسي بيده، لا يحبُّكَ إلا مؤمِّنٌ مختبر الإيمان، ولا يبغضُكَ إلا منافقٌ أو كافر». ثمَّ مكث معه في دار (كلثوم بن الهدم) في قباء^(١).

وبعد يومين من وصول عليّ (عليه السلام)، كلَّفه رسول الله ﷺ - وكان يوم الجمعة - بتخطيط مسجد قباء، ذلك المسجد الذي أُسِّس على التقوى والذي نزلت فيه الآية الكريمة: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ [التوبة: ١٠٨].

وكانت قبلته آنذاك نحو بيت المقدس، فأقام النبي ﷺ أوَّل صلاة جمعة فيه، ثمَّ انطلق راكباً ناقته إلى قلب يثرب، وكان الإمام علي (عليه السلام) يسير إلى جانبه، بينما كان المسلمون يحفون بهم مرددين التكبير والتهليل.

١ - راجع: محمد بن الحسن الطوسي: الأمالي، ج ٢، ص ٨٤؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٨٣؛ أحمد بن علي (تقي الدين المقريزي): إمتاع الأسماع، ج ١، ص ٤٨.

وسارت ناقة النبي ﷺ، وأخذ كل أهل بيت يتمنى أن تنزل عند داره، حتى بركت أمام دار (أبي أيوب الأنصاري)، فنزل رسول الله ﷺ ضيفاً كريماً عنده لمدة شهر، حتى جرى بناء مسجده الشريف، وبيوته، ودار الإمام عليّ (عليه السلام) ^(١).

سابع عشر: الهجرة النبوية- رؤية استراتيجية نحو بناء الدولة
لم تكن هجرة النبي الكريم ﷺ من مكة إلى المدينة مجرد هروب من الاضطهاد أو بحث عن ملاذ آمن، بل كانت خطوة استراتيجية محكمة، وخطّة متكاملة أعدت لترسيخ دعائم الدين الإسلامي وبناء نموذج الدولة الإسلامية.

ويمكن إرجاع الدوافع الرئيسة للهجرة إلى عاملين جوهريين:

١- استنفاد الفرص في مكة وضرورة الانتقال إلى ساحة جديدة:

بعد ثلاثة عشر عاماً من الدعوة في مكة، كانت الساحة المكيّة قد استنفدت طاقاتها. فقد وصل الرسول ﷺ إلى الحد الأقصى مما يمكن

١ - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٨٥.

تحقيقه فيها، فقد أحكمت قريش سيطرتها وأغلقت جميع المنافذ والسبل أمام انتشار الدعوة عبر شبكة متعددة ومتنوعة من أشكال الحصار والاضطهاد والعقبات ووضع العراقيل. وحقيقة لم يعد هناك -كما ظهر- أملٌ يُذكر في كسب شرائح جديدة من المجتمع المكيّ في المدى المنظور. بناء عليه، بات الانتقال إلى بيئة جديدة أكثر خصوبةً وانفتاحاً، ضرورة حتميةً وواجباً ملحاً، لاستئناف الدعوة بحريّة، بعيداً عن هيمنة قريش وتأثيرها القمعي.

٢- طبيعة الإسلام الشاملة والحاجة إلى دولة لتحقيق أهدافه:
ليس الإسلام مجرد عقيدة روحية فحسب، بل هو نظام حياة شامل ومتكامل يشمل التشريعات والأحكام الاجتماعية والمبادئ السياسية والاقتصادية. ولم تسمح الظروف في مكة للنبي ﷺ بتطبيق هذا النظام الشامل وتحقيق الأهداف العالمية للدعوة. فتعاليم الإسلام الكبرى تحتاج إلى كيان سياسي يحميها، وإلى دولة تنشر العدل وتطبق القانون وتكون منصّة لنقل الرسالة إلى العالم أجمع. لذا، كان الانتقال إلى المدينة ضرورياً لإقامة "الدولة" التي تمثل النواة الأولى للمجتمع الإسلامي، وتكون قاعدة لانطلاق الرسالة وتبليغها للبشريّة جمعاء في كل مكان.

ثامن عشر: سرّ اختيار المدينة

تمتعت المدينة المنورة على الدوام بموقع استراتيجي ومجتمعي واقتصادي مهمّ، بما أهلها بشكل فريد لكي تصبح حصن الإسلام المنيع، ويمكننا إيضاح ذلك وفق الآتي:

١. الموقع الجغرافي المتميّز:

تبعد المدينة مسافة تزيد عن أربعمئة كيلومتر عن مكّة، ما وفّر لها حصانة طبيعيّة ضدّ أي هجمات مفاجئة من قريش. وفي الوقت نفسه، قُرِبها من طريق تجارة قريش إلى الشام منَحَ النبي ﷺ نقطة مراقبة استراتيجيّة، مكّنته لاحقاً من بسط نفوذه وممارسة ضغط سياسي واقتصادي بل وعسكري على قريش عندما حان الوقت.

٢. النسيج الاجتماعي القابل للتغيير:

شهدت المدينة صراعات قَبليّة طويلة الأمد بين الأوس والخزرج واليهود، الأمر الذي أدّى إلى تفكُّك نسيجها الاجتماعي. هذا التشرذم جعلها عاجزة عن مواجهة قوّة العقيدة الإسلاميّة ووحدتها الذاتيّة الجديدة، بل إنّ هذا الوضع خلق توقّاً مجتمعيّاً لظهور قائد موحّد يلتفون حوله فيجمعهم، ينقذهم من براثن العصبيّات القبليّة التي كانت تبدو كأنّها مستعصية على أي حلٍّ ومعالجة.

٣. المقوّمات الاقتصادية المتينة:

اعتمد اقتصاد المدينة على الزراعة الغنيّة والمزدهرة، والتي وفّرت لها قاعدة اقتصادية متينة. هذه المقوّمات مكّنتها من الصمود وتحمل أي ضغوط أو حصار اقتصادي قد تفرضه قريش أو غيرها من القوى المعادية، ما ضمن استمراريّة الحياة ودعم المجهود الدعوي والعسكري.

تاسع عشر: أحداث السنة الأولى للهجرة النبويّة

لقد شهدت السنة الأولى من الهجرة النبويّة الشريفة، وقوع عدد من الأحداث والتحوّلات المحوريّة التي أسهمت بقوة في تشكيل هويّة الدولة ورسم معالمها الإسلاميّة الناشئة، ومن أبرزها:

١. التحوّل الديني في يثرب: شهدت المدينة المنورة في عامها الأوّل موجة عارمة من اعتناق الإسلام؛ حيث انضمت إلى دين الله الجديد شخصيّات بارزة مثل (سلمان الفارسي)^(١) الذي ارتقى لاحقاً ليصبح أحد أبرز صحابة النبي ﷺ وأكثرهم قرباً منه.

١ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: إعلام الوري بأعلام الهدى، ج ١، ص ١٥١؛ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): إكمال الدين وإتمام النعمة، ص ١٥٩؛ الصنعاني: المصنف، ج ٨، ص ٤١٨.

٢. عودة مهاجري الحبشة: بعد أشهر قليلة من استقرار الرسول ﷺ في المدينة، بدأت مجموعات من المسلمين الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة بالعودة تدريجياً عند علمهم بخبر الهجرة إلى يثرب. ولم تكن رحلة العودة موحدة، فبينما توجه بعضهم مباشرة إلى المدينة - وشاركوا لاحقاً في غزوة بدر - مرّ آخرون بمكة أولاً، كما استمرّ تدفق العائدين من الحبشة على دفعات متفرقة حتى اكتملت عودة الجميع، مع وصول (جعفر بن أبي طالب) في السنة السابعة للهجرة النبوية الشريفة^(١).
٣. بداية العمل بالتقويم الهجري: اتخذ رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة قراراً بالبداية في توثيق الأحداث وتسجيلها وتاريخها، فجعل من لحظة وصوله إلى قباء بداية لهذا التقويم. وقد اعتمد المسلمون هذا النظام تدريجياً، حيث بدؤوا بتاريخ حوادثهم بالأشهر فقط خلال السنوات الخمس الأولى، قبل أن يتحوّلوا إلى التأريخ الكامل بالسنة والشهر بعد ذلك^(٢).

١ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٣٩،

٢ - راجع: محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ٣٥١؛ ابن كثير: البداية والنهاية: ج ٦، ص ٢٠٦؛ السجستاني: سنن أبي داود، ج ٤، ص ١٥٩.

المبحث الثالث: تأسيس الكيان الإسلامي وبدء مواجهة الصعاب

بمجرد استقراره في المدينة المنورة، شرع الرسول الكريم ﷺ في وضع لبنات مجتمع جديد، متكّي في بنيانه على أسس وقيم الإسلام الراسخة. وكان همّه موجّهاً نحو تأمين مستقبل الدعوة وضمّان استمراريتها، فانطلق في عمله الجاد عبر محورين أساسيين:

أولاً: وضع حجر الأساس للمسجد النبوي

فقد أولى النبي الكريم ﷺ مسألة بناء المسجد اهتماماً كبيراً، وشكّل هذا الصرح أوّل موقع ومؤسسة متعدّدة الأغراض في الدولة الإسلامية الناشئة، فجمع بين كونه مكاناً للعبادة، ومركزاً للتعلّم ونشر العلم وتعاليم الإسلام وقيمه وتشريعاته، ومقرّاً لإدارة شؤون الحكم والقضاء؛ حيث لم يكن هناك مقرّ حكومي منفصل.

ووقع اختيار البناء على مكان يُسمّى "المربد" ^(١) (وهو الموضع الذي كان يُجفّف فيه التمر) بعد أن اشتراه النبي ﷺ من مالكيه. وجرى

١ - المربد: موضع نزول الإبل، وتجفيف التمور.

نقل الحجارة اللازمة للبناء من منطقة «الحرّة» المجاورة^(١). وقد شارك النبي ﷺ بنفسه في أعمال البناء، حاملاً الحجارة عاملاً إلى جوار المسلمين، ما كان له أثر كبير في تحفيزهم وإشعال حماسهم للعمل بجدّ ونشاط.

ولم يقتصر البناء على الرجال فحسب، بل كان للنساء أيضاً دور فاعل وحيوي؛ حيث كنّ يسهمن بحمل الحجارة تحت جناح الليل، بينما يتولّى الرجال مهمّة البناء في النهار.. وبعد اكتمال بناء المسجد نفسه، جرى تشييد غرف ومساكن ملاصقة له، لسكن النبي ﷺ وأهل بيته^(٢).

ثانياً: تشريع فريضة الأذان

بعد اكتمال بناء المسجد، برزت الحاجة إلى وسيلة واضحة تدعو الناس إلى أداء الصلاة في أوقاتها المحددة. ولهذا عُقدت مشاورات لاقتراح أفضل الطرق لهذه الدعوة، فقدّم عدد من الصحابة اقتراحاتهم

١ - موضع الحجارة السود خارج المدينة.

٢ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: إعلام الوري بأعلام الوري، ج ١، ص ١٥٩؛ سعيد بن هبة الله الراوندي: قصص الأنبياء، ص ٣٣٨؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٤٣؛ الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٧٥.

(مثل استخدام الناقوس أو النار)، واستمع النبي ﷺ إلى جميع تلك الآراء باهتمام دون رفض أي منها. ثم أعلن أنَّ الحلَّ الأفضل والأمثل جاء بوحي من الله تعالى، وهو نظام ”الأذان“ كما نعرفه اليوم. وتلقَّى النبي ﷺ صيغته مباشرة من الوحي عن طريق الملك جبرائيل.. وقد كُلف الإمام علي (عليه السلام) بتلقِّي صيغة الأذان من النبي ﷺ وتعليمها لـ (بلال بن رباح). وبعد أن تعلَّم (بلال) الأذان، صعد إلى مكان مرتفع على جدار المسجد وأذن لأول مرة في التاريخ الإسلامي^(١)، في إعلان صريح وواضح لبداية رسالة الدعوة إلى الإسلام والصلاة التي ما زالت تتردّد إلى يومنا هذا.

ثالثاً: مبادرة المؤاخاة-حجر أساس المجتمع الوليد

اتَّخذ الرسول الكريم ﷺ خطوة تنظيمية بالغة الأهمية لبناء نسيج المجتمع الإسلامي الفتى، وهي ”المؤاخاة“ بين المهاجرين والأنصار. جاءت هذه المبادرة لتحقيق جملة من الأهداف الاستراتيجية:

١. ترجمة المبادئ إلى واقع: تحويل المبادئ النظرية للإسلام،

١ - راجع: المتقي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ج ٦، ص ٢٧٧؛
النعمان المغربي: دعائم الإسلام، ج ١، ص ١٤٢؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢،
ص ١٥٤.

مثل التضامن والأخوة، إلى ممارسة عملية حقيقية ملموسة في العلاقات والتعاملات.

٢. بناء أمة موحدة: تمهيد الطريق لولادة "أمة" متجانسة تتجاوز الانتماءات القبلية الضيقة.

٣. تضميد جراح الماضي: معالجة آثار النزاع التاريخي بين قبيلتي الأوس والخزرج، ومنع أي احتكاكات محتملة بين القادمين الجدد (المهاجرين) وسكان المدينة الأصليين (الأنصار).

٤. إلغاء الطبقة: تحطيم الحواجز الطبقة والقبلية والاقتصادية، وعلاج الفجوة في المستوى المعيشي بين الأفراد.

٥. تطبيق مبدأ التضامن: تقديم نموذج عملي حي على مبدأ المساواة والمساواة الذي ينادي به الإسلام.

وقد جرت هذه المؤاخاة بعد مرور ما بين خمسة إلى ثمانية أشهر على هجرة النبي ﷺ؛ حيث أمر المسلمين قائلًا: «تأخوا في الله أخوين أخوين»^(١).

بعد أن آخى النبي ﷺ بين جميع الصحابة، لاحظ الجميع أن الإمام

عليّاً عليه السلام قد بقي دون أخ. فتقدّم النبي صلى الله عليه وآله نحو عليّ عليه السلام قائلاً له: «إنّما تركتك لنفسي، أنت أخي وأنا أخوك».

ثمّ أوضح النبي صلى الله عليه وآله المكانة الفريدة للإمام علي عليه السلام قائلاً: «فإنّ ذكرك أحد فقل: أنا عبد الله وأخو رسوله، لا يدّعيها بعدك إلّا كذاب. والذي بعثني بالحقّ ما أخرتك إلّا لنفسي، وأنت منّي بمنزلة هارونَ من موسى، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي. وأنت أخي ووارثي»^(١).

ثمّ أمسك النبي بيد الإمام علي عليه السلام معلناً أمام الجميع: «هذا أخي». وهكذا، أخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين نفسه والإمام علي عليه السلام، مكرّساً هذه الرابطة الأخويّة الاستثنائيّة في تاريخ الإسلام^(٢).

رابعاً: الصّحيفة

مع بزوغ فجر الهجرة النبويّة الشريفة، تشكّل النسيج الاجتماعي في المدينة المنورة من خمس فئات سكانيّة رئيسة، وهي:

-
- ١ - راجع: النعمان بن محمد التميمي المغربي: شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، ج ٢، ص ٤٧٧؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ٣٣.
 - ٢ - راجع: ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٣؛ الحلبي: السيرة الحلبية: ج ٢، ص ٢٠؛ محمد بن عبد الله (الحاكم النيسابوري): المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ١٤؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٥١.

■ المهاجرون: أولئك الذين قدّموا أغلى ما يملكون من أوطان وأموال وروابط عائلية فداءً لعقيدتهم، وطلبًا لحُرِّيَّتِهِمْ فِي العبادة، فاعتربوا عن مكّة متوجّهين إلى المدينة.

■ الأنصار: وهم السكّان الأصليون للمدينة من قبيلتي الأوس والخزرج، الذين آمنوا برسول الله ﷺ، فأووه ونصروه، واهتدوا بالوحي الذي جاء به.

■ المشركون: وهم مجموعة من أفراد قبيلتي الأوس والخزرج وقبائل عربية أخرى، مثل بني خطمة وبني سليم، ظلّوا على دين آبائهم الوثني عند بداية الهجرة، ولم يُسلم كثير منهم إلا بحلول العام الرابع لها.

■ المتهوّدون: وهم من تنصّر من العرب (من الأوس والخزرج وغيرهم) ثم اعتنق اليهوديّة لاحقًا، نتيجة لجوارهم مع قبائل يهود خيبر واختلاطهم مع قريظة والنضير.

■ اليهود الأصليون: وهم المنحدرون من أصل إسرائيلي، الذين هاجروا من فلسطين واستوطنوا المدينة وما حولها، وأبرز قبائلهم: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير، ويهود خيبر.

وأمام هذا المشهد الاجتماعي المعقّد، رأى النبي ﷺ -وهو يبني

دعائم مجتمع إسلامي جديد تقوم على دولة تحكمها الشريعة- أن من الضروري اتخاذ إجراءات تنظيمية تحكم العلاقات بين هذه المكونات في ظل النظام القانوني الجديد. فكانت وثيقة الصحيفة، التي وضعها رسول الله ﷺ، وشملت مبادئ أساس وأساساً عملية تنظم الحقوق والواجبات، متضمنة اثنين وخمسين مادة، من أبرزها:

■ أن المسلمين يشكّلون أمة واحدة متكافلة، تتجاوز روابط القبيلة والانتماءات الضيقة.

■ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المرجعية العليا والسلطة المركزية للأمة في جميع الشؤون.

■ أن مسؤولية مقاومة الظلم ودفعه هي مسؤولية جماعية مشتركة، وليست مقصورة على المظلوم وحده.

أعطت الوثيقة المتهودين من سكّان المدينة حقوق المواطنة الكاملة، بما فيها حق الأمن والحرية، شريطة أن يلتزموا بدستور الدولة، وألاًّ يقوموا بأي عمل من أعمال الفساد أو الخيانة ضد الإسلام وأهله.

خامساً: موادة اليهود

بعد إقرار الوثيقة السياسية المهمة في المدينة، عقد الرسول الكريم معاهدة صلح مع اليهود الذين دخلوا في الإسلام من قبيلتي

الأوس والخزرج. أمّا اليهود الأصليّون، فقد شعروا بالعزلة عن حلفائهم السابقين بعد توقيع الوثيقة، فتقدّموا إلى النبي ﷺ طالبين عقد هدنة. فاستجاب النبي لرغبتهم، ووضع شروطاً تقضي بعدم مساعدتهم لأعدائه وخصومه من المشركين، وعدم إيذاء أحد من أصحابه، سواء بالقول أم بالفعل أم بالسلاح، سرّاً أم علانية. وقد نصّ الاتفاق على أنّه في حال انتهاكهم لهذه الشروط، فإنّ لرسول الله ﷺ الحقّ في إباحة دمائهم وسبي نسائهم وأطفالهم وأخذ أموالهم. وكتب لكل قبيلة وثيقة منفصلة بهذه الشروط^(١).

سادساً: إعداد القوّة العسكريّة

بعد تأسيس الدولة الناشئة في المدينة، اتخذ النبي ﷺ خطوة محوريّة أخرى على طريق بناء الدولة، تمثّلت في الإعداد العسكريّ الشامل. وشمل ذلك تدريب العنصر البشري، وتجهيز السلاح والخيول، وتوفير كلّ متطلّبات القوّة المسلّحة، امثالاً لأمر الله عزّ وجلّ في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ

١ - راجع: ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٤٧؛ محمد بن يعقوب الكليني: أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦٦؛ الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان، ج ١، ص ٣٠٣؛ بن حنبل: مسند أحمد، ج ٤، ص ١٤١.

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴿[الأنفال: ٦٠].

فنظّم ﷺ المسلمين في المدينة تنظيمًا عسكريًا دقيقًا؛ حيث قسّمهم إلى وحدات (عراقات)، وجعل على كلّ عشرة أفراد قائدًا (عريفًا)، واعتبر جميع الذكور البالغين جزءًا من الجيش، وشكّل منهم سرايا عسكريّة.

ويمكن استخلاص الملامح الرئيسة لتنظيم القوة العسكريّة وإدارة المعارك في عهد النبي ﷺ من خلال الروايات التاريخيّة، وهي:

■ القيادة المركزيّة: امتلك النبي الكريم زمام شؤون القرار العسكري الاستراتيجي والتكتيكي، بما يضمن ويحقق وحدة التوجيه واتخاذ القرار.

■ التجنيد والتشكيل: كان الجيش يُشكّل من الذكور البالغين الذين بلغوا الخامسة عشرة من العمر فما فوق.

■ التدريب المستمر: كان الشباب في المدينة يتدرّبون على استخدام الأسلحة وفنون القتال في مكان مخصّص لذلك، وكان الإمام عليّ زمن بين من يقومون بتعليم الناس هذه المهارات.

كما اشتملت التنظيمات العسكريّة في عهده على نظم متقدّمة أخرى، كالتعداد السكاني لأغراض عسكريّة، وتطوير الصناعة الحربيّة،

وأنظمة الاستخبارات والتجسس.

وتكشف هذه الملامح جميعها عن دقة التنظيم العسكري الذي كان ركيزة أساس في تحقيق الانتصارات العسكرية الكبرى في فترة زمنية قياسية.

سابعاً: مواجهة التحديات

بعد أن أرسى الرسول الكريم ﷺ دعائم الدولة الإسلامية ونظم أسسها الأولى في المدينة، وثبت أركانها الداخلية، بدأت مرحلة جديدة تمثلت في الدفاع عن الدين ومواجهة القوى المعادية للإسلام؛ حيث خاض ﷺ مواجهات عسكرية ضد ثلاثة أنواع رئيسة من الأعداء، وهم:

١. المشركون، وشملوا قبيلة قريش والقبائل العربية الأخرى التي تعبد الأصنام.

٢. اليهود، الذين نقضوا عهودهم مع المسلمين وتحالفوا مع أعدائهم.

٣. النصارى، وذلك في معركتي مؤتة وتبوك.

ويطلق المؤرخون مصطلحين على المعارك التي خاضها المسلمون في عهد النبي ﷺ:

- أ. الغزوة: وهي المعركة التي كان يشارك فيها النبي ﷺ

شخصياً ويقودها بنفسه.

ب. السريّة: وهي الحملة العسكرية التي لم يشارك فيها النبي

ﷺ، بل كان يوكل قيادتها إلى أحد من أصحابه.

وبلغ إجمالي الغزوات والسرايا في عهد الرسول ﷺ أكثر من ثمانين، جميعها حدثت بعد الهجرة إلى المدينة، ما يعكس حدة المرحلة واتساع نطاق المواجهات التي خاضتها الدولة الإسلامية الفتية الجديدة الناشئة.

ثامناً: السرايا وأهدافها

شكّلت سريّة (حمزة بن عبد المطلب)، التي انطلقت بعد سبعة أشهر من الهجرة، أولى الحملات العسكرية التي وجهها رسول الله ﷺ. وكانت مهمّتها القيام بعملية اعتراض قافلة لقريش، لكنّ وساطة حكيمة من (مجدي بن عمرو الجهني) -الذي كان على علاقة ودّ مع الطرفين- حالت دون وقوع القتال، فانفصل الفريقان من دون تبادل ضربات. وقد انطوت الحكمة من إرسال هذه السرايا العسكرية^(١) على تحقيق

١ - للاطلاع على بعض السرايا، راجع: محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٠٢؛ أحمد بن إسحاق يعقوبي: تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٧٠؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٢٤٥.

جملة أهداف استراتيجية، تمثّلت في:

■ زعزعة استقرار قريش وحلفائها وإضعاف قدراتهم المعنوية.

■ استهداف اقتصاد قريش الحيوي عبر تعطيل طرق تجارتها،

والتي كانت تمثّل مصدر قوّتها وعصب حياتها.

■ إيصال رسالة تحذيرية واضحة إلى أعداء الدولة الإسلامية

الفتية الناشئة، سواء من اليهود داخل المدينة أم قبائل البدو

خارجها، مفادها أنّ المسلمين يمتلكون القوة والجاهزية

العسكرية للردع، وأيضاً للردّ على أي اعتداء قد يتهدّد كيانهم

السياسي ويحاول إسقاط عقيدتهم ودينهم.

وأُسفرت هذه المهمّات العسكرية عن تحقيق إنجازات بارزة، منها:

■ إقامة تحالفات استراتيجية: حيث دفعت هذه الحملات عدداً

من القبائل في المنطقة إلى عقد اتفاقيات مع المسلمين، بعد

أن أدركت قوّتهم وحزمهم في مواجهة خصوم أقوىاء مثل

قريش.

■ اكتساب خبرات قتالية جديدة: حيث وفّرت فرصة التدريب

على القتال في سياقات مختلفة تماماً عن حروب الجاهلية،

وفي ظلّ موازين قوى متغيّرة.

■ التعرّف على الجغرافيا المحيطة: وساهمت في استكشاف

المناطق المحيطة بالمدينة والتعرّف على طرق المواصلات ومسالكها ومصادر المياه فيها، ما عزّز الموقع الاستراتيجي للمسلمين.

■ فرض حصار اقتصادي غير مباشر: من خلال تهديد أمن الطرق التجارية الرئيسة التي تربط قريش ببلاد الشام، ما شكّل ضغطاً اقتصادياً عليها.

■ تعزيز النفوذ والهيبة: وساعدت في ترسيخ هيبة الدولة الإسلامية وقوّتها في نظر القبائل المجاورة، ما وسّع من نطاق نفوذها وردع الأعداء.

تاسعاً: معركة بدر

تُعَدُّ معركة بدر أوّل مواجهة عسكرية كبرى خاضها رسول الله محمد ﷺ والمسلمون ضدّ مشركي قريش؛ حيث وقعت في السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة، بالقرب من منطقة بدر التي تبعد نحو ١٦٠ كيلومتراً عن المدينة المنورة على الطريق بينها وبين مكّة المكرمة.

خرج الرسول الكريم ﷺ ومعه ٣١٣ من أصحابه لاعتراض قافلة تجارية يقودها (أبو سفيان) قادمة من الشام إلى مكّة، لا طمعاً في المال

بل لتعويض المسلمين عما سلب منهم، وفرض حصار اقتصادي على قريش لإضعافها وثنيها عن عدائها للإسلام. وعندما علم (أبو سفيان) بتحركات المسلمين، غير مسار القافلة واستنجد بقريش، التي هرعت ملبّية النداء بقرابة ألف مقاتل مدجّجين بالسلاح والعتاد.

بدأت المعركة بمبارزة فردية، ثمّ اشتبك الجيشان في قتال ضار، وكانت موازين القوى المادية تميل إلى صالح قريش، لكنّ النصر حسم بتدخل إلهي مباشر؛ حيث أيد الله المسلمين بالملائكة، فحقّقوا انتصاراً ساحقاً على الرغم من تفوّق العدو عددياً وعتاداً.

تميّزت المعركة بالقيادة الحكيمة للنبي ﷺ وبطولات الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) الاستثنائية، وأثبت المسلمون أنّ إيمانهم وقوّة عزيمتهم تغلب القوّة الماديّة، وصدّق وعد الله -تعالى- في قول الله عز وجل: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

وقد كان لنصر بدر أبعاد ونتائج عمليّة متعدّدة: عسكريّة بانتصار القلّة على الكثرة، ومعنويّة بتحقيق الوعد الإلهي الذي سبق أن أخبر عنه القرآن الكريم في الآية الكريمة: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

ومن أبرز نتائج هذه المعركة التاريخية:

- تعزيز ثقة المسلمين بأنفسهم وإيمانهم بعقيدتهم وإسلامهم.
 - رفع هيبة المسلمين بين قبائل المنطقة وتحصين وجودهم.
 - تشجيع كثيرين على اعتناق دين الإسلام بعد زوال هيبة قريش وكسر شوكة زعمائها.
 - إضعاف نفوذ قريش السياسي والاقتصادي بين قبائل العرب.
 - تمهيد الطريق لانتشار الدعوة الإسلامية بشكل أوسع.
 - تعزيز أواصر الأخوة والتماسك بين المهاجرين والأنصار.
- وهكذا أصبحت معركة بدر نموذجًا خالدًا على أنَّ النصر من عند الله، وأنَّ الإيمان والعزيمة يمكن أن يغلبا القوة المادية حين تكون السواعد مرفوعة إلى السماء.

عاشراً: دروس وعبر معركة بدر

١. أهميّة القيادة الموحدة: برهنت المعركة على ذلك الأثر الحاسم للقيادة الموحدة في تحقيق النصر؛ حيث تولّى النبي الكريم ﷺ بنفسه قيادة الجيش الإسلامي، فكانت جميع القرارات والتحركات تجري تحت توجيهه المباشر، ما جعل صفّ المسلمين كالجسد الواحد.

٢. قوَّة الإرادة والإيمان: أثبتت المعركة أنَّ القلَّة في العدد والعتاد يمكنها أن تهزم الكثرة إذا امتلكت إيماناً راسخاً، وعزيمة صلبة، وتخطيطاً محكمًا، وإخلاصًا في الهدف. وهو ما تؤكده الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ...﴾ [آل عمران: ١٢٣].

٣. العنصر المعنوي ركيزة النصر: بيَّنت بدر أنَّ النصر لا يُكتسب بالعدَّة والعدد فحسب بل إنَّ العامل الروحي والمعنوي -المتمثِّل في الإيمان بالله، والتوكُّل عليه، والإخلاص له- هو المحرِّك الأساس والوقود الذي يدفع نحو تحقيق الانتصار ضد كل الصعاب.

٤. الانضباط والنظام: حيث قدَّم المسلمون في بدر مثلاً رائعاً ونموذجاً فريداً في الانضباط العسكري والطاعة العمياء للقيادة والقائد، فنفَّذوا الأوامر بدقَّة وأمانة وبرغبة إيمانيَّة عقيدتيَّة داخليَّة، ما كان يعكس مستوى عاليًا من الالتزام والوعي بالمسؤوليَّة الرساليَّة.

حادي عشر: غزوة أحد

ظلَّت هزيمة المشركين في معركة بدر تلقي بظلالها الثقيلة على نفوس قريش وزعاماتها القبليَّة في مكَّة؛ حيث استقرَّ فيها الحقد والرغبة في الانتقام من النبي ودينه.. وهكذا فقد قاد (أبو سفيان) (رمز الشرك والكفر

في ذلك الحين) التوجّه نحو إشعال نار الحرب من جديد لتعويض هزيمته، ومحاولته استعادة هيئته المفقودة، ومحو الآثار العميقة التي خلفها انتصار المسلمين المعنوي والميداني الكبير في بدر.

فجهّز -أي (أبو سفيان)- جيش المشركين، الذي بلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل، واتّجه نحو المدينة المنورة.. وكان النبي محمد ﷺ على علم مسبق بتحركاتهم عبر عيونه ومصادره الاستخباراتية.. وبعد مشاورته مع أصحابه، قرّر الخروج لملاقاتهم خارج حدود المدينة وبعيداً عن أسوارها.. فانطلق ﷺ مع ألف مقاتل، لكن هذا العدد تقلّص لاحقاً إلى سبعمئة بسبب انسحاب فئة المنافقين بقيادة (عبد الله بن أبي بن سلول)، ليلتقي الجيشان عند سفح جبل أحد في شهر شوال من العام الثالث للهجرة.

قام النبي الكريم ﷺ بوضع خطة عسكرية دقيقة ومحكمة؛ حيث قام بتعيين وتكليف مجموعة من الرماة المهرة، قوامها خمسون رجلاً، على مُرتفع استراتيجي عند ثغرة في الجبل، وذلك من أجل تأمين حماية ظهر قوات الجيش. بدأت المعركة وتحقّق النصر للمسلمين في مرحلتها الأولى؛ حيث بدأ جيش المشركين في التراجع والتقهقر، وشرع المسلمون في جمع غنائم المعركة. لكنّ شغف بعض الرماة وطمعهم بالغنائم دفعهم -مع الأسف- إلى مغادرة مواقعهم الحصينة، مخالفين أوامر القيادة الرسولية، الأمر الذي أدّى إلى فتح ثغرة في الخطوط الدفاعية الإسلامية..

وهذا ما استغلَّه القائد المشرك (خالد بن الوليد)، فقام بمهاجمة المسلمين من الخلف، ما أربك صفوفهم وأدَّى إلى انهيارهم.

استعداد المشركون ثقتهم، ورباطة جأشهم، وقاموا بمهاجمة المسلمين المنشغلين بالغنائم، وانتشرت إشاعة مفادها أنَّ الرسول ﷺ قد قُتل، ما زاد من حالة الذعر والتشتُّت في صفوف المسلمين، ولم يبقَ ليدافع عن النبي ﷺ إلا ابن عمُّه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي اشتدَّ في الدفاع عنه، وصدَّ هجمات المشركين ببسالة نادرة. وقد نادى جبرائيل عليه السلام في تلك اللحظات الحاسمة: «لا فتى إلا علي، ولا سيف إلا ذو الفقار»^(١).

وعندما رأى المسلمون ثبات النبي ﷺ وبطولة علي عليه السلام، بدأوا في تجميع صفوفهم والعودة إلى ساحة القتال، ما مكَّنهم من صدِّ الهجمات المضادة للمشركين.. هنا أدرك المشركون أنَّ هزيمة المسلمين أصبحت مستحيلة، وهم يعانون من الإرهاق والخسائر، فقرَّروا الانسحاب والعودة إلى مكة خالي الوفاض، دون أنْ يحققوا أيًّا من أغراضهم وأهدافهم^(٢).

١ - راجع: محمد بن سليمان الكوفي: مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ج ١، ص ٤٩٥؛ النعمان المغربي: شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، ج ٢، ص ٣٨١.
٢ - راجع: ابن هشام: سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ١٠٦؛ محمد بن عمر الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٩٩؛ محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ١٨٦؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٩١.

ثاني عشر: معركة الخندق

بعد معركتي بدر وأحد، استمرت معارك الرسول ﷺ وغزواته ضدَّ عدد من قبائل العرب واليهود، ما أيقظَ مخاوفهم وشعورهم بالتهديد الجدِّي جرَّاء تنامي قوَّة الدولة الإسلاميَّة بقيادة الرسول الكريم محمَّد ﷺ، فانخرطوا في كثير من حياكة المؤامرات والدسائس ضدَّ الإسلام ونبيِّه، وعملوا على بثِّ الفتن، وتحريض أعداء النبي، والتخطيط لتشكل تحالف عسكري كبير لاقتحام المدينة، والقضاء على الإسلام والمسلمين.

قام اليهود بالاتصال بقريش وغطفان، وتوصَّلوا معهم إلى اتفاق لمهاجمة المدينة، ولكنَّ أخبار هذه المؤامرة وصلت إلى النبي ﷺ، فاستشار أصحابه الذين أشاروا عليه لضرورة حفر الخندق حول المدينة، وشارك النبي ﷺ بنفسه في أعمال الحفر.

وتحضَّرت أحزاب الكفر والضلال من قريش وغطفان وحلفائهم من القبائل المعادية، وجمعوا مقاتليهم وأنصارهم، حتى بلغ عدد جيشهم عشرة آلاف مقاتل نزلوا على مقربة من المدينة، في حين لم يتجاوز عدد المسلمين تسعمئة مقاتل، اصطفوا خلف الخندق بقوَّة وإيمان. وأسهمت ثلاثة عوامل رئيسة في تحقيق الصمود والنصر في هذه المعركة، وهي:

■ التخطيط العسكري المتمثل بحفر الخندق، الذي شكّل درعًا واقياً للمسلمين والمدينة، وحال دون تقدّم العدو بسرعة.

■ نشاط الاستخبارات الفعّال الذي قاده رسول الله ﷺ، وأدّى إلى إضعاف تماسك جبهة الأحزاب وهزيمتهم من الداخل.

■ البطولة الفذة التي أظهرها الإمام علي بن أبي طالب ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻲ، وقد وصفَ الرسولُ الكريم ﷺ موقفَ الإمام علي ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻲ في غزوة الخندق بقوله الخالد: «ضربهُ عليُّ يومَ الخندقِ أفضلَ من عبادةِ الثقلين»^(١).

١ - راجع: محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٢٢؛ المجلسي: بحار الأنوار، ج ٣٩، ص ٢. وقد روي هذا الحديث بطريقة أخرى أوردها الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي في تفسيره مجمع البيان، حيث قال: عن حذيفة، قال: قال النبي ﷺ: «أبشر يا عليُّ، فلو وُزنَ اليومَ عملُك بعملِ أمّةٍ محمدٍ لرجحَ عملُك على عملهم؛ وذلك أنّه لم يبقَ بيتٌ من بيوت المشركين إلّا وقد دخله وهنٌ بقتل عمرو، ولم يبقَ بيتٌ من بيوت المسلمين إلّا وقد دخله عزٌّ بقتل عمرو». (راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان، ج ٨، ص ١٣٢. وعبيد الله حسان: شواهد التنزيل، ج ٢ ص ١٢).

ثالث عشر: صلح الحديبية

لقد شكّلت الانتصارات المتتالية للرسول ﷺ في مواجهة أعداء الإسلام من المشركين واليهود نقلةً نوعيّةً عزّزت من مكانة الدولة الإسلاميّة وهيبتها، ما دفع النبي ﷺ إلى التوجّه مع أصحابه إلى مكّة لزيارة البيت الحرام وأداء مناسك العمرة، مستندًا إلى رؤيا صادقة رأى فيها تحقّق هذا الأمر بسلام، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].. فانطلق الرسول الكريم ﷺ في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، وكان معه قرابة ألف وأربعمئة من أصحابه من المهاجرين والأنصار، حاملين سلاحهم للتحرّز من أي طارئ، وساقوا معهم هديًا من الإبل، بلغ سبعين بدنة لينحروها في مكّة. وعندما وصل خبر مسيرهم إلى قريش، استشعروا الخطر، واعتقدوا أنّ القصد هو مهاجمتهم، فاستنفروا للتحضير للقتال وأرسلوا سرّيّة استطلاعيّة بقيادة (خالد بن الوليد). ولمّا علم النبي ﷺ بنيّتهم، حرصًا على تفادي القتال وتأكيدًا أنّ الهدف هو العمرة فقط، انحرف عن الطريق المباشر وتوجّه إلى منطقة الحديبية حيث مكثوا وخيّموا هناك.

في ذلك الموقع، بدأت سلسلة من المفاوضات بين الطرفين، حيث بعث قريش عدَّة وفود لاستقصاء نوايا المسلمين، وكان ردُّ النبي ﷺ موحِّدًا ومباشرًا: «إنا لم نجئ لقتال، وإنما جئنا معتمرين»^(١). وبعد مفاوضات مطوَّلة، جرى إبرام اتفاقية تاريخية عُرفت بصلح الحديبية، بواسطة (سهيل بن عمرو) الذي أرسلته قريش، وتضمَّنت بنودًا رئيسة، أهمُّها:

- وقف الأعمال العدائية بين الطرفين لمدة عشر سنوات.
- يتعهَّد المسلمون بإعادة أيِّ شخص يأتيهم من قريش دون إذن أهله، بينما لا تلتزم قريش بإعادة من يأتيها من المسلمين.
- حُرِّية القبائل في التحالف مع الطرف الذي تختاره.
- عودة المسلمين ذلك العام إلى ديارهم، على أن يعودوا للعمرة في العام التالي ويمكنوا ثلاثة أيَّام، دون دخول بسلاح إلا سيوف المسافرين.
- حُرِّية الدعوة إلى الإسلام في مكَّة دون تعرُّض أحد للأذى.
- منع أعمال السطو والخيانة بين الطرفين وضمان سلامة الأموال.

■ عدم تقديم قريش أي دعم عسكري أو لوجستي ضد المسلمين.

ونتيجة لهذه المعاهدة، فقد دخلت قبيلة خزاعة في حلف مع النبي ﷺ، بينما تحالفت كنانة مع قريش^(١).

رابع عشر: فتح مكة

بعد ما يقاربُ العامين على توقيع صلح الحديبية، قامت قريش بنقض بنود الاتفاقية، وذلك بعد أن بنت حلفاً مع قبيلة كنانة في هجومهم على قبيلة خزاعة الحليفة للمسلمين، وهذا كان خرقاً صريحاً لبنود الهدنة. لجأت خزاعة إلى رسول الله ﷺ طالبةً النصرة، وحينها أدركت قريش خطورة ما فعلت، فقرّر النبي ﷺ التوجّه إلى مكة لمواجهة هذا الانتهاك، فجهّز جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل من مختلف القبائل. اتخذ النبي ﷺ إجراءات احترازية لضمان مفاجأة قريش، فتحرّك الجيش الإسلامي في العاشر من شهر رمضان في السنة الثامنة للهجرة بشكل سرّي، حتى أحاط بمكة من جميع نواحيها وأطرافها.

١ - راجع: النعمان المغربي: شرح الأخبار، ص ١٠٨؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٢٠٢؛ الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان، ج ٩، ص ١٧٨؛ محمد بن عمر الواقي: المغازي، ج ٢، ص ٥٨٧.

دخل رسول الله ﷺ مكةَ محققًا النصر دون إراقة دماء، وتوجّه إلى الكعبة مباشرة، حيثُ أظهر موقفًا إنسانيًا فريدًا تجلّى في العفو عن قريش وزعاماتها، قائلاً لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١)، ما حول لحظة الانتصار إلى صفحة جديدة من المصالحة والعفو الكريم.

خامس عشر: أبرز الصّراعات مع قبائل اليهود أ - مواجهة بني قَيْنُقَاع:

شكّلت الأعمال والسلوكيات العدائية لليهود دافعاً لمواجهتهم على مراحل، وكانت أولى هذه المواجهات مع بني قَيْنُقَاع الذين سكنوا داخل المدينة، وكانوا أول من غدر بالمسلمين ونقض العهد معهم. وجاءت القطيعة بعد أن قاموا بقتل أحد المسلمين الذي دافع عن امرأة مسلمة، فاضطرّ النبي ﷺ إلى محاربتهم؛ حيث حاصرهم المسلمون بقيادة عليّ (عليه السلام) في حصنهم لمدة أسبوعين، حتى استسلموا وطلبوا النفي مقابل الاحتفاظ بأسرهم، فقبل النبي ﷺ بذلك، وصادر أموالهم وأسلحتهم، ووَزَّعها على المسلمين، ثمَّ أجلاهم إلى أذرعات

١ - راجع كل من: احمد بن يحيى البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٤١؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٧، ص ٢٥٧؛ ابن الأثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٣٢١.

في الشام، حيث هلكوا جميعاً في العام نفسه.

ب - مواجهة بني النضير:

تعرض الرسول الكريم ﷺ إلى محاولة اغتيال نظمتها وخططت لها قبيلة بني النضير، فكشف مخططهم، وأمرهم بمغادرة المدينة خلال عشرة أيام. عند رفضهم الانصياع، حاصرهم المسلمون وقطعوا نخيلهم، الأمر الذي دفعهم للاستسلام بعد أن قتل علي (عليه السلام) عشرة من فرسانهم. ثم لاحقاً سمح لهم النبي ﷺ بمغادرة المدينة محملين بأمعتهم دون السلاح، فتوجه معظمهم إلى خيبر بينما اتجه آخرون إلى الشام^(١).

ج - فتح خيبر:

كانت خيبر أقوى معقل لليهود في الحجاز، وقد شاركوا في التحريض ضد المسلمين في غزوة الأحزاب. توجه الرسول الكريم ﷺ بجيشه إلى خيبر السنة السابعة للهجرة، وتمكن المسلمون من مفاجأة اليهود بعد تحرك سرّي. بعد عدة محاولات فاشلة لاقتحام الحصون، أسند الرسول الكريم ﷺ الراية إلى الإمام علي (عليه السلام) الذي قتل بطلهم

١ - راجع: ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٥٧؛ الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ١، ص ٩٢.

(مرحب)، واقتلع باب الحصن لكي يتمكن المسلمون من العبور إليه. انتهى الأمر باستسلام اليهود، واتفاقهم على العمل في الأرض مقابل نصف إنتاجهم لصالح المسلمين.

د - مصالحة فذك:

بعد سقوط خيبر، بادر يهود فذك إلى طلب الصلح مع النبي ﷺ، فجرى الاتفاق على مناصفة محصول أراضيهم. أصبحت خيبر ملكاً للمسلمين، بينما حُرّ تخصيص فذك للنبي ﷺ الذي أوصى بها لابنته فاطمة الزهراء (عليها السلام) لتصرف ريعها على فقراء بني هاشم وفق ما تراه مناسباً^(١).

سادس عشر: حجة الوداع وبيعة غدير خم

في العام العاشر للهجرة، أعلن الرسول الكريم ﷺ عزمه على أداء فريضة الحج، فتوافدت الجموع إلى المدينة المنورة لينضموا إليه. وفي الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة، غادر ﷺ المدينة مصطحباً زوجاته وابنته فاطمة الزهراء (عليها السلام).

١ - راجع: ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٩٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٠، ص ٣٠٠.

وبعد إكمال مناسك الحجّ، انطلقت القافلة عائدة إلى المدينة، وكانت تضمّ حشوداً لم تشهدا مكة من قبل. وعند وصولهم إلى موضع يُعرف بـ "غدير خم" قرب الجحفة في يوم شديد الحرارة، نزل الوحي على النبي ﷺ بالآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].. وعندها أمر النبي ﷺ بتجميع الدوحات (الأشجار) ليصعد عليها حتى يراه الجميع، فخطب في الناس حامداً الله ومثنياً عليه، ثم قال: «كأنّي دُعيت فأجبت.. إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي؛ فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض... لله مولاي وأنا ولي كل مؤمن ومؤمنة»^(١)، ممسكاً بيد الإمام علي (عليه السلام) قائلاً: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(٢). وتؤكد الروايات -كما عند (زيد بن أرقم)- أن كلّ من كان حاضراً قد شهد وسمع هذا الحدث.

وفي رواية للإمام جعفر الصادق (عليه السلام) أوردها (الشيخ المفيد) في

١ - راجع: سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الكبير، ج ٥، ص ١٨٣.
٢ - راجع: علي المتقي: كنز العمال، ج ١١، ص ٦٠١، ح ٣٢٨٩٩؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٢، ص ٢٣٨، ح ١٥٨٩.

كتابه «الإرشاد»^(١)، أنَّ الرسول الكريم ﷺ أقام خيمة لأمر المؤمنين الإمام علي عليه السلام وأمر المسلمين أن يهتئوه ويبايعوه بإمرة المؤمنين على سبيل الانفراد جماعةً جماعة، كما أمر النساء بذلك. وقد هنأه (عمر بن الخطاب) قائلاً: «بخ بخ لك يا علي، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة»^(٢).

سابع عشر: الوصية الأخيرة

مع اقتراب أجل النبي ﷺ، ألمَّ به مرض شديد أقعده ثلاثة أيَّام.. ثم خرج بعدها إلى المسجد معصوب الرأس، متكئاً على كلٍّ من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام و(الفضل بن العباس)، حتى صعد المنبر وجلس عليه. ثمَّ خاطب الناس قائلاً: «يا معشر الناس، قد قرب مني الفراق؛ فمن كان له عندي وعد فليأتني أوفٍ له به، ومن كان لي عليه دين فليعلمني به.. ألا وإنَّه ليسَ بين الله وبين أحدٍ نسبٌ يعطيه خيراً أو يدفع عنه شراً إلا العمل.. لا يدعٍ مدعٍ، ولا يتمنّى مُتمنٍّ. والذي بعثني بالحقِّ لا يُنجي إلا العمل مع الرحمة، ولو عصيت لهويت.

١ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ١، ص ٣٣٩.

٢ - راجع: ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٥٤؛ محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٣٨٨.

اللهم هل بلغت؟». ثم نزل ﷺ وصلى بالناس صلاة خفيفة وعاد إلى بيته. وعند أذان الفجر، جاءه (بلال) وهو في سكرات المرض، فنهض ﷺ ضعيفاً حتى أن رجليه كانتا تخطآن في الأرض من شدة الوهن، معتمداً على عليّ (عليه السلام) والفضل، وبدأ الصلاة، ثم أغمى عليه فترة، فبكى الحاضرون وارتفع النحيب من زوجاته وابنته فاطمة (عليها السلام) ونساء المؤمنين وكل من حضر^(١).

ثامن عشر: وفاة النبي ﷺ

كانت اللحظات الأخيرة للنبي الكريم ﷺ موشحة بحزن عميق بين المسلمين. وفي يوم الاثنين (الثامن والعشرين من صفر) من السنة الحادية عشرة للهجرة، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة، حُجب الناس عنه، ولم يزل الإمام عليّ (عليه السلام) ملازماً له.. وعند حضور الأجل، أوصى النبي ﷺ علياً بقوله: "يا علي، ضع رأسي في حجرك، فقد جاء أمر الله. فإذا فاضت نفسي فخذها بيدك وامسح بها وجهك، ثم وجهني نحو القبلة،

١ - راجع: أحمد بن حنبل: مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ٣٢٥؛ الشيخ محمد بن محمد المفيد: الأمالي، ص ٣٧؛ محمد بن اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٣٧؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٢، ص ٢٠؛ سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الكبير، ج ١١، ص ٣٠.

وتولَّ أمرِي، وَصَلَّ عَلَيَّ أَوَّلَ النَّاسِ، ولا تفارقني حتى توارى جسدي في قبره، واستعن بالله“. ففعل الإمام علي عليه السلام كما أمر، ففاضت النفس الطاهرة ورأسها على صدر علي^(١) عليه السلام.

١ - راجع: الشيخ محمد بن محمد المفيد: الأمالي، ص ٢٣؛ محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٤٥٩؛ ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٢٠٣.

الفصل الثاني:

الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)

يُقارب هذا الفصل شخصيّة الإمام علي عليه السلام بوصفها الامتداد العملي للنبوّة ومعيّار القيادة العادلة في الإسلام. لا نعرض السيرة للتعظيم العاطفي، بل لالتقاط قواعدها المعيارية: إعدادٌ مبكّر في حجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وسبقٌ في الإيمان ونصرة الدعوة، ثمّ تحوّل من الجهاد تحت راية الرسول إلى تجربة حكمٍ اختبرت عدالة التوزيع، ونزاهة الوسيلة، ومشروعية القوة. يركّز الفصل على ثلاث دوائر:

- (١) السيرة المشرقة ومفاصلها من المولد إلى المرافقة والغار؛
- (٢) المحطّات الحاسمة في بدر وأحد والخندق بوصفها دروساً في الانضباط والاعتدال؛
- (٣) الخلافة ومبادئ الحكم والصراعات الثلاث (الناكثون، والقاسطون، والمارقون) بما تكشفه من تمايز بين منطق الدولة الخُلقيّة ومنطق الغلبة. بهذه الزاوية، يصبح علي عليه السلام ليس مجرد «شخص فريد»، بل ميزاناً تُوزَن به السياسة والعدالة معاً.

المبحث الأول: السيرة المشرقة

أولاً: ملخص سيرة الإمام علي عليه السلام وحياته:

يُعَدُّ أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أوّل الأئمّة. وُلد داخل جدار الكعبة المشرّقة في مكّة المكرمة في الثالث عشر من شهر

رجب، بعد حادثة الفيل بثلاثين عاماً. وكانت ولادته معجزة؛ إذ دخلت به أمُّه (فاطمة بنت أسد) إلى البيت الحرام حيث مكثت ثلاثة أيَّام. استشهد ﷺ في ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ٤٠ للهجرة، عن عمر ناهز الثالثة والستين، إثر طعنة غادرة تلقَّاهَا من (عبد الرحمن بن ملجم) أثناء أدائه صلاة الفجر في مسجد الكوفة؛ ودفن في النجف الأشرف الذي أصبح مقاماً ومزاراً. امتدَّت إمامة أمير المؤمنين ﷺ بعد الرسول الكريم ﷺ لمدَّة تقارب التسعة والعشرين عاماً، من سنة ١١ للهجرة حتى سنة ٤٠ للهجرة. وقد عُرفَ بعدَّة ألقاب تدلُّ على مكانته الساميَّة، مثل: سيد الأوصياء، والصديق الأكبر، والفاروق الأعظم، وقسيم الجنة والنار، وأشهرها أمير المؤمنين. وكنيته أبو الحسن.

نشأ الإمام علي ﷺ في كنف الرسول الكريم ﷺ، وتربَّى على يديه منذ نعومة أظفاره، وكان رفيق دربه في كلِّ مسيرته وطيلة فترة الرسالة.. حكم بصفته خليفة للمسلمين قرابة خمس سنوات، ثمَّ أوصى بالخلافة من بعده لابنه الإمام الحسن المجتبي ﷺ^(١).

كان للإمام علي ﷺ عدد من الأولاد، من الذكور والإناث، ومن

أبرزهم من السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام): الإمام الحسن، الإمام الحسين، السيِّدة زينب الكبرى، والسيِّدة أم كلثوم (زينب الصغرى)^(١).
اهتمَّ الإمام علي (عليه السلام) بتكوين مجموعة مخلصَة من أصحاب المبادئ والأوفياء وتوجيهها، ومن أبرز تلامذته وأنصاره: (الأصغر بن نباتة)، و(أويس القرني)، و(الحارث الهمداني)، و(حجر بن عدي)، و(رشيد الهجري)، و(زيد بن صوحان)، و(سليمان بن صرد الخزاعي)، و(سهل بن حنيف)، و(عبد الله بن عباس)، و(عمرو بن الحمق الخزاعي)، مضافاً إلى عدد من الشخصيات البارزة الأخرى^(٢).

ثانياً: ميلاد الإمام علي (عليه السلام) ونشأته:

وُلد الإمام علي (عليه السلام) بعد رسول الله ﷺ بثلاثين عاماً، فكان عمره عشر سنوات عند البعثة النبويَّة. وقد تشكَّلت شخصيَّته وتربَّى تربيةً روحيَّةً ومعنويَّةً في تلك المرحلة الحسَّاسة تحت رعاية الرسول ﷺ في بيته، بعد أن تعرَّضت قريش لأزمة اقتصادية شديدة، وكان (أبو

١ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ١، ص ٣٥٤.

٢ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ٥٥.

طالب) يعاني من كثرة العيال، ما دفع بأبنائه إلى التفرُّق بين إخوته. لكنَّ رسول الله ﷺ اختار عليًّا خَصِيصًا ليكفله ويضمِّه إليه. فبقي ملازمًا له في بيته إلى أن بُعث النبي ﷺ بالرسالة، فكان أوَّل من آمن به وصدَّقه^(١).

ولمَّا أشار رسول الله ﷺ إلى أنَّ الله -تعالى- اصطفاه بكفالة عليٍّ ﺍﻟﻤُﻮﺗﺎﻫِﺪِﻳﻦ^(٢)، فقد أوضح الإمام علي ﺍﻟﻤُﻮﺗﺎﻫِﺪِﻳﻦ في الخطبة القاصعة طبيعة هذه الرعاية قائلاً: «وقد علمتم مكاتي من رسول الله ﷺ بصلة القرابة والمكانة المميَّزة. فقد ربَّاني في حجره وأنا صغير، كان يحضني إلى صدره، ويؤويني في فراشه، ويقربني من جسده لأشتم عرقه. وكان يُمضغ لي الطعام ثمَّ يطعميني... وكنت أُلزِمه التزام الفصيل بأمِّه، يطلعني كل يوم على خُلُق من أخلاقه، ويأمرني أن أَقتدي به»^(٣).

١ - راجع: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٥٨؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٦٢؛ محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٢١٣.

٢ - أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبين، ص ١٥.

٣ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٥٧.

ثالثاً: مرافقة الإمام علي (عليه السلام) للرسول في غار حراء^(١):

قبل البعثة، كان رسول الله ﷺ يعتكف للعبادة في غار حراء كل عام لمدة شهر^(٢). وتذكر الروايات أنه كان يصطحب الإمام علي (عليه السلام) معه إلى الغار في بعض الأوقات. وهناك، كان الإمام علي (عليه السلام) يرى علامات النبوة وآثارها. وقد روي عنه قوله: «ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري...»، ولقد سمعت رثة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ، فقلت: يا رسول الله ما هذه الرثة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي ولكتك لوزير، وإنك لعلی خير^(٣).

المبحث الثاني: محطات رئيسة في حياة الإمام علي (عليه السلام) في الإسلام

أولاً: الفترة المكيّة (من البعثة النبويّة إلى الهجرة):

امتدت هذه المرحلة ثلاثة عشر عاماً، وتميّزت بإسهامات الإمام علي (عليه السلام) الجليلة ودوره المحوري في دعم الرسالة الإسلامية ونشرها.

١ - حراء جبل يقع في شمال مكة، وغار حراء يقع في قمته.

٢ - ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٥٢.

٣ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢.

١ - السَّبْقُ إِلَى الْإِسْلَامِ:

تمثّل أوّل إنجازات الإمام علي (عليه السلام) في كونه أوّل من آمن برسالة النبي محمّد ﷺ، وذلك نظراً لنقاء سريرته وطهارة قلبه ونفوره من عبادة الأصنام؛ حيث كان موحدًا قبل البعثة^(١). وقد شهد له رسول الله ﷺ بهذه الفضيلة حين قال: «أوّلکم ورودًا عليّ الحوض، أوّلکم إسلامًا علي بن أبي طالب»^(٢). ويقول الإمام علي (عليه السلام): «ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشمّ ريح النبوة»^(٣).

٢ - الدِّعْمُ وَالنَّصْرَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ:

رافق الإمام علي (عليه السلام) ابن عمّه رسول الله ﷺ منذ نعومة أظفاره، وتعمّق هذا الارتباط بعد ظهور الإسلام. ففي سنوات الدعوة السريّة، تولّى الإمام (عليه السلام) مهمّة الدعوة إلى الإيمان بالرسول ﷺ والدّود عنه ضدّ المعارضين طيلة ثلاث سنوات. وعندما أمر الله نبيّه بدعوة عشيرته

١ - الموفق الخوارزمي: المناقب، ص ١٨.

٢ - راجع: يوسف بن عبد الله: الاستيعاب، ج ٣، ص ٢٨؛ الحاكم النيسابوري: المستدرک علی الصحیحین، ج ٣، ص ١٧.

٣ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، ج ٢، ص ١٥٧.

الأقربين، أوكّل النبي ﷺ إلى الإمام علي عليه السلام - وهو في نحو الرابعة عشرة من عمره^(١) - أن يدعو وجوه بني هاشم إلى وليمة؛ وبعد حضورهم في الموعد المحدّد وتناول طعامهم، افتتح النبي ﷺ كلمته قائلاً: «إني والله ما أعلم أنّ شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيتكم يؤازرنّي على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟» فلم يجبه أحد، فنهض الإمام علي عليه السلام، لكنّ رسول الله ﷺ كرّر ذلك ثلاثاً ليلقي الحجّة على القوم، وكان يقوم علي عليه السلام مجيباً، فقام رسول الله، فضرب بيده على يد علي عليه السلام، وقال في حقّه وبحضور وجهاء بني هاشم المقولة الشهيرة: «هذا عليّ أخي ووصيي وخليفتي فيكم»^(٢).

٣ - فدأء النبي ﷺ وليلة المبيت:

عندما أجمع زعماء قريش على قتل النبي ﷺ بمشاركة شاب من

١ - راجع: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ج ١٣، ص ٢٣٤-٢٣٥.

٢ - راجع: محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٢١٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٦٣؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٣، ص ٢١١.

كل قبيلة لتتوزع المسؤولية -وأوحى إلى النبي ﷺ بالمؤامرة^(١) وأمره بالهجرة- اختار النبي ﷺ علياً عليه السلام ليكون في فراشه ليلة خروجه، متلفعاً ببردته؛ ليوهم المشركين بأنه لا يزال نائماً في بيته. وقد قال الرسول يومها لعلّي: «امض إلى فراشي ونم في مضجعي والتف في بردي الحضرمي ليروا أنني لم أخرج».. فأطاع علي عليه السلام.. وفعلاً، حاصر مجندو قريش البيت، وهجموا عليه، ليفاجأوا بعلي عليه السلام في الفراش^(٢).

ثانياً: من هجرة الرسول ﷺ إلى وفاته:

١ - علي عليه السلام أخو رسول الله:

عندما استقرّ النبي ﷺ في المدينة المنورة، عقد ميثاق الأخوة بين المهاجرين والأنصار، فصار كلّ مسلم له أخ. وبعد أن نال جميع المسلمين أخاً لهم، بقي علي عليه السلام وحيداً، فتوجه إلى رسول الله ﷺ بعينين تفيضان بالدموع قائلاً: «ما أخيت بيني وبين أحد»، فردّ عليه

١ - جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

٢ - راجع: ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٢٤-١٢٨؛ الحاكم النيسابوري: المستدرک على الصحيحين، ج ٣، ص ٤.

النبي قائلًا: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»، ثمَّ عقد أخوته الخاصَّة به صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَام ^(١).

٢ - جهاد الإمام عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَام:

اشترك الإمام عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَام في كل غزوات النبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باستثناء غزوة تبوك، وذلك بسبب الأجواء المتوتِّرة والمؤامرات التي كان يدبُّرها المنافقون أثناء غياب الرسول عن عاصمة الدولة الإسلاميَّة؛ حيث بقي في المدينة بأمر منه صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي ما يأتي نسلِّط الضوء على دور الإمام عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَام (عليه السلام) في ثلاث محطَّات جهاديَّة:

المحطَّة الأولى: في غزوة بدر:

علم رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمرور قافلة تجاريَّة لقريش بقيادة (أبي سفيان) قرب المدينة قادمة من الشام متَّجهة إلى مكَّة، فخرج رسول الله مع أصحابه من المهاجرين والأنصار لملاقاتها عند بدر. استغاث (أبو سفيان) فقرَّرت قريش خوض الحرب، وتحركت جيوشها نحو المدينة. وانتهت المعركة بهزيمة نكراء للمشركين؛ حيث

١ - يوسف بن عبد الله: الاستيعاب، ج ٣، ص ٣٥.

أسر منهم سبعون، وقد أسهم سيف عليّ ﷺ في قتل أكثر من نصف قتلى المشركين. وقد أحصى (الشيخ المفيد) (رحمه الله) ثلاثة وثلاثين مشركاً من قتلى بدر قتلهم الإمام أمير المؤمنين ﷺ مباشرة، مشيراً إلى أنه: «قد أثبتت رواية العامة والخاصة معاً أسماء الذين تولى أمير المؤمنين قتلهم ببدر من المشركين سوى من اختلف فيه وأشرك هو فيه غيره»^(١).

المحطة الثانية: في غزوة أحد

بعد الهزيمة التي مُنيت بها قريش في غزوة بدر، عقدت العزم على الهجوم على المدينة انتقاماً وتعويضاً عن خسارتها. وعلم رسول الله ﷺ بتحركاتهم، فقررّ بعد مشورة أصحابه مواجهتهم عند سفح جبل أحد.

وزع النبي ﷺ خطة الدفاع؛ حيث وضع خمسين رامياً من الرماة على مُرتفع استراتيجيٍّ وأمرهم بعدم مغادرته مهما كانت النتيجة. بدأت المعركة وانقلبت موازينها إلى صالح المسلمين، حتى بدأ جيش قريش في التقهقر والفرار. لكنّ تهاون بعض الرماة ونزولهم لجمع الغنائم

مخالفين الأوامر، سمح للمشركين بالالتفاف ومحاصرة المسلمين من الخلف، فحدثت الهزيمة وفرّ كثير من المسلمين، واستشهد قرابة سبعين من الصحابة.

اشتدّت المعركة ولم يثبت في ساحتها إلا رسول الله ﷺ والإمام عليّ عليه السلام وبعض من عاد بعد فراره. ولما أبصر النبي ﷺ جماعة من المشركين، أمر عليّاً عليه السلام أن يحمل عليهم، ففرّق صفوفهم وقتل من فيها. ثم كرّر ذلك مع جماعة أخرى، فكان له النصر. عندها نزل جبرائيل عليه السلام وقال: «يا رسول الله، هذه هي المواساة!»، فردّ النبي ﷺ: «إنّه منّي وأنا منه»، فقال جبرائيل: وأنا منكما، قال فسمعوا صوتاً يقول: «لا فتى إلا عليّ، ولا سيف إلا ذو الفقار»^(١).

المحطة الثالثة: غزوة الأحزاب (الخنق)

حين بلغ النبي ﷺ تحرك جيش قريش والقبائل المتحالفة معها نحو المدينة، عقد مجلساً استشارياً عسكرياً. فاقترح (سلمان الفارسي) رضي الله عنه حفر خندق يحمي المدينة من الجهة المكشوفة، وهو أسلوب دفاعي جديد على العرب، فقبل النبي ﷺ بالمشروع ونجح المسلمون في تنفيذه.

وعند وصول جيش الأحزاب، تفاجأوا بالخندق الذي حاصره بدورهم، فاضطروا إلى حصار المدينة من خارجه. وحاول عدد من فرسان المشركين اختراقه، وكان أبرزهم الفارس المخيف (عمرو بن عبد ود)، الذي عبر بفروسه عند نقطة ضيقة وتحدى المسلمين للمبارزة، وهو يستهزئ بعقيدتهم قائلاً: «أين جنتكم التي تعدون؟ ألا من يبارز؟»..

كان الإمام علي ﷺ هو الوحيد الذي نهض ليستأذن النبي ﷺ في كل مرة، وكان النبي ﷺ يمسك عنه في البداية. وعندما تكرر التحدي واستأذن علي ﷺ للمرة الثالثة، قال النبي ﷺ: «إنه عمرو»، فرد علي ﷺ بثبات: «وأنا علي»^(١). فلما أذن له، ألبسه النبي ﷺ عمامته وأعطاه سيفه، وقال ﷺ: وهو يرى علياً ﷺ يتقدم: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»^(٢).

تقدم علي ﷺ نحو (عمرو) ودعاه أولاً إلى الإسلام، ثم عرض عليه أن يعود من حيث أتى دون قتال، فرفض (عمرو) متكبراً. فالتحم الطرفان في قتال شديد، تلقى خلاله علي ﷺ ضربة على رأسه الشريف شق فيها الترس، لكنه استطاع أن يوجه ضربه القاضية التي أردت

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٣، ص ٢٨٤.

٢ - الشيخ محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢١٥.

(عمرًا) قتيلًا. ارتفعت أصوات التكبير من معسكر المسلمين ابتهاجًا بالنصر^(١)، وقال رسول الله ﷺ في حقّ عليّ عليه السلام يومها: «ضربة عليّ يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»^(٢).. وفي رواية أخرى: «لو وزن اليوم عملك بعمل جميع أمة محمد، لرجح عملك على عملهم، وذلك أنّه لم يبق بيت من المشركين إلّا وقد دخله ذلّ بقتل عمرو ولم يبق بيت من المسلمين إلّا وقد دخله عزّ بقتل عمرو»^(٣).

المبحث الثالث: وفاة الرسول ﷺ ومسألة الخلافة

كان الإمام عليّ عليه السلام هو الشخصية الإسلامية الأولى بعد رسول الله ﷺ في مكانته العلمية وفضائله الخلقية وجهاده في سبيل الله، وقد نصبه النبي ﷺ صراحةً في مناسبات عدّة، أبرزها وأهمّها واقعة أو

-
- ١ - راجع: محمد بن عمر الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٤٧١.. وقد ذكرت أحداث قتال عليّ عليه السلام المصيرية مع (عمرو بن عبد ود) في تصانيف ومصادر كثيرة.. نذكر منها الآتي -مضافاً إلى ما سبق- مع اختلاف يسير: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٨١؛ الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ص ٥٤؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٩، ص ٦٢-٦٤.
 - ٢ - ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ٢٣٦.
 - ٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢١٦.

حادثة الغدير، ليكون ولياً للمؤمنين وخليفةً من بعده.
وعلى الرغم من ذلك، لم يتمكن الإمام عليّ (عليه السلام) من تولي منصب القيادة الفعلية للأمة بعد رحيل النبي ﷺ؛ حيث أُبعد عن مركز صنع القرار وعن الساحة السياسية، ما شكّل منعطفاً حاسماً في مسار الخلافة الإسلامية.

وقد أوضح الإمام (عليه السلام) في أكثر من موقف أنّ صبره على هذا الأمر كان بدافع الحفاظ على كيان الإسلام ووحدته، ومن ذلك قوله في بداية خلافة (عثمان بن عفان): «لقد علمتم أنّي أحقّ الناس بها من غيري، ووالله لأسلمنّ ما سلمتُ أمورُ المسلمين، ولم يكن فيها جورٌ إلّا عليّ خاصة»^(١).

كما يصوّر أمير المؤمنين الإمام (عليه السلام) في خطبة الشقشقية المشهورة الحالة التي مرّ بها والمأزق الصعب الذي وضعه فيه الانحراف عن تنفيذ أمر الرسول والرسالة بالخلافة الشرعية، فيقول: «فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْبًا، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا، وَطَفَفْتُ أَرْتِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَاءً، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَّةِ عَمِيَاءَ، يَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ. فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى

هَاتَا أَحَجَى، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذَى، وَفِي الْحَلْقِ شَجَا، أَرَى تُرَاثِي
نَهْبًا»^(١).

المبحث الرابع: دور الإمام علي عليه السلام في عهد الخلفاء

تركزت نشاطات الإمام على كثير من المحاور، كان من أهمها قيامه بالردّ على الشبهات والاستفسارات العلميّة خلال فترة حكم الخلفاء الثلاثة؛ حيث كان الإمام عليه السلام هو الملجأ الأوّل والأخير للجواب عن أسئلة علماء الأديان الأخرى وإشكاليّاتهم ومختلف شبهاتهم، خصوصاً اليهود والنصارى، ممن كانوا يأتون ويفدون إلى المدينة المنورة للتحقّق من تعاليم الدين الإسلامي بعد وفاة النبي الكريم ﷺ. فقد كانت معرفة الإمام علي عليه السلام العميقة بالتوراة والإنجيل واضحة وجلية في حواراته معهم.. ولولا تدخّله الحكيم لملء هذا الفراغ العلمي لتعرّض المجتمع الإسلامي الناشئ لانتكاسة فكرية كبيرة في مواجهة تحدّيات الآخرين.. ولكانت واجهت القيادة الحاكمة أيضاً مأزقاً كبيراً في كثير من القضايا السياسيّة أو المشكلات الاجتماعيّة المستعصية.

لقد كان الإمام ﷺ هو المستشار الوحيد والمرجع المعتمد لحل تلك المعضلات بحكمة وموضوعية. وهذا ما شهدت به الوقائع التاريخية؛ حيث إنَّ (أبا بكر) و(عمر) كانا يرجعان إليه في كثير من الشؤون والأمور السياسية والدينية، وتفسير القرآن والأحكام الشرعية طيلة فترة خلافتهما.

مثال تاريخي: في السنة الرابعة عشرة للهجرة، وقعت معركة حاسمة بين جيش المسلمين والجيش الفارسي في القادسية، انتهت بانتصار المسلمين ومقتل القائد العام للفرس (رستم فرخ زاد) مع عدد كبير من جنوده، ما أدَّى إلى انضمام العراق بالكامل إلى الدولة الإسلامية، وسقوط العاصمة الفارسية المدائن.. وتحسُّباً لتقدُّم الجيش الإسلامي داخل الأراضي الفارسية، حشد (يزدجرد) ملك فارس جيشاً ضخماً قوامه مئة وخمسون ألف مقاتل بقيادة (فيروزان) لصدِّ أي هجوم محتمل. عندها، كتب القائد الإسلامي (سعد بن أبي وقاص) إلى الخليفة (عمر) يخبره بحشود العدو ويقترح مباغتتهم بالهجوم لاستباق الخطر.

دخل الخليفة (عمر) المسجد وجمع كبار الصحابة، وعرض عليهم نيَّته مغادرة المدينة والتوجُّه إلى موقع بين البصرة والكوفة. بعد مداولات مطوَّلة، تكلم أمير المؤمنين عليّ ﷺ قائلاً: «إنَّ

نصر هذا الأمر أو هزيمته لا يتوقَّف على الكثرة أو القلَّة، فهو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعدَّه وأَيَّده حتى بلغ ما بلغ. ونحن على عهد من الله، والله منجز وعده وناصر جنده. ومكان القائد بالأُمَّة كالنظام في العقد؛ يجمعه ويضمِّمه، فإذا انقطع النظام تفرَّق الخرز وضاع، ولن يعود مجتمعاً كما كان أبداً. والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً، لكنَّ الإسلام جعلهم كثيرين، والاجتماع جعلهم أعزَّاء. فكن أنت المحور، وادر رحى المعركة بالعرب، واجعلهم أساساً لدعمك في الحرب، فإنَّك إن غادرت هذه الأرض، ستنقضَّ عليك العرب من كل صوب، حتى يصير ما خلَّفته من الشغرات أشدَّ خطراً ممَّا أمامك..» (إن العجم (غير العرب) إذا رأوك غداً قالوا: هذا أصل العرب، فإذا استأصلتموه استرحتم. وهذا سيزيد من حقدهم عليك وطمعهم فيك.

أمَّا ما ذكرته من تقدُّم القوم لقتال المسلمين، فإنَّ الله سبحانه أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تبديل ما لا يرضيه. وأمَّا ما ذكرته من كثرتهم، فإنَّا لم نكن نقاتل في الماضي بالعدد، وإنمَّا كنا نقاتل بالنصر والمعونة من الله»^(١).

فاستمع (عمر) إلى كلام الإمام وقَبِلَ رأيه، ولم يغادر المدينة^(١). ونظرًا لحكمة هذا الحل الذي قدَّمه الإمام عليه السلام، قال (عمر) معبرًا عن اعتماده عليه: «أعوذ بالله من معضلة لا يكون لها أبو الحسن عليه السلام»^(٢).

المبحث الخامس: من الخلافة إلى الاستشهاد

بعد مضي فترة وجيزة على تولي الخليفة (عثمان بن عفان)، شهدت دولته ثورة شعبية استمرت حتى انتهت بمقتله، بعد خلافة دامت قرابة اثني عشر عامًا. عاش الناس خلال تلك الفترة في حالة من الاضطراب والفراغ، وفي خضمها لجأ الثَّوَّار إلى الإمام علي عليه السلام طالبين منه تولي الأمر، لكنَّه كان يعتزلهم غالبًا؛ إذ كان يرى أنَّ الظروف غير مناسبة لتقبُّل الخلافة، وأنَّ الحجَّة لم تكتمل لديه لقبول هذا المقترح، قائلاً لهم: «دعوني والتمسوا غيري، فإنَّا مستقبلون أمرًا له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وإنَّ الآفاق قد أغامت والحجَّة

١ - راجع: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٨؛ محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٢٧٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٠٧.
٢ - راجع لمزيد من الاطلاع: ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٢، ص ٥٠٩.

قد تنكرت، واعلموا أنني وإن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً»^(١).

ولكن مع تزايد أعداد الوافدين عليه وازدحام داره بهم وإلحاحهم المتزايد، شعر الإمام علي عليه السلام بثقل المسؤولية، وبالتالي لم يجد مفرّاً من قبول البيعة.. وقد أوضح في خطبة أخرى أسباب قبوله للخلافة، متحدّثاً عن حماسة الناس، وسرورهم بذلك في البداية، قائلاً: «..فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إليّ يتثالون عليّ من كلّ جانب حتى لقد وطئ الحسنان»^(٢)، وشق عطفائي مجتمعين حولي كرياضة الغنم، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومقرت أخرى وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].. بلى والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها، أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ١٨١، الخطبة ٩٢.

٢ - نص كلام الإمام هو (وطئ الحسنان) الذي قد يعني: الحسن والحسين، ولكن قد فسّر البعض الحسن بالابهام. (راجع: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٠٠).

وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»^(١).

المبحث السادس: مبادئ حكم الإمام عليّ عليه السلام

واجهت خلافة الإمام علي عليه السلام تحديات عملية جسيمة، لكنها تمكنت من تقديم نموذج متميز للحكم الإسلامي القائم على الأسس والمبادئ السامية، والتي يمكن عرض أبرزها في ما يأتي:

١. العدالة الاجتماعية هدف أساس: حدد الإمام عليه السلام الهدف

الجوهري من قبوله مقاليد الحكم في إقامة العدل المجتمعي الشامل، خاصة على الصعيد الاقتصادي، وضمان توزيع عادل للثروات والموارد العامة، ومحاربة أشكال التفاوت الطبقي الفاحش.

٢. الحكم وسيلة للخدمة لا للغنيمه: ارتكزت رؤيته عليه السلام

في كون المنصب الحكومي أداة لخدمة الناس ونصرة

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٠٢.

الحقِّ ومحاربة الباطل، وليس وسيلة للكسب أو الامتياز الشخصي. وترجم هذا المبدأ عملياً بتجنُّبه تولية المناصب الحسَّاسة -كالولاية وإدارة بيت المال- لأصحاب النزعات الماديَّة والطامعين في السلطة.

٣. الزهد ونمط الحياة البسيط: اتَّسمت حياة الإمام عليه السلام الشخصية خلال فترة حكمه بالزهد والبساطة، كما حرص على توجيه عمَّاله وولاته إلى الاعتدال في العيش والابتعاد عن مظاهر الترف والبدخ، ما يشكِّل سمة بارزة في سيرته وإدارته.

٤. معايير الكفاءة والتقوى في التعيين: اعتمد عليّ عليه السلام في اختيار وولاته ومعاونيه على معايير موضوعيَّة ترتكز إلى: السابقة في الإسلام، والتقوى، والكفاءة الإداريَّة، والالتزام بالقيم، دون أيِّ اعتبار للقرابة أو الانتماء القبليّ. وقد تجلَّى ذلك بشكل كامل الوضوح في قائمة ولاة الأقاليم الـ ٥١ الذين عيَّنتهم، والتي ضمَّت تنوعاً من المهاجرين والأنصار، ومن مختلف المناطق والأعمار، دون أن تشمل أبناءه المباشرين أو أقرباءه المقربين. كما أنَّه، رغم حرصه على اختيار الكفوئين، كان يراقب طريقة عملهم وأداءهم عن كثب، كما في رسالته المشهورة إلى عامله على البصرة (عثمان بن حنيف الأنصاري)

حين بلغه مشاركته في وليمة تثير الشبهات^(١).
 ٥. وسائل مشروعة لغايات نبيلة: خلافاً لنهج كثير من القادة، رفض الإمام عليّ ﺍﻟﻤﺒﺎﺭﻛﻲ أن يقيم حكمه وأساس دولته على مبدأ «الغاية تبرّر الوسيلة»، ولم يلجأ أبداً إلى أساليب غير مشروعة لتحقيق أهدافه التي هي أهداف الرسالة الإسلامية، وهو ما ظهر بوضوح في ردّه على من عاتبه على مساواته في العطاء بين الناس، قائلاً: «أتأمروني أن أطلب النصرَ بالجور فيمن وليت عليه؟، والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجمٌ في السماء نجمًا، ولو كان المالُ لي لسويتُ بينهم، فكيف وإنّما المال مال الله؟»^(٢).

المبحث السابع: الصّراعاتُ في عهد الإمام ﺍﻟﻤﺒﺎﺭﻛﻲ (حروب على ثلاث جبهات)

أدّت سياسة الإمام عليّ ﺍﻟﻤﺒﺎﺭﻛﻲ -القائمة على العدل والكرامة، وإحياء

١ - راجع: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٣٢، الكتاب ٤٥.

٢ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٣٤٨، خ ١٢٦.

القيَم الإسلامية- إلى استقطاب معارضة عنيفة، تجسّدت عملياً وميدانياً في ثلاث حروب كبرى:

■ حرب الناكثين (معركة الجمل): نشبت بسبب نقض (طلحة) و(الزبير) للبيعة، بعد أن رفض عليّ (عليه السلام) منحهما ولاية البصرة والكوفة، فسارا بجيشٍ إلى البصرة، واستوليا عليها بتمويل من أموال مختلسة. دفع هذا الأمر الإمام (عليه السلام) إلى التوجّه لمواجهتهم، وانتصر عليهم في معركة الجمل سنة ٣٦ هـ.

■ حرب القاسطين (معركة صفّين): جاءت نتيجة رفض (معاوية بن أبي سفيان) لأمر الإمام عليّ (عليه السلام) بعزله عن ولاية الشام. وعندما اشتبك الجيشان في صفّين، كان النصر حليفاً لجيش الإمام (عليه السلام) لولا خديعة رفع المصاحف المعروفة التي أوقفت القتال، وأجبرت الإمام على الموافقة واللجوء إلى «خدعة» التحكيم! وانتهت هذه الخديعة بمكر (عمرو بن العاص) بـ (أبي موسى الأشعري، ما أدّى إلى انشقاق داخل صفوف أنصار الإمام (عليه السلام)، وانتقادهم له على قبول التحكيم، ووقعت هذه الأحداث في السنة السابعة والثلاثين للهجرة.

■ حرب المارقين (معركة النهروان): وهي اندلعت بفعل

جماعة (الخوارج) الذين هم من طالبوا بالتحكيم أولاً، ثم نكثوا وطالبوا الإمام علي (عليه السلام) بنقض الاتفاق، وعندما رفض لالتزامه بالعهد، خرجوا عليه، وحاربوه في النهروان، فهزمهم، وذلك سنة ٣٨ أو ٣٩ هـ، تاركين وراءهم بذور حقدٍ استمرَّت بعد ذلك.

الفصل الثالث:

السيدة فاطمة بنت محمد عليها السلام

يقدم هذا الفصل الزهراء (عليها السلام) نموذجاً مكتملاً لاجتماع العبادة والرحمة والمسؤولية العامة. تُقرأ سيرتها بوصفها «دليلاً تطبيقياً» لقيمتها، أبرز معالمها: عبادة تُهذب الوجدان، وتكافلٌ يوسّع دائرة «الجار ثم الدار»، وشراكة نبوية-علوية تؤسس لبيتٍ هو مركز الإمامة والتربية. يتناول الفصل ثلاثة محاور:

(١) لمحات السيرة والفضائل بما هي معايير للسلوك لا مناقب سردية؛ (٢) موقعها في المباهلة شاهداً على الاصطفاء ودلالة على حجّة البيت النبوي في الجدل العقدي؛ (٣) مواقفها بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) - من خطاب الاحتجاج إلى قضية فذك - باعتبارها دفاعاً مبدئياً عن وصيّة القيادة ومعنى العدل في إدارة المال العام. بهذه القراءة، تخرج الزهراء (عليها السلام) من حقل التبجيل المجرّد إلى مساحة الفاعلية: مثلاً يُهتدى به في العبادة، وفي بناء الأسرة، وفي صون معيار الحقّ حين تتشوش السياسة.

المبحث الأول: سيرة السيّدة الزهراء.. نورٌ يقتدى به

أولاً: نبذة عن حياتها:

وُلدت سيّدة النساء فاطمة الزهراء (عليها السلام) - كما هو المشهور - بعد بعثة

النبي ﷺ بخمس سنوات، في العشرين من جمادى الآخرة بمكة المكرمة. نشأت في أحضان أبوين عظيمين هما: رسول الله ﷺ والسيدة خديجة بنت خويلد ﷺ. قضت خمس سنوات تحت رعاية أمها، إلى أن توفيت السيدة خديجة في السنة العاشرة للبعثة. وتوفيت السيدة الزهراء ﷺ في الثالث من جمادى الآخرة أو الثالث عشر منه. ومن أبرز ألقابها: الزهراء، وسيدة نساء العالمين، والمحدثة، والبتول، والصديقة، وكنيتها الأشهر أم الحسين. وقد تولى أمير المؤمنين ﷺ دفنها ليلاً بإجراءات سرية، ما جعل موقع قبرها مجهولاً حتى يومنا هذا.

ثانياً: لمحات من مناقبها وفضائلها:

تميّزت حياة السيدة الزهراء ﷺ بالعبادة والاجتهاد فيها إلى حدّ فاقت به كلّ أمة زمانها في العبادة، حتى إنّها كانت تقف في محرابها للصلاة حتى تنتفخ قدمها وتورّمان^(١).

وكان نور عبادتها يضيء لأهل السماوات، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «وأمّا ابنتي فاطمة فإنّها سيّدة نساء العالمين من الأولين والآخرين،

وهي بضعة مني وهي نور عيني وهي ثمرة فؤادي، وهي روعي التي بين جنبي، وهي الحوراء الإنسيّة، متى قامت في محرابها بين يدي ربّها (جلّ جلاله) زَهَرَ نورها لملائكة السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض، ويقول الله (عزّ وجلّ) لملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى أُمّتي فاطمة، سيّدة إمائي قائمة بين يديّ ترتعد فرائصها من خيفتي، وقد أقبلت بقلبها على عبادتي...»^(١).

كما جسّدت ﷺ أروع صور التكافل والرحمة الاجتماعيّتين، فكانت عندما تدعو في محرابها، تخصّ جيرانها والمؤمنين جميعاً بالدعاء، وتكثر من ذلك، ولا تدعو لنفسها.. وهذا ما يحدثنا عنه الإمام الحسين ﷺ عن أخيه الإمام الحسن ﷺ قال: «رأيت أُمّي فاطمة قامت في محرابها ليلة جمعتها فلم تزل راکعة ساجدة حتّى اتّضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم، وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أمّاه لم لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: يا بُنيّ! الجار ثمّ الدار»^(٢).

١ - شاذان بن جبرائيل القمي: الفضائل، ص ٩.

٢ - محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): علل الشرائع، ج ١، ص ١٨٢.

المبحث الثاني: دورها العظيم في ظل الإسلام

أولاً: نشأتها في مكة:

ترعرعت السيِّدة فاطمة في بيت النبوة الذي كان منارة للعفة والطهارة، فتشَبَّعت بمكارم الأخلاق من أبيها النبي ﷺ وأُمِّها خديجة ﷺ، لتصبح النموذج الأمثل للمرأة المسلمة التي تستطيع أن تبني كياناً أُسرياً قائماً على تعاليم الإسلام وقيمه.

وعاصرت ﷺ في مكة المراحل الأولى للدعوة النبوية وشهدت الصعوبات الجسام التي واجهتها، فكانت سنداً وعوناً لأبيها في تحمُّل تلك المصاعب، بل كانت بمثابة الأمِّ الحنون له، حتى منحها وسام "أمِّ أبيها" (قوله لها: فاطمة أمُّ أبيها^(١)) تكريماً لعظمتها ولعظمة الدور الذي قامت به.

ثانياً: هجرتها إلى المدينة:

هاجرت السيِّدة الزهراء ﷺ إلى المدينة المنورة برفقة مجموعة من النساء (الفواطم) والإمام عليّ ﷺ، حيث نزلوا في قباء ثم استقروا في

يثرب (المدينة المنورة).

وبعد تأسيس الدولة الإسلامية، كانت شريكة فاعلة في بنائها، مساندةً لأبيها النبي ﷺ في كل المجالات. كما شهدت ظهور ظاهرة النفاق ومقاومة أعداء الإسلام من الداخل، ما أثر على المسيرة السياسية للإسلام.

ثالثاً: زواجها المبارك وحياتها الأسرية:

بعد أن بلغت سنّ الزواج، تقدّم لها عدد من الخطّاب، لكنّ النبيّ الكريم ﷺ كان يؤجّل الردّ حتّى جاء الأمر الإلهي بتزويجها من الإمام عليّ عليه السلام، فجري الزواج المبارك الذي جمع النور بالنور. أسّست السيّدة فاطمة عليها السلام مع الإمام عليّ عليه السلام بيتاً كان مثلاً للإيمان والتقوى والصفاء، وهو البيت الذي احتضن فرع النبوة وموضع الإمامة؛ حيث وُلد وتربّى فيه الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام. واستمرّت حياتها مطبوعة بالهناء والطهر حتى وفاة أبيها ﷺ، فتحوّلت بعدها إلى حياة مليئة بالحزن والألم نتيجة ما تعرّضت له من إساءات وآلام، حتى انتقلت إلى الرفيق الأعلى شهيدةً راضية مرضية^(١).

١ - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ١٢٤.

المبحث الثالث: مكانتها في حديث المباهلة

عندما نزلت آية المباهلة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿ [آل عمران: ٥٩-٦٠]، دعا النبي ﷺ نصارى نجران إليها.

في اليوم المحدد، خرج النبي ﷺ ومعه الإمام علي عليه السلام (الذي يمثل نفسه)، والحسن والحسين (ابنائه)، وفاطمة الزهراء (المرأة التي تمثل نساء المؤمنين). وعندما رأى أسقف نجران هذا المشهد العظيم -خروج النبي ﷺ بأقرب الناس وأعزهم إليه واثقا بحقه- أدرك أن مباهلتة تعني الهلاك، فأثر الصلح ودفع الجزية. فصالحهم النبي ﷺ على أن يدفعوا ألفي حلة سنوياً، وكتب لهم بذلك عهداً يؤمنهم ويضمن حقوقها. وأخذ القوم الكتاب وانصرفوا^(١).

١ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ١، ص ١٦٩.

المبحث الرابع: السيِّدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

أولاً: موقفها من قضية الخلافة:

بعد انتقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الرفيق الأعلى، ترك وصياً واضحاً ومعلوماً لأُمَّته هو الإمام عليّ (عليه السلام)؛ حيث أكَّد على ذلك في عدد من مواقفهم، وكان أبرزها حادثة الغدير في طريق عودته من حجة الوداع. وقد عاشت السيدة الزهراء (عليها السلام) هذه الأزمة عن كثب، فوقفت إلى جانب زوجها الإمام عليّ (عليه السلام) ليس بدافع العلاقة الزوجية والرابطة العائلية فحسب، بل انطلاقاً من إدراكها العميق للمسؤولية الشرعية الملقاة على عاتقها. ويمكن تلخيص محاور معارضتها ومطالبتها في النقاط الآتية:

■ المطالبة العلنية والصريحة بالعمل بوصية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

وبيعة الإمام عليّ (عليه السلام).

■ محاولة تحفيز المسلمين والأنصار خاصّة، واستثارة همهم

للمطالبة بإرجاع الحقّ إلى صاحبه الشرعي. لكن محاولاتها

لم تلقَ آذاناً صاغية.

■ تحذير المسلمين من العواقب الوخيمة لقرارهم، وأنّ ما

تمسَّك به الإمام عليّ (عليه السلام) يمثل الحقّ المطلق.

ثانيًا: قضية فدك:

أ- التعريف بأرض فدك:

فدك هي أرض زراعية شاسعة تقع قرب خيبر، على بُعد يومين سيرًا من المدينة المنورة (يثرب). وقد أصبحت ملكًا خالصًا لرسول الله ﷺ سنة سبع للهجرة عن طريق الصلح، دون قتال (أي لم يُوجف عليها بخيل ولا ركاب)، وذلك عندما صالحه يهود فدك على أن يترك لهم نصف ثمارها مقابل بقائهم. واستنادًا إلى الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦]، فإن هذه الأرض كانت من حق الرسول ﷺ يتصرف بها كما يشاء، ولم تكن من غنائم الحرب التي تُوزع على المقاتلين.

ب- ملكية فدك للزهراء (عليها السلام):

لا خلاف بين المسلمين على أن رسول الله ﷺ قد وهب فدك لابنته السيدة الزهراء (عليها السلام) هبة (نحلة)، خاصة بعد نزول الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا

اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ [الحشر: ٧]؛ حيث رأى ﷺ في ذلك تطبيقاً لهذا النصّ. وقد ذكر المؤرّخون والمحدّثون أنّ السيدة الزهراء (عليها السلام) كانت تتولّى إدارة فذك وتصرّف في ريعها خلال حياة أبيها، كما تؤكّد ذلك رسالة الإمام علي (عليه السلام) إلى عامله على البصرة (عثمان بن حنيف) التي جاء فيها: "...بلى، كانت في أيدينا فذك من كل ما أظلمته السماء، فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين، ونعم الحكم الله..."^(١). وقد طالبت السيدة الزهراء (عليها السلام) باستعادة حقّها في فذك مراراً، وقدّمت شاهدين هما الإمام علي (عليه السلام) وأمّ أيمن، لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً.

١ - وهي من رسالة أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف. (راجع: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٠٨).

الفصل الرابع:

الإمام الحسن بن علي عليه السلام

يقدم هذا الفصل الإمام الحسن (عليه السلام) في لحظة اشتباك تاريخي بين معيار الرسالة ومنطق الدولة. لا يتعامل مع سيرته بوصفها أخباراً متفرقة، بل بوصفها بناءً متماسكاً: عبادةً وزهداً ومروءةً تُترجم في السياسة إلى ضبط للمال العام، ومعيارٍ للولاية، وحماية للجماعة من انهيارٍ داخلي. يتبع النص شروط الصلح ومقدماته كما رسمتها الوقائع لا الانطباعات؛ ويقرأ المعاهدة بما هي تدبيرٌ شرعيٌ لحفظ أصل الإمامة وإبطال شرعية الغلبة. هنا يصبح الحسن (عليه السلام) واضحاً قاعدة الحكم العادل: سلطةٌ مقيّدة بالكتاب والسنة، ومسؤوليةٌ خلقيةٌ لا تسمح بتحويل الأمة إلى وقودٍ لصراع أهلي. يوضح هذا الإطار أن ما جرى ليس تراجعاً عن المبدأ، بل صوناً للمبدأ من الانكسار.

المبحث الأول: محطات من سيرته العطرة

أولاً: نظرة على حياته المباركة:

وُلد الإمام الحسن (عليه السلام) في ليلة النصف من شهر رمضان المبارك، في السنة الثالثة للهجرة بالمدينة المنورة^(١). ونشأ في أحضان أسرةٍ كريمة؛

١ - راجع: ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ٢٨؛ الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ص ١٨٧؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٢، ص ١٠؛ ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٣٢٨.

حيث كان والده هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، ووالدته هي سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء ﷺ، فتربى في بيتهما على مكارم الأخلاق والقيم الإسلامية الأصيلة، وتلقى أفضل منهج في التربية والقُدوة الحسنة.

وتقلد مَهَام الإمامة بعد استشهاد والده أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ. استمرت فترة إمامته قرابة عشر سنوات، بدأت بمبايعة له بالخلافة في الحادي والعشرين من شهر رمضان لعام ٤٠ هـ، وانتهت باستشهاده في سنة ٥٠ هـ. وقد دامت فترة حكمه الفعلية نحو ثمانية أشهر فقط، ليوصي بعدها بالإمامة لأخيه الإمام الحسين ﷺ^(١).

وعُرف الإمام الحسن ﷺ بعدة ألقاب منها: الحجة، والكافي، والسبط، والولي، وكانت كنيته أبو محمد.

أمّا فيما يخصّ ذريّته، فقد رُزق بخمسة عشر ولدًا بين ذكر وأنثى، وهم: (زيد) وأختاه (أم الحسن) و(أم الحسين) وأُمُّهم أم بشير بنت أبي مسعود الخزرجية، و(الحسن المثنى) وأُمُّه خولة بنت منظور الفزارية، و(عمر) و(القاسم) و(عبد الله) وأُمُّهم أم ولد، و(عبد الرحمن) وأُمُّه أم ولد، و(الحسين) الملقَّب بالأثرم و(طلحة) و(فاطمة) وأُمُّهم أم

إسحاق بنت طلحة التيمي)، مضافاً إلى (أمّ عبد الله)، و(فاطمة)، و(أمّ سلمة)، و(رقية) (من أمّهات شتّى)^(١).

ومن أبرز رواد مدرسته وأصحابه: (أشعث بن سوار)، و(سليم بن قيس الهلالي)، و(عبد الله بن جعفر بن أبي طالب)، و(عمرو بن قيس المشريقي)، و(المسيّب بن نجبة)، و(مسعود مولى أبي وائل) المكنّى بأبي رزين^(٢).

وافاه الأجل شهيداً في السابع من شهر صفر سنة ٥٠ هـ، عن عمر ناهز السابعة والأربعين، بعد أن دبّرت له زوجته (جعدة بنت الأشعث) مؤامرة دسّ السمّ له بتدبير من (معاوية بن أبي سفيان). ودفن عليه في مقبرة البقيع بالمدينة المنورة.

ثانياً: عبادته وزهده:

تميّز الإمام الحسن عليه السلام بأنّه كان الأكثر عبادةً وزهداً وفضلاً بين أهل زمانه، وكان أشبه الناس برسول الله ﷺ^(٣). فقد عُرف عنه أنّه كان يحجّ

١ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٢٠.

٢ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ٩٣.

٣ - راجع: محمد بن عيسى الترمذي: صحيح الترمذي، ج ٥، ص ٦٥٩؛ محمد بن اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، ج ٥، ص ٣٣.

إلى بيت الله الحرام ماشياً على قدميه. وكانت مشاعره جياشةً عند تذكّر الآخرة؛ فكان يبكي عند ذكر الموت والقبر والبعث، وعند تذكّر المرور على الصراط والعرض على الله تعالى، حتى إنّه كان يصرخ صرخةً يغشى عليه منها خوفاً من الله.

وكانت مشاعر الخوف والرجاء تتجاذبه عند ذكر الجنة والنار، فيضطرب اضطراب الشخص الذي لدغته الأفعى، داعياً الله أن يدخله الجنة ومستعيذاً به من النار. ولم يكن يسمع نداء الله في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا ردّ بإجلال: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ». وكان دائم الذكر لله -تعالى- في جميع أحواله، مضافاً إلى كونه أصدق الناس في حديثه^(١).

أمّا في صلاته، فكانت له هيئةٌ خاصّة تعبّر عن خشيته العميقة من الله؛ فكانت فرائضه ترتعش وهو قائم بين يدي ربّه، وإذا توضّأ ارتعدت مفاصله واصفرّ لونه. وعندما سُئل عن سبب ذلك، أجاب بأنّه حقٌّ واجبٌ على كل من يقف أمام عرش الرحمن أن يظهر عليه أثر الخشوع والهيبة.

وكان له دعاء خاصّ يدعو به عند دخوله المسجد؛ حيث يرفع رأسه

ويقول: «إلهي، ضيفك ببابك، يا محسن قد أذاك المسيء، فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم»^(١).

ثالثاً: مكارم أخلاقه:

جسد الإمام الحسن (عليه السلام) قيم الإسلام السامية ومثله العليا في تعامله مع الآخرين، فكان مثلاً يُحتذى به في الخلق الحسن. وقد وردت روايات تُظهر سمو أخلاقه، منها أنَّ جارية قدّمت إليه باقةً من الريحان تحيةً له، فأعتقها في الحال تقريباً إلى الله. وعندما استُفسر عن سبب ذلك، استشهد بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ [البقرة: ٨٦]، وكان يعتاقها هو الردّ الأحسن على تحيتها^(٢). كما عُرف (عليه السلام) بالحلم والتواضع الجَمِّ، ويتجلّى ذلك في موقفٍ له مع رجلٍ من أهل الشام؛ حيث قام الرجل بسبّه ولعنه وهو على دابّته، فلم يرد الإمام عليه بالمثل، بل انتظر حتى أنهى كلامه. بعدها، توجه إليه الإمام مبتسماً وحيّاه بكل أدب، قائلاً له: «أيها الشيخ، أظنك غريباً، ولعلّك شبّهت، فلو استعبتنا أعتبنك، ولو سألتنا أعطيانك، ولو

١ - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ٧.

٢ - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ١٨.

استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حرّكت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك، كان أعود عليك، لأنّ لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً». فلما سمع الرجل هذا الكلام الطيّب، انقلب موقفه تماماً وأخذ يبكي، ثمّ قال: «أشهد أنك خليفة الله في أرضه، والله أعلم حيث يجعل رسالته. لقد كنت أنت وأبوك أبغض الخلق إليّ، وأصبحت الآن أحبّ الخلق إلى قلبي». فنزل ضيفاً على الإمام حتى وقت رحيله، وتحوّل إلى محبٍّ مخلصٍ لأهل البيت ﺍﻟﻪﻳﻤﺎﺱ^(١).

المبحث الثاني: سيرة الإمام الحسن ﺍﻟﻪﻳﻤﺎﺱ الجهادية

يُجمع المؤرّخون على أنّ الإمام الحسن ﺍﻟﻪﻳﻤﺎﺱ كان مثالاً للشجاعة والهمّة العالية، فلم يخش في الحقّ لومة لائم، ووقف بكلّ ثبات في مواجهة التحديات والتعقيدات التي واجهته، وبذل كلّ ما في وسعه

١ - راجع: محمد بن يزيد المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج ١، ص ٣٢٥؛ محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٣٤٤.

من أجل نصرته دين الإسلام ورفع رايته، حيث كان مستعداً دوماً لتقديم أغلى التضحيات في سبيل الله.

أولاً: دوره في معركة الجمل:

برزت بطولات الإمام الحسن (عليه السلام) جليّة في معركة الجمل؛ حيث خاض غمار القتال في الصفوف الأولى إلى جانب والده الإمام علي (عليه السلام)^(١). وقبل نشوب المعركة، أوفده أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) مع الصحابي الجليل (عمار بن ياسر)، وعددٍ من أنصاره- إلى الكوفة لتحريض أهلها وحثهم على القتال من أجل الإسلام. وعلى الرغم من وجود معارضة لحكم الإمام آنذاك، لكنَّ الإمام الحسن (عليه السلام) نجح في حشد قوّة عسكريّة كبيرة بلغت أكثر من تسعة آلاف مقاتل، وأرسلهم إلى ميدان المعركة^(٢).

ثانياً: دوره في معركة صفّين:

كان للإمام الحسن (عليه السلام) دور محوري وفعّال أيضاً في معركة صفّين؛

١ - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ٢١.

٢ - راجع: أحمد بن داوود الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٤٤-١٤٥؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٢٣١.

حيث تولَّى مهمّة حشد الجنود وتنظيمهم وتوجيههم لقتال جيش (معاوية). وكان يحثّ أهل الكوفة باستمرار على الانضمام إلى جيش الإمام علي عليه السلام للقضاء على أعداء الإسلام والخارجين عليه^(١). وقد بلغ من إصراره على الجهاد والتضحية في سبيل المبادئ أنّ تدخل أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام طالباً من مقرّبيه أن يبعده وشقيقه الإمام الحسين عليه السلام عن خطوط المواجهة المباشرة، حرصاً على حياتهما، وخوفاً من انقطاع نسل الرسول محمد ﷺ بهما^(٢).

المبحث الثالث: الإمام الحسن عليه السلام واستلام دفة الحكم

شكّلت الظروف المعقّدة والملبّئة بالتحديات التي عاشها الإمام الحسن المجتبي عليه السلام حاجزاً يجعل من سبر غور حياته ودراسة مواقفه مهمة تستلزم قدراً مهماً وعالياً من الموضوعيّة والتدقيق والإنصاف. فقد عانى الحسن عليه السلام من ظلم مزدوج: ظلم من معاصريه في زمانه، وظلم آخر طاله في بعض سير ومدونات التاريخ الإسلامي، سواءً على صعيد تفسير مسيرته

١ - نصر بن مزاحم المنقري: وقعة صفين، ص ١١٣.

٢ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٢٥، الخطبة ٢٠٠.

السياسية الحكيمة التي توجت بتوقيعه اتفاقية الصلح مع (معاوية)، أم على مستوى ما أُلصق به من تهمة باطلة لا تليق بمقامه السامي، كمسألة تعدد الزوجات، وما شابهها من اتهامات تُلوح فيها تلميحات النظام الأموي ورواياته المغلوطة والمنحولة. وفي خضم هذه الظروف، أوصى به الإمام علي (عليه السلام) قبل يومين من استشهاده قائلاً: ”يا بُني! أمرني رسول الله ﷺ أن أوصي إليك وأن أدفع إليك كتبي وسلاحي، كما أوصى إلي رسول الله ﷺ ودفع إلي كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن توصي بها إلى أخيك الحسين (عليه السلام)“^(١).

وبعد استشهاد أمير المؤمنين (عليه السلام)، خطب الإمام الحسن (عليه السلام) خطبة قال فيها: ”أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله ﷺ أنا ابن البشير، أنا ابن النذير... إلخ“^(٢). وبعد ذلك قام (ابن عباس) ودعا الناس إلى بيعته فاستجابوا وبايعوه قائلين ”ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة“^(٣). وينقل (ابن أبي الحديد) أنه: ”كان عدد المبايعين له أكثر من أربعين ألفاً“^(٤).

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٩٧.

٢ - أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبين، ص ٣٣.

٣ - أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبين، ص ٣٣.

٤ - راجع: يوسف بن عبد الله: الاستيعاب، ج ١، ص ٣٨٥.

المبحث الرابع: صلح الإمام الحسن عليه السلام

أولاً: دوافع الصلح وأسبابه:

لفهم دوافع الصلح الذي عقده الإمام الحسن عليه السلام، والنتائج المترتبة عليه بشكل واضح، لا بدّ من الرجوع إلى صفحات التاريخ ودراسة هذا الحدث من خلال الوثائق التاريخية الموثوقة. والحقيقة الجوهرية التي يجب التأكيد عليها هي أنّ الإمام الحسن عليه السلام لم يُبرم الصلح باختيار حرٍّ ومطلق، بل كان مضطراً إليه نتيجة ضغوط هائلة. لقد تكاثفت مجموعة من العوامل والظروف القاسية لخلق واقع لا خيار فيه سوى قبول الصلح؛ حيث كانت الأوضاع الدّولية المحيطة بالدولة الإسلامية، مضافاً إلى الوضع الداخلي المتردّي في العراق وفي معسكر الإمام نفسه، جميعها تدعو إلى إيقاف الحرب وتجنّب استمرارها. ويمكن إرجاع أسباب الصلح إلى عاملين رئيسين:

١- الوضع الداخلي (خذلان الرأي العام):

خلّفت الحروب المتعاقبة (الجمل وصفين والنهروان)، مضافاً إلى المناوشات المستمرة على الحدود بين جيش (معاوية) ومناطق العراق والحجاز واليمن بعد حادثة التحكيم، شعوراً عميقاً بالإرهاق والرغبة

في السلام لدى أنصار الإمام علي عليه السلام. فقد قضوا خمس سنوات كاملة في سلسلة من الحروب لم ينتهوا من واحدة إلا ليدخلوا في أخرى. وكانت مأساة هذه الحروب أنَّهم كانوا يواجهون في ساحات القتال أبناء عشائريهم وإخوانهم السابقين، الذين انضمُّوا إلى معسكر (معاوية)^(١). وظهرت رغبة الناس في السلم وكرهيتهم للقتال جليًّا في ثقلهم عن التصديِّ لهجمات القوات الشاميَّة على حدودهم، وتقاعسهم عن الاستجابة لدعوات الإمام علي عليه السلام للخروج مرة أخرى لقتال (معاوية)^(٢).

وبعد استشهاد الإمام علي عليه السلام ومبايعة الإمام الحسن عليه السلام بالخلافة، تفاقمت هذه الظاهرة بشكل ملفت وحادّ، خاصَّة عندما دعاهم الإمام للاستعداد لقتال الشام؛ حيث كانت استجابة الناس بطيئة وضعيفة للغاية. وعندما بلغه نبأ تقدُّم جيش (معاوية) نحو الكوفة، جمع الإمام

١ - قتل في حرب الجمل أكثر من ثلاثين ألفاً. (راجع: أحمد بن إسحاق اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٧٢). وقتل في حرب النهروان قرابة أربعة آلاف من الخوارج. (راجع: أحمد بن إسحاق اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٨٢). وكانت خسائر الطرفين في صفين قد بلغت مئة وعشرة آلاف قتيل. (راجع: علي بن حسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٣٩٣).

٢ - محمد مهدي شمس الدين: ثورة الحسين في الوجدان الشعبي، ص.ص ١٣٨-١٤١.

الحسن ﷺ الناس في المسجد، وألقى خطبةً حماسيةً مليئةً بالتحدُّث وبالحثّ على الجهاد، لكن الجميع صمتوا بعد انتهائه، ولم يستجب له أحدٌ، أو يؤيِّده حتى بكلمة واحدة. يوضِّحُ هذا الموقف حجم الخذلان والفتور الذي أصاب أهل العراق؛ حيث انطفأت في نفوسهم جذوة الحماس، ولم يعودوا مستعدِّين لخوض غمار الحرب معه!

وبعد جهود كبيرة من بعض كبار أصحاب الإمام وخطبهم الحاتّة على القتال، تحرّك الإمام الحسن ﷺ مع مجموعة قليلة من الكوفيين إلى منطقة «النخيلة» وأقام معسكره هناك. وبعد انتظار دام عشرة أيام لوصول التعزيزات، لم يجتمع حوله إلا أربعة آلاف مقاتل فقط، ما اضطرّه إلى عودة إلى الكوفة لمحاولة حشد مزيداً من القوَّات مرّةً أخرى^(١).

٢- جيشٌ متهالك وغير متماسك:

انعكست حالة الانقسام العقديّ والتباين الفكري السائد في المجتمع على تكوين جيش الإمام الحسن ﷺ، فتحوّل هذا الجيش إلى قوّة عسكريّة تفتقر إلى الوحدة والتماسك الداخلي. وبالتالي، كان من المستحيل الاعتماد على مثل هذا الجيش لمواجهة عدوّ خارجيّ

قويّ ومتماسك مثل جيش (معاوية).

ويجمع المؤرّخون على أنّ الإمام (عليه السلام) قام بتجهيز الجيش والاستعداد للقتال بالفعل، ولكنّ انعدام الوحدة والانقسامات داخل صفوف جيشه من ناحية، وتفكّكه قبل بدء القتال بسبب مؤامرات (معاوية) الخبيثة وخذلان الناس من ناحية أخرى، أجبراه على إيقاف الحرب والموافقة على الصلح. وهكذا، بدأ الإمام تحرّكه بإعلان الحرب وتجهيز الجيش، لكنّه انتهى إلى قبول الهدنة، وهو يدرك تمامًا طبيعة الظروف الصعبة التي يمرّ بها المجتمع الإسلامي وتهمه فيه مصالح الأئمة العُليا فوق كلّ اعتبار. ودليلاً على ذلك، رُوي عن الإمام الحسن (عليه السلام) أنّه عندما سأله (أبو سعيد) عن سبب مصالحته لـ (معاوية) مع علمه بأنّ الحقّ له دونه، وأنّ (معاوية) ضالٌّ وباغٍ، أجاب (عليه السلام): «لقد سَخَطْتُم عليّ بسبب جهلكم بالحكمة من وراء هذا الصلح، ولولا أنّي فعلتُ ذلك لما بقي من شيعتنا على وجه الأرض أحدٌ إلّا قُتل»^(١).

ثانيًا: الصلحُ وأهداف الإمام الحسن (عليه السلام):

إزاء الظروف الصعبة والملابسات الحرجة التي أحاطت بالأئمة،

١ - محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): علل الشرائع، ج ١، ص ٢١١.

والتي أُشير إليها سابقاً بتفصيل، رأى الإمام الحسن (عليه السلام) أنَّ مواصلة الحرب ستعارضُ مع المصالح العليا للمسلمين وتهددُ كيان الإسلام نفسه^(١). لذا، اختار الدخول في عملية صلح اضطراراً، ساعياً بكلّ جهده إلى تحقيق أهدافه السامية والمبادئ المقدسة عبر هذه الوسيلة السلمية، مستفيداً من الظرف إلى أقصى حد ممكن.

ومن جهة أخرى، ولأنَّ (معاوية) كان مستعداً لتقديم أي تنازلات أو وعود مقابل إحلال السلام وضمان تسلّمه للسلطة، حتى أنّه أرسل إلى الإمام صحيفة بيضاء مختومة وقال له: "اشتراط في هذه الصحيفة ما شئت فهي لك"، استغلَّ الإمام (عليه السلام) هذه الفرصة فصاغ معاهدة صلح شملت جميع القضايا الجوهرية والحساسة التي تمثل مبادئه، ملزماً معاوية بالالتزام بها.

ويمكن إيجاز نصوص المعاهدة في خمسة بنود رئيسة هي:

١. تسليمُ الخلافة: تسليم أمر الخلافة لـ (معاوية) على أن يحكم

بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٢. العهدُ من بعده: أن تكون الخلافة بعد (معاوية) للإمام

١ - راجع: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٠٥؛ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ١، ص ٣٧١؛ محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٦، ص ٩٣.

الحسن - ثم لأخيه الحسين (عليه السلام) - بعد وفاته، مع منع (معاوية) من عهدها لأحد.

٣. الكفّ عن سبّ الإمام عليّ (عليه السلام): والتوقّف عن الدعاء عليه في الصلاة (القنوت)، وذكره فقط بخير.

٤. الجانبُ المالي والعطاء: تخصيص خمسة ملايين درهم من بيت مال الكوفة للإمام الحسن (عليه السلام)، وتفضيل بني هاشم في العطاء والهبات على بني أميّة، ودفع مليون درهم تعويضاً لأبناء شهداء معركتي الجمل وصفّين، على أن يؤخذ هذا المبلغ من خراج "دار أبجرّد"^(١).

٥. الأمانُ العام: تأمين الناس جميعاً في كلّ أرجاء الدولة (الشام،

١ - كانت «دار أبجرّد» إحدى المدن الخمس الرئيسية في ولاية فارس التاريخية. ويشير الدليل التاريخي إلى أنّ سبب اختيار خراجها، قد يعود إلى أنّ سكانها قد أعلنوا استسلامهم الطوعي للجيش الإسلامي دون قتال، ودخلوا في صلح معه. وطبقاً للتعاليم الإسلامية، فإنّ خراج هذه الأرض (أي إيراداتها الضريبية) يُخصّص منفعةً لرسول الله ﷺ وأهل بيته الكرام، مضافاً إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل. ومن هذا المنطلق، حرّص الإمام الحسن (عليه السلام) على أن يُدفع التعويض لعائلات شهداء معركتي الجمل وصفّين من خراج هذه المدينة تحديداً؛ وذلك لسببين: أولاً، لأنّ عائلاتها كانت من حق الإمام شرعاً يمتلك التصرف بها، وثانياً، لأنّ أبناء تلك العائلات المنكوبة كانوا من الفئات المستحقة لأموال الخراج أصلاً بحكم الشرع. (راجع: محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ١٠).

والعراق، والحجاز، واليمن) على أرواحهم وأموالهم، والعنفو عمّا مضى، وعدم ملاحقة شيعة الإمام علي (عليه السلام) أو التعرض لهم بأي سوء، وضمان أمانهم وأمان أسرهم، ووصول كلّ ذي حقّ حقّه، مع التعهّد بعدم إيذاء الإمام الحسن (عليه السلام) أو الإمام الحسين (عليه السلام) أو أي من أهل بيت الرسول ﷺ سرّاً أو علانية. فكتب (معاوية) هذه البنود بخطّه وختمها، وأقسم على الالتزام بها، وأشهد عليها قادة أهل الشام وأعيانهم^(١).

ثالثاً: نقض (معاوية) لبنود الصلح:

بعد إبرام المعاهدة، دخل الطرفان الكوفة بجيوشهما واجتمعا في المسجد الكبير؛ حيث كان الناس ينتظرون سماع خطبة من كلا القائدين تؤكّد على بنود الصلح علناً لتطمئن قلوبهم. لكن (معاوية) -عند صعوده المنبر- لم يكتفِ بعدم الوفاء بهذا التوقّع، بل صرّح باستخفاف قائلاً: «يا أهل الكوفة، أتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، وقد علمت أنكم تصلون وتركون وتحجون؟، ولكني قاتلتكم لأتأمر

١ - لمزيد من الاطلاع على تفاصيل معاهدة الصلح، راجع: راضي آل ياسين: صلح الحسن، ص. ٢٥٩-٢٦١.

عليكم وألي رقابكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون! ألا إنَّ كلَّ دم أصيبَ في هذه الفتنة مطلول.. ثمَّ أعلنَ صراحة: وكلَّ شرطٍ شرطته فتحت قدمي هاتين! ولا يصلحُ الناسَ إلا ثلاث: إخراجُ العطاء عند محلّه، وأقفالُ الجنود لوقتها، وغزو العدوِّ في داره، فإنَّ لم تغزوهم غزوكم...»^(١)، مُعلنًا بذلك عن نقضه العلني لكلِّ العهود والمواثيق. وبدلاً من التراجع عن سياسته، انتهجَ (معاوية) نهجاً أكثر قسوة وطغياناً؛ حيث:

- أشاع بدعة سبِّ أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) على المنابر بشكل أوسع.
- ضيقَ الخناق على شيعة الإمام علي (عليه السلام) وخاصة الشخصيات البارزة منهم.
- قامَ بقتل شخصيات كبيرة مثل (حجر بن عدي) وأصحابه.
- تصاعدتُ وتيرةُ القتل والتنكيل والاضطهاد إلى درجة جعلت أغلب الشيعة إمّا مسجونين أو مطاردين أو مشرّدين، يعيشون في أجواء من الرعب والخوف الدائم.

١ - راجع: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص١٥؛ السيد عبد الحسين شرف الدين: صلح الحسن، ص٢٨٥.

الفصل الخامس:

الإمام الحسين بن علي عليه السلام

ينعقد هذا الفصل على معنى مركزي: الإمامة ميزانُ الحقِّ في الفضاء العام. تتقدَّم سيرةُ الحسين (عليه السلام) من المولد إلى الشهادة لتكشف منطق النهضة: نقضُ مُلكٍ جائر، واستعادةُ تعريفٍ قرآنيٍّ للأمر بالمعروف باعتباره تحريراً لإرادةِ الأُمَّة من هيمنةِ الخوف والمصلحة. يُبين الفصل ملامح العهد الأموي: تحويلُ الخلافة إلى ملكٍ عضوض، وسياسةُ قمعٍ وتجويع، وتزييفُ للوعي، ثم يضع خيارات الحسين (عليه السلام) في سياقها الاستراتيجي لينتهي إلى كربلاء حدثاً مؤسساً يُعيد بناء الضمير العام ومعايير الشرعيَّة. ليست الوقائع غاية السرد، وإنمَّا مدخلاً لقراءةٍ خُلقيَّةٍ للسياسة تجعل الشهادة حُجَّةً دائمة على التاريخ.

المبحث الأول: سيرة مشرقة

أولاً: لمحة تاريخية:

وُلِدَ الإمامُ الحسين (عليه السلام) في الثالث من شعبان في السنة الرابعة للهجرة في المدينة المنورة. أبوه هو أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وأمُّه سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (عليها السلام). نشأ في كنف والديه في بيئة مشبعة بالإيمان والتقوى، وتلقَّى تربية مثلى على يديهما. تولى الإمام الحسين (عليه السلام) منصب الإمامة بعد استشهاد أخيه الإمام

الحسن (عليه السلام)، واستمرت إمامته قرابة عشر سنوات.

ومن الألقاب التي عُرفَ بها: السيّد، والطيّب، والوفي، والمبارك، والنافع، والدليل على ذات الله، والسبط، والتابع لمرضاة الله. وكنيته هي أبو عبد الله.

رُزقَ الإمام الحسين (عليه السلام) بستّة أولاد هم^(١):

■ علي الأكبر (زين العابدين) وكنيته أبو محمّد، وأمُّه (شاه زنان) بنت كسرى يزدرج.

■ علي الأوسط الذي استشهد في كربلاء، وأمُّه (ليلى بنت أبي مرّة الثقفيّة).

■ جعفر الذي تُوفيّ في حياة أبيه، وأمُّه امرأة من قبيلة قضاة.

■ عبد الله (علي الأصغر) الرضيع.

■ سكينّة وأمُّها (الرباب بنت امرئ القيس)، وهي أمّ عبد الله.

■ فاطمة وأمُّها (أمّ إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله).

وكان من بين أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) ثلثة مؤمنة استشهدت معه في كربلاء، ومنهم: (أنس بن الحارث الكاهلي)، و(جعيد الهمداني)، و(سيف بن مالك)، و(سوار بن المنعم بن الحابس)، و(ضرغامه بن

مالك)، و(قيس بن مسهر الصيداوي)^(١).

استشهد عليه السلام ظهر يوم العاشر من محرم (عاشوراء) سنة ٦١ للهجرة في أرض كربلاء بالعراق، وهو مظلومٌ ظمآنٌ صبورٌ محتسبٌ، وكان عمره آنذاك ٥٨ عاماً. ودفن في المكان الذي أصبح يعرف بكربلاء المقدسة.

ثانياً: مكارم أخلاقه وعبادته

اتسم الإمام عليه السلام بأرفع درجات الفضائل والأخلاق، وكان حريصاً على خدمة الناس ومساعدتهم، كما تجلّى في موقفه مع ذلك الأعرابي الذي عجزَ عن دفع دية كانت عليه، حيث تحمّل الإمام عنه دفعها^(٢).

وكان الحسين عليه السلام إذا توضأ يتغير لونه، وترتعد فرائضه؛ وعندما سُئل عن سبب ذلك أجاب: «حق لمن وقف بين يدي الملك الجبار أن يصفر لونه وترتعد مفاصله». وسأله رجل عن عظيم خوفه من ربه، فقال: «لا يأمن يوم القيامة إلا من خاف الله في الدنيا»^(٣).

١ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ٩٩.

٢ - عبد الله البحراني: العوالم (الإمام الحسين)، ص ٦١.

٣ - ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٣، ص ٢٢٥.

ثالثاً: مكانة الإمام الحسين عليه السلام وفضله

لقد امتاز الإمام الحسين عليه السلام بمكانة خاصة عند رسول الله ﷺ حتى قال فيه جدّه رسول الله ﷺ: "حسين منّي وأنا من حسين أحبّ الله من أحبّ حسيناً. حسين سبط من الأسباط"^(١).

وكان الناس يهابون الإمام الحسين عليه السلام، فقد روى (إبراهيم بن الرافعي)، عن أبيه، عن جدّه قال: «رأيت الحسن والحسين عليهما السلام يمشيان إلى الحجّ، فلم يمرّاً براكب إلا نزل يمشي، فثقل ذلك على بعضهم فقالوا لسعد بن أبي وقاص: قد ثقل علينا المشي، ولا نستحسن أن نركب وهذان السيدان يمشيان، فقال سعد للحسن عليه السلام: يا أبا محمّد، إنّ المشي قد ثقل على جماعة ممّن معك، والناس إذا رأوكما تمشيان لم تطب أنفسهم أن يركبوا، فلو ركبتما، فقال الحسن عليه السلام: "لا نركب، قد جعلنا على أنفسنا المشي إلى بيت الله الحرام على أقدامنا، ولكنّا نتكبّ الطريق"، فأخذاً جانباً من الناس"^(٢).

١ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ١٢٧.

٢ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ١٢٩.

المبحث الثاني: ملامحُ عصر الإمام الحسين (عليه السلام)

سعى (معاوية بن أبي سفيان) إلى إحياء قِيمِ الجاهليَّة الأولى داخل المجتمع الإسلامي، لكن تحت غطاء الإسلام ولُقِّبَ "أمير المؤمنين"؛ ولتحقيق هذا الغرض، انتهجَ سلسلة من السياسات تركت آثاراً عميقة وسلبيةً على الإسلام والمسلمين، أصبحت سماتٍ بارزةً لتلك الحقبة التاريخية، وكان من أبرزها:

أولاً: تحويل نظام الحكم من الخلافة إلى الملك العضوض:
عندما تولَّى (معاوية) حكم الشام، مارس سلطته فيها باعتباره ملكاً مطلقاً من النواحي كلها: العسكرية، والسياسية، والاقتصادية، وحتى الاجتماعية، ومن دون أن يجد أيَّ رادع يحدُّ من تصرفاته؛ حيث قام بنفي عدد من القبائل العربية والمعارضين له، واستخدم المال العام (بصفته مالاً سياسياً) بلا رقيب أو حسيب. وتجلَّى توجهه هذا بوضوح في خطابه لأهل الكوفة حين قال مستهزئاً: «يا أهل الكوفة، أتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، وقد علمتُ أنكم تصلون وتركون وتحجون؟ ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وأليَّ رقابكم»^(١).

ثانيًا: سياسة الإرهاب والتجويع:

أشاعَ (معاوية) سياسةَ القمع والتصفية الجسدية لكلِّ معارضٍ لحكمه. فيها هو أحد قاداته العسكريين، (سفيان بن عوف الغامدي)، يروي توجيهات (معاوية) له قائلاً: «فاقتل كلَّ من لقيته ممن ليسَ على مثل رأيك، وأخرب كل ما مررتَ به من القرى، وأحرب الأموال؛ فإنَّ حربَ الأموال شبيهٌ بالقتل وهو أوجع للقلب»^(١). ولم تكن هذه الحملاتُ مقصورةً على منطقة واحدة بل امتدَّت إلى مختلف البلدان الإسلامية؛ حيث أمر (معاوية) قائده (الضحاك بن قيس الفهري) بالتوجُّه إلى الكوفة لسفك الدماء وقتل الناس^(٢).

ويصورُ الإمام محمد الباقر ﷺ بشاعة تلك الفترة بقوله: «فقتلت شيعتنا بكلِّ بلدة، وقُطعت الأيدي والأرجل على الظنَّة، وكان من يُذكر بحبِّنا والانقطاع إلينا سُجن، أو نُهب ماله أو هُدِّمت داره»^(٣).

أما سياسة التجويع، فتمثَّلت في محو أسماء محبِّي أهل البيت ﷺ وشيعتهم من دواوين العطاء، وإسقاط رواتبهم وأرزاقهم. فقد أرسل (معاوية) إلى عمَّاله يعلمهم بهذه السياسة قائلاً: «انظروا من قامت عليه

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٢، ص ٨٦.

٢ - إبراهيم بن محمد الكوفي: الغارات، ج ٢، ص ٤٢١.

٣ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٣.

البيّنة أنّه يحبُّ عليّاً وأهل بيته فأمحُوهُ من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه»^(١).

المبحث الثالث: خطوات الإمام الحسين (عليه السلام) في مواجهة سياسة (معاوية)

انتهج الإمام الحسين (عليه السلام) في مواجهة هذه الخطوات منهاجاً يقوِّض هذا البناء من أساسه:

أولاً: مواجهة (معاوية) ورفض البيعة لـ (يزيد):

أرسل الإمام الحسين (عليه السلام) رسالة مطوّلة إلى (معاوية)، حدّره فيها من مغبة أفعاله، وجاء في جزء منها: «تحاول أن تزيّن يزيد في أعين الناس وكأنّك تصف شخصاً لا يعرفونه... لكن دع عنك هذه المحاولات، فليس في ذلك ما ينجيك من حساب الله وعقابه، والذي تحمّله من أوزار الناس سيزيد من وزرك. فوالله ما زلت تسير في طريق الباطل والجور والظلم حتى امتلأت مكيال إثمك، وما يفصلك عن الموت إلا

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٥.

طرفة عين، وسوف تُقدم على الله بعملك المحفوظ في يوم مشهود، ولن يكون هناك مهرب أو مفر^(١).

ثانيًا: كشف جرائم (معاوية):

ردَّ الإمام الحسين ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻲ برسالة أخرى كان الهدف منها فضح ممارسات النظام الأموي بقيادة (معاوية)، وتضمنت النقاط الرئيسة الآتية:

١. توصيف حزب معاوية ومعسكره بـ «حزب الظلمة».

٢. تذكير (معاوية) بجرائمه التي أدَّت إلى إراقة دماء عدد من الشخصيات الصالحة والأبرياء، مثل الصحابي (حجر بن عدي) و(عمرو بن الحمق الخزاعي) رفيق رسول الله ﷺ.

٣. وصف فترة حكم (معاوية) بأنَّها «أعظم فتنة» مرَّت على الأُمَّة الإسلاميَّة.

٤. تذكيره بنقضه لبنود معاهدة الصلح التي عقدها مع الإمام الحسن ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻲ

٥. تحذيره وتهديده بعقاب الله، كما في نصِّ الرسالة: «فاستعد يا معاوية للقصاص، وتيقَّن بأنَّك محاسب، واعلم أنَّ لله

كتابًا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولن ينسى
الله كيف أخذت الناس بالظنّة، وقتلت أوليائه بتهم باطلة،
ونفيتهم من ديارهم إلى منفى الغربه^(١).

المبحث الرابع: الخيارات الاستراتيجية للإمام الحسين (عليه السلام)

واجه الإمام (عليه السلام) عدّة خيارات يمكن أن يسلكها:

- الخيار الأول: مبايعة (يزيد بن معاوية).
 - الخيار الثاني: رفض البيعة والبقاء في مكّة أو المدينة.
 - الخيار الثالث: رفض البيعة والهجرة إلى بلد إسلامي آخر
آمن، مثل اليمن.
 - الخيار الرابع: رفض البيعة والاستجابة لنداءات أنصاره
والتوجّه إلى العراق لمواجهة مصير الاستشهاد في كربلاء.
- وكان اختيار الإمام للخيار الرابع (الخروج إلى كربلاء) نابعًا من
تحليل دقيق للواقع المرير الذي كانت تعيشه الأمّة، ومن خلال هذا

١ - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٣٢٧.

الموقف استطاع أن:

- يهزّ ضمير الأمة ويوقظه من سباته.
- يبين للأمة قيمة الإسلام وكرامته.
- يُعيد للأمة إرادة المقاومة والمواجهة.
- يوضح أن صلح الإمام الحسن (عليه السلام) لم يكن استسلاماً، بل كان خطوةً تكتيكيةً تمهيديةً لثورة الإمام الحسين (عليه السلام).

المبحث الخامس: دوافع الرحيل عن المدينة المنورة

آثر الإمام الحسين (عليه السلام) مغادرة المدينة المنورة بعد أن أيقن أن السلطة الحاكمة قد حاصرت أمنه فيها. وكان يتوقع أن تفرض عليه مواجهة عسكرية مفتوحة داخل أسوار المدينة مع قوات الأمويين؛ وذلك نتيجةً لتهوّر (يزيد بن معاوية) وتشدّده في أوامره إلى والي المدينة، (الوليد بن عتبة)، بقتل الإمام إذا هو امتنع عن مبايعته. وقد بلغ (يزيد) أن الحسين (عليه السلام) لا يُظهر طاعةً ولا بيعه؛ (حيث جاء هذا عندما أرسل الوليد إلى يزيد يخبره بهذا)^(١)، فما كان منه إلا أن بعث برسالة غاضبة إلى واليه

١ - أحمد بن أعثم الكوفي: الفتوح، ج ٥، ص ١٨.

يَحْتَهُ فيها على أخذ البيعة قسراً ويأمره صراحةً بإرسال رأس الحسين مقابل وعود بالمال والمناصب.

وحتى لو تردّد الوالي في تنفيذ الأمر احتراماً لمكانة الإمام (عليه السلام)^(١)، فإنّ النظام الأموي كان ليجد حتماً من ينقذ خطّته من عناصر أخرى داخل المدينة. وبدلاً من الشروع في مواجهة صريحة -كان من المحتمل أن تلجأ السلطة إلى اغتيال الإمام سرّاً، ما يعني إجهاض ثورته قبل أن تبدأ. ومن هنا، كان قرار الخروج استباقاً لهذه المخططات واحتياطاً من عنف السلطة، بهدف نقل المعركة إلى ساحة يختارها هو بنفسه، يحافظ فيها على إشعال شعلة ثورته ويحول دون إخمادها في مهدها، ليكون خروجه تحريراً للثورة من حصار التعتيم الأموي^(٢).

المبحث السادس: إقامة الإمام الحسين (عليه السلام) في مكّة المكرمة

غادر الإمام الحسين (عليه السلام) المدينة متوجّهاً إلى مكّة المكرمة في أواخر

١ - أحمد بن أعثم الكوفي: الفتوح، ج ٥، ص ١٨.

٢ - أحمد بن أعثم الكوفي: الفتوح، ج ٥، ص ١٨.

رجب من سنة ٦٠ للهجرة، وأقام فيها من الثالث من شعبان حتى الثامن من ذي الحجة من العام نفسه، وهي مدة تقارب مئة وخمسة وعشرين يوماً، ما يعدّ فترةً مهمّةً ضمن إطار زمن الثورة. وكان الإمام يدرك أنّ نفوذ بني هاشم بين أهل مكّة محدود، بل إنّ ولاء أغلبهم كان للطرف المضادّ؛ إذ ورد عن الإمام زين العابدين قوله: «ما بمكّة والمدينة عشرون رجلاً يحبّنا...»^(١)، ما يكشف عن ضعف القاعدة الشيعيّة الداعمة لأهل البيت ﷺ هناك.

ولم يكن الهدف من المعجىء إلى مكّة هو استماله عموم أهلها، بل كان التركيز على استقطاب الموالين ذوي البصيرة ممن يمكن أن ينصروا الحقّ ويقفوا إلى جانب الثورة. كما كان الهدف الرئيس هو مخاطبة الوفود الإسلاميّة القادمة لأداء مناسك العمرة والحج، طلباً للنصرة وإتماماً للحجّة على الجميع. وقد لقي الإمام ترحيباً حارّاً من قبل المقيمين في مكّة، فأقبلوا عليه يلتقون به ويستمعون إلى حديثه ويستفيدون من علمه، ويحفظون ما يرويه.

المبحث السابع: العزم على مغادرة مكّة إلى العراق

إثر انقضاء فترة إقامته في مكّة، تبين للإمام ﷺ أنّ النظام الأموي

يعزم على الغدر به واغتياله. وقد ورد أنَّ (يزيد) أرسل (عمرو بن سعيد بن العاص) على رأس جيش كبير وأوكل إليه مهمّة قيادة الحجّ، مع توصية خاصّة بالقبض على الإمام الحسين سرّاً أو قتله غدراً إن لزم الأمر. بل إنّ السلطة دسّت بين الحجاج مجموعة من العناصر الأمويّة لتقتله بأي طريقة ممكنة.

فلما اطّلع الإمام على هذه المؤامرات، عزم على الخروج فوراً إلى العراق، حتّى إنّهُ لم يتمكّن من إكمال مناسك الحجّ، فاضطّرّ إلى الإحرام بالعمرة المفردة والخروج. وكانت السلطة قد ضيّقت الخناق عليه، ولم تترك له ملاذاً آمناً في أي اتجاه. ويروى أنّه حين حاول أخوه (محمد بن الحنفية) ثنيه عن التوجّه إلى الكوفة، أجابه الإمام بأنّهم لن يتركوه ولو كان مختبئاً في جحر ضبّ، وسيخرجونه منه كي يقتلوه.

ولو سلّم الإمام (عليه السلام) لهم، فإنّ عداوتهم العميقة ما كانت لتدعه بحاله، بل كانوا سيواصلون محاولاتهم لاغتياله بكلّ وسيلة. وكان عرض البيعة عليه مجرد خطوة تكتيكيّة؛ لأنّهم يعلمون برفضه، وكان واليهم في العراق، (عبيد الله بن زياد)، يقول: "أعرضوا عليه فلينزل على أمرنا ثم نرى فيه رأينا"، وهو المنطق نفسه الخادع الذي

انتهجوه مع (مسلم بن عقيل) عندما أعطوه الأمان ثمَّ غدروا به^(١).
كما أنَّ الإمام ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻲ أرادَ صونَ حرمة البيت الحرام، فقال لأخيه: «يا
أخي، قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم، فأكون الذي
يستباح به حرمة هذا البيت»^(٢).

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٠٠.

٢ - ابن طاووس: اللهوف في قتلى الطفوف، ص ٣٩.

الفصل السادس:

الإمام علي بن الحسين عليه السلام

يرصد هذا الفصلُ تحوُّلَ الإمامة بعد كربلاء من المواجهة المباشرة إلى صناعة المعنى وحراسة المعيار. يظهر الإمام زين العابدين (عليه السلام) قائداً لمرحلة صعبة تُدار بأدواتٍ مختلفة: خطابٌ يفضح الزيف في الكوفة والشام، ثم مشروعٌ طويل النفس في المدينة يعيد تأسيس الوعي من القاعدة عبر العبادة المعلّمة، والدعاء المربيّ، وتخريج العلماء، وتثبيت مفهوم الولاية. يوضّح النصّ أنّ الانصراف عن الصدام المسلّح لم يكن انسحاباً من الشأن العام بل استراتيجية لحفظ الكيان الرسالي وبناء جماعةٍ واعية قادرة على مقاومة التزييف. هكذا تتواصل الثورة بوسائل أخرى: تثبيت سيرة الإمام الحسين (عليه السلام) في الضمير، وترميم الصدع بين المرجعية الفكرية والاجتماعية، وتكوين بنيةٍ خلقيّةٍ يستعيد للسياسة معيارها.

المبحث الأول: سيرة مضيئة:

أولاً: نظرةٌ على حياته (عليه السلام):

وُلد الإمام زين العابدين (عليه السلام) في الخامس من شعبان سنة ٣٨ للهجرة، وكان يوم الخميس. وهو ابن الإمام الحسين (عليه السلام)، وأمّه هي السيدة الجليلة (شهربانو) (المعروفة أيضاً بشاه زنان) بنت (يزدجرد).

نشأ الإمام ﷺ وتربى في أحضان هذا البيت النبوي الكريم، فتشبع بقيم الفضيلة وتخلق بأخلاق الأنبياء والأوصياء. واشتهر ﷺ بكثرة عبادته وتقواه، حتى انعكس ذلك على أبرز ألقابه، والتي كانت: (زين العابدين)، و(سيد الساجدين)، و(سيد العابدين)، و(ذو الثفات). أما كنيته فهي (أبو الحسن) و(أبو محمد)، وقيل أيضاً (أبو الحسين).

آلت إليه الإمامة في العام ٦١ للهجرة، وتحديدًا في العاشر من محرّم إثر استشهاد والده الإمام الحسين ﷺ، وقد امتدت فترة إمامته خمسة وثلاثين عامًا. وقبل وفاته، أوصى بالإمامة من بعده إلى ابنه الإمام محمد الباقر ﷺ^(١).

وكان له ﷺ من الأولاد خمسة عشر ولدًا بين ذكور وإناث، وهم: الإمام محمد الباقر ﷺ وأُمّه أم عبد الله بنت الحسن بن علي ﷺ، و(عبد الله)، و(الحسن)، و(الحسين)، و(زيد)، و(عمر)، و(الحسين الأصغر)، و(عبد الرحمن)، و(سليمان)، و(علي) (وكان أصغر الإخوة)، و(خديجة)، و(محمد الأصغر)، و(فاطمة)، و(عليّة)، و(أم كلثوم). وأمّهات هؤلاء الأخيرين كُنَّ من أمّهات الأولاد^(٢).

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٠٥.

٢ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ص ١٥٥.

وافته المنية في سنة ٩٥ للهجرة، والتي سُميت بـ "سنة الفقهاء" بسبب كثرة من توفي فيها من العلماء والفقهاء. واختلف في اليوم الحقيقي لشهادته بين الثاني عشر، أو الثامن عشر، أو الخامس والعشرين من شهر محرم. وكان عمره الشريف عندها ستاً وخمسين سنة، ودُفن عليه في مقبرة البقيع في المدينة المنورة.

ثانياً: عبادة الإمام زين العابدين عليه السلام:

اشتهر الإمام علي بن الحسين، المكنى بزين العابدين، بأنه أعبد الناس في عصره، حتى إنَّ هذا اللقب أصبح علماً عليه، وشهد بذلك الموافق والمخالف. وقد نقل (مالك) قائلاً: «سُمي زين العابدين لكثرة عبادته»^(١).

ولتوضيح مدى انقطاعه التام لله تعالى، تروي لنا إحدى الروايات أنَّ السيدة فاطمة بنت علي بن أبي طالب عليه السلام، لما رأت ما يبذله ابن أخيها علي بن الحسين عليه السلام من جهدٍ شديد في العبادة، أتت الصحابي (جابر بن عبد الله الأنصاري) قائلة: «يا صاحب رسول الله، إنَّ لنا عليكم حقوقاً، ومن حقنا عليكم أن تذكروا بالله من يبالغ في اجتهاده

١ - محمد هادي الميلاني: قادتنا كيف نعرفهم، ج ٤، ص ١٠.

حتى يُتعب نفسه، وهذا علي بن الحسين -وهو بقيّة أبيه الحسين- قد أثر السجود في جسده؛ فانخرم أنفه، وتغلظت جبهته وركبتاه وكفّاه من شدة مواظبته على العبادة... فأقبل (جابر) عليه وهو يقول: «يا بن رسول الله، أما علمت أنّ الله خلق الجنة لكم ولمن أحبكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم؟ فلماذا تكلف نفسك هذا الجهد الشديد؟».. فأجابه الإمام (عليه السلام): «يا صاحب رسول الله، أما علمت أنّ جدّي رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، ومع ذلك لم يترك الاجتهاد في العبادة، بل استمرّ فيها حتى تورّمت قدماه وانتفخت ساقاه، فقبل له: أنفعل هذا وقد غُفِرَ لك؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(١).

وكان من مظاهر تقربّه العظيم من الله كثرة سجوده؛ إذ كان يسجد شكراً لله في كلّ مناسبة: عند تذكّر نعمة، أو عند قراءة آية سجود، أو عند دفع سوء، أو بعد كلّ صلاة مفروضة، أو عند التوفيق لإصلاح بين الناس. وقد ترك السجود أثراً بارزاً على جميع مواضع سجوده، حتى عُرف به ولُقب بـ «السجّاد»^(٢).

١ - محمد بن الحسن الطوسي: الأمالي، ص ٦٣٦-٦٣٧.

٢ - محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): علل الشرائع، ج ١، ص ٢٣٢.

كما لُقِّبَ بـ “ذي الثنات” لكثرة سجوده وعبادته. ورُوي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: “كان لأبي (عليه السلام) في موضع سجوده أثر، وكان يقطعها في السنة مرتين، في كل مرة خمس ثنات، فسُمي ذا الثنات لذلك^(١).”

ثالثاً: مكانة الإمام زين العابدين بين المسلمين:

تمتّع الإمام زين العابدين (عليه السلام) بمكانة علميّة ودينيّة مرموقة، فكان إماماً يُقتدى به، ومنازلةً للعلم والمعرفة، ونموذجاً أعلى في الورع والعبادة والتقوى والعرفان، حتى ذاع صيته بين جميع المسلمين في عصره بأنّه أفقه أهل زمانه وأورعهم وأتقاهم، ولم يكن في قريش بل في المسلمين كلّهم من يفوقه فضلاً. وقد شهد بفضلّه أعلام المذاهب الأخرى، مثل (سفيان بن عيينة) (سفيان الثوري/الكوفي) الذي قال: «ما رأيتُ هاشمياً أفضلَ من زين العابدين ولا أفقه منه»^(٢).

بل إنّ هذه المكانة قد حظيت باعتراف حكام بني أميّة أنفسهم، على الرغم مما يكنونه من عدااء وخصومة لأهل البيت (عليهم السلام).. فقد قال له

١ - محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): علل الشرائع، ج ١، ص ٢٣٣.

٢ - ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٣، ص ٢٩٧.

(عبد الملك بن مروان) ذات مرة: «لقد أوتيت من العلم والدين والورع ما لم يؤته أحد مثلك إلا من مضى من سلفك»^(١)، ووصفه (عمر بن عبد العزيز) بأنه «سراج الدنيا وجمال الإسلام»^(٢).
 في المقابل، يذهب بعض المؤلّفين إلى أنّ استشهاد الإمام الحسين عليه السلام أفقد الفكر الشيعي زعيمه السياسي المحوري، ما دفع بالإمام زين العابدين عليه السلام إلى الانصراف عن السياسة المباشرة إلى الشأن الديني، ليصبح زعيماً روحياً منعزلاً عن أحداث الواقع، واقتصر دوره على تخريج مجموعة من العلماء والفقهاء الذين أصبحوا مراجع للفقهاء الإسلاميين.
 لكنّ الحقيقة تكمن في أنّ هذا الانزياح الظاهري كان استراتيجية حكيمة أراد منها الإمام عليه السلام أن يبعث بها رسالة مطمئنة للسلطة الأموية الحاكمة، بهدف الحفاظ على كيان التشيع من جهة، ونشر تعاليم الإسلام المحمّدي الأصيل بهدوء وتدرّج من جهة أخرى، ساعياً إلى إحداث التغيير من القاعدة لا من القمة. وهذه الرؤية الاستراتيجية العميقة تتجلّى بوضوح لكلّ من يدقّق ويتأمل مراحل حياة الإمام (عليه السلام) وسيرته الشريفة.

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٥٧.

٢ - أحمد بن إسحاق اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٠٣-٣٠٥.

المبحث الثاني: المحطّات الرئيسة في حياة الإمام السجّاد (عليه السلام)

تُعَدُّ مسيرة الإمام السجّاد (عليه السلام) محطّاتٍ كاشفةً عن أبعاد شخصيّته الجهاديّة الحقيقيّة، والتي تجلّت بوضوح في ثلاثة مواقف محوريّة: حضوره في كربلاء، ومواقفه البطوليّة في الشام، وتخطيطه الاستراتيجي بعد العودة إلى المدينة.

المحطة الأولى - حضور الإمام في كربلاء:

تشير المصادر التاريخيّة إلى أنّ الإمام السجّاد (عليه السلام) كان شاهداً على واقعة الطفّ (كربلاء) بكلّ تفاصيلها المأساويّة ومشاهدها المروّعة. ومن الثابت أنّه كان يعاني ذلك اليوم من مرضٍ شديد أقعده عن القتال^(١)، إلى درجة أنّه لم يكن يقوى على الوقوف أو حمل السلاح^(٢). وقد وردت روايات تفيد بأنّه شارك في بعض مواقع القتال رغم

١ - راجع: الشيخ محمد بن محمد المفيد: الارشاد، ص ٢٣١؛ النعمان المغربي: شرح الأخبار، ج ٣، ص ٢٥٠؛ شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٤٨٦.

٢ - أحمد بن إسحاق يعقوبي: تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢٤٣-٢٤٤.

مرضه^(١)؛ حيث قيل: «وكان علي بن الحسين عليلاً، وارثاً يومئذٍ، وقد حضر بعض القتال، فدفع الله عنه وأخذ مع النساء»^(٢).

هذه التجربة القاسية، التي منعت ظروفه الصحية من استشهاد كان يطمح إليه، أصبحت أمانةً ثقيلةً يحملها في قلبه، ليوظفها لاحقاً في فضح وحشية النظام الأموي وبشاعة جرائمهم أمام الملأ.

المحطة الثانية - في الكوفة:

يستذكر الإمام السجاد ﺍﻟﻤﻮﺗﻪ استشهاد إخوته وأبناء عمومته، فيقف شامخاً في قصر الإمارة بالكوفة، حاملاً في حروفه بلاغة جدّه أمير المؤمنين الإمام علي ﺍﻟﻤﻮﺗﻪ، وعزيمة أبيه الحسين ﺍﻟﻤﻮﺗﻪ، فيلقي خطاباً جليلاً في وجه الطاغية (عبيد الله بن زياد)، محوِّلاً إياه إلى متَّهم مباشر بدماء الأبرياء، حينما ردّ عليه بقوله: «الله يتوفى الأنفس حين موتها... وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله...». فاشتعل غيظ (ابن زياد)، وأراد قتله جرّاء شجاعته وتحديّه، فانبرت له عمّته زينب ﺍﻟﻤﻮﺗﻪ تحتضنه وتعلّق به، قائلة: «يا ابن زياد، اكنف بما سفكت من دمائنا! أما امتلأت

١ - راجع: محمد رضا الجلاي: جهاد الإمام السجاد، ص ٤٢.

٢ - محمد رضا الجلاي: حياة الإمام السجاد، ص ٤٣.

فُغِرًا من دمائنا؟ وهل تركتَ منّا أحدًا؟ أسألكَ بالله إن كنتَ مؤمنًا أن لا تقتله إلا وتقتلني معه»^(١).

المحطة الثالثة - في الشام:

في الشام، حيث كانَ للدعاية الأمويَّة سلطة تفوق سلطة السيوف والرماح، بما تحمله من مخاطر التشويه والقتل، وقفَ الإمام السجاد (عليه السلام) في بلاط (يزيد)، فبدأ خطابه بحمد الله والثناء عليه، داحضًا بمقولاته أدعياء بني أميَّة الذين سعوا لتشويه ثورة أبيه وتحريف أهدافها. وقد عرّف نفسه تعريفًا مفصّلًا؛ لأنَّ صورة أهل البيت (عليهم السلام) كانت مشوَّهة ومغيَّبة في الشام، فقال: «يا معشرَ الناس: فمنْ عرفني فقد عرفني، ومن لمْ يعرفني فأنا أُعرِّفه نفسي، أنا ابن مكَّة ومِنى، أنا ابن مروة والصفاء، أنا ابن محمَّد المصطفى... أنا ابن من علا فاستعلى، فجازَ سدره المنتهى، وكان من ربِّه قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلَّى بملائكة السماء مشى مشى، أنا ابن من أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أنا ابن عليِّ المرتضى، أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن خديجة الكبرى، أنا ابن المقتول ظلمًا، أنا ابن المجزور

الرأس من القفا، أنا ابن العطشان حتى قضى، أنا ابن صريع كربلاء، أنا ابن مسلوب العمامة والرداء، أنا ابن من بكت عليه ملائكة السماء، أنا ابن من ناحت عليه الجن في الأرض والطير في الهواء، أنا ابن من رأسه على السنان يهدى، أنا ابن من حرمة من العراق إلى الشام تُسبى... أيُّها الناس إنّ الله تعالى - وله الحمد - ابتلانا أهل البيت ببلاء حسن، حيث جعل رايّة الهدى والثقى فينا، وجعل رايّة الضلالة والردى في غيرنا...»^(١).

وبهذه الخطبة الموجزة أصبح الإمام الرمز القائد لمسيرة إحياء الدين الذي شوّهته السلطة الأمويّة وحكمت باسمه زوراً وظلماً وبهتاناً.. وعندما حاول (يزيد) قطع كلامه بالأذان للصلاة، علّق الإمام على قول المؤذّن «أشهد أنّ محمّداً رسول الله» قائلاً: «يا يزيد، هذا جدّي أم جدّك؟ فإن قلت جدّك فقد كذبت، وإن قلت جدّي فلم قتل أبي وسبيت نساءه وسبيتني؟!» ثمّ خاطب الناس قائلاً: «أيها الناس، هل فيكم من أبوه وجده رسول الله ﷺ؟» فتعلّت أصوات البكاء.

وهكذا تجلّى دور الإمام السجاد ﺍﻟﻤﺒﺎﺭﻛﯩﻦ في قيادة مشروع الإحياء وثورة التصحيح. ومن هذه المحطّة بدأ رحلة الألف ميل من الشام إلى

المدينة، ليستكمل مسيرته الرساليّة في قيادة هذا المشروع وتوجيه هذه الثورة.

المحطّة الرابعة - في المدينة المنورة:

دوره العلميّ:

لا يمكن للكلمات أن تحيط بالدور العلمي للإمام السجاد (عليه السلام) أو تعبّر عنه تعبيراً وافياً، ولكننا نستعرض هنا بعض المعالم التي تُظهر جانباً من هذا الدور ومكانته العلميّة الرفيعة.

عاش الإمام زين العابدين (عليه السلام) في المدينة المنورة، حاضرة الإسلام الأولى ومنبع العلوم والعلماء، في فترة كانت تضم نخبة من علماء الصحابة وكبار علماء التابعين. وكان بإجماع أبرز علماء عصره الأعلام والأفقه والأوثق دون أدنى شك. فقد قال (الزهري): «ما كان أكثر مجالستي مع علي بن الحسين، وما رأيت أحداً كان أفقه منه»، كما أقرّ الفقيه الشهير (سفيان بن عيينة) بهذه الحقيقة^(١)، وقال الشافعي محتجاً به: «كان أفقه أهل المدينة»^(٢).

١ - راجع: شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٣٨٩؛ ابن عساكر: مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٢٤٠.

٢ - ابن أبي الحديد: شرح النهج، ج ١٥، ص ٢٧٤.

وكانت مدرسته العلميّة تعجُّ بكبار العلماء في عاصمة العلم الإسلاميّة؛ حيث كانوا يتلقّون عنه العلم والأدب وينقلون الحديث. ومن بين تلامذته: أولاده الإمام محمّد الباقر (عليه السلام) و(عمر) و(زيد) و(عبد الله)، وكذلك (الزهري) و(عمرو بن دينار) وغيرهم. كما حدّث عنه عدد من كبار علماء شيعة مثل: (أبان بن تغلب)، و(أبي حمزة الثمالي)، و(ثابت بن هرمز الفارسي)، و(جابر بن عبد الله الأنصاري)، و(حبيب بن حسان الأسدي)، وغيرهم كثير^(١).

هذا الجمع الكبير من التلامذة وغيرهم ممن وُصفوا بكثرة العدد، تلقّوا على يديه (عليه السلام) علوم الشريعة المختلفة: من تفسير القرآن الكريم، ومعرفة مُحكمه، ومتشابهه، وناسخه، ومنسوخه، وأحكامه، وآدابه، إلى السُنّة النبويّة الشريفة روايةً وتدويناً في عصر كانت كتابة الحديث لا تزال تتأثّر بسياسة المنع من التدوين، والتي تجاوزها أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، فدوّن تلامذتهم والرواة عنهم علومًا غزيرة، إلى أحكام الشريعة من حلال وحرام وآداب، فضلاً عن فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في فترة سعت فيها السياسة الحاكمة إلى تعطيل عدد من الأحكام، وتبديل بعض السُنن، وإحياء بعض البدع، إلى الجهر بنصرة

المظلوم، والردّ على الظالم وكشف أساليبه الجائرة.

المبحث الثالث: مرحلة التحوُّل الاستراتيجي

تمثّل مرحلة الإمام السجاد (عليه السلام) منعطفًا حاسمًا بين مرحلتين متميّزتين في مسيرة أئمة أهل البيت (عليهم السلام):

المرحلة الأولى: مرحلة المواجهة المباشرة التي تميّزت بالتصدي السياسي والصراع المسلّح ضدّ المنحرفين والمحرفين من الفاسقين والناكثين والمارقين، مضافاً إلى مواجهة الكفّار والمنافقين والأعداء الظاهرين للدين.

المرحلة الثانية: مرحلة المعارضة السياسيّة الهادئة، أو الرفض الواعي المسؤول للانحراف، في مواجهة الغموض والتزييف المغلّف بشعارات الدين، ثمّ بناء القاعدة الشعبيّة والجماعة الواعية القادرة على حمل أعباء الرسالة لمواجهة الانحراف والتحريف اللذين طالوا الواقع الديني تحت شعارات إسلاميّة مزيفة من النصوص الدينيّة.

وانطلاقاً من هذا التحوُّل، كان على الإمام زين العابدين (عليه السلام) أن يرسّخ في عقول الجماعة المؤمنة وضماثرها -المكلّفة بحفظ الإسلام عقيدة ونظاماً، شريعة ومنهاجاً- جملة من المبادئ الأساس:

١. ترسيخ ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) في وجدان الأمة باعتباره خرج للإصلاح في أمة جده، أمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، وداعياً إلى تحكيم دين الله، دون طلب سلطة أو جاه، ولم يخرج على "إمارة المؤمنين يزيد" كما زُعم، ولم يقصد تفكيك وحدة المسلمين، وبالتالي فقد استشهد بسيف أعداء الدين لا "سيف جده" كما روج الإعلام الرسمي آنذاك وبعض المؤرخين حتى يومنا هذا^(١).

٢. بناء جماعة واعية وقاعدة شعبية مؤهلة لحماية الرسالة ومبادئها من التزييف والتضليل، ومقاومة سياسة تسطيح الوعي التي طالت مساحات واسعة من المسلمين، فأصبحت الجماهير عاجزة عن التمييز بين المفاهيم ومصاديقها، وبين الشعارات البراقة وضرورة تبنيها، وبين الأصيل والدخيل، ما يسبب الفتنة ويحجب الرؤية الواضحة عن النفوس البريئة التي تنجذب للشعارات السطحية.

٣. تعميق مفهوم الإمامة والولاية في نطاق الجماعة الخاصة بعد أن اهتزت قناعات العامة تحت ضغط الإعلام المضاد

وآلاته الإعلامية، وإيضاح الفجوة الكبيرة التي حدثت بفصل المرجعية الفكرية عن المرجعية السياسية والاجتماعية.

٤. العمل بدقة في مرحلة بالغة الحساسية؛ حيث كل حركة وسكنة محسوبة، وكل كلمة ونفس مُرصد، مع ضرورة الموازنة بين ذلك وبين حملة إعلامية ودعوية معقدة لكشف المعالم الحقيقية للدين، بعيداً عن رقابة السلطة وعيونها وجواسيسها المنتشرين في كل مكان. وبهذه الرؤية الاستراتيجية استطاع الإمام السَّجَّاد (عليه السلام) أن يقود الأمة ويكمل مسيرة الثورة ويحقق أهدافها، ولكن بأسلوب يتناسب مع طبيعة المرحلة وتعقيداتها، حتى دون أن يتسلم سلطة سياسية أو حكماً رسمياً.

الفصل السابع:

الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام)

يُطلِّ الإمام الباقر (عليه السلام) على تاريخ الإسلام بوصفه لحظة انبثاق معرفي تُستعاد فيها النبوة منهجاً للفهم لا مجرد مرويات تُحصى. طفولة وسمتها كربلاء، وشبابٌ تشكّل في ظلّ انكسار عامٍّ واحتقانٍ سياسيٍّ، ثمّ إمامةٌ اشتبكت مع انحراف المذاهب والتيارات، فحوّلت جرحَ الطفّ إلى مدرسةٍ تُعيد ترتيب العلاقة بين النصّ والعقل والأخلاق. في سيرته المشحّصة بالعبادة والزهد والجود، تتبدّى ملامحُ الإمام المعلم: يجمعُ العلمَ ويشقّ طبقاته الكامنة، ويُقيم للقرآن معياراً على الرواية، وللسنة ميزاناً على الفهم، وللأخلاق وظيفةً تربط الإنسان بالله قبل أن تربطه بالآخرين.

يتّبع هذا الفصل حركة الإمام الباقر (عليه السلام) بوصفها مشروع تأسيس: مواجهة الغلاة والمرجئة والمجبّرة والمفوضة لا بوصفهم خصوماتٍ مذهبيّةٍ عابرة، بل دفاعاً عن توحيدٍ لا يُختزل في شعار، وشرعية لا تُدار بالقياس، ومعرفة لا تُستخرج بالهوى. ومن خلال رسم ملامح المدرسة العلميّة لأهل البيت (عليهم السلام) في زمن بلغ فيه الاضطراب الفكري ذروته، يضع الإمامُ خرائطَ طريقٍ للاجتهاد: أصولٌ تُلقى، وتفرّعٌ يُناتٍ بالفقهاء، ونصٌّ يُحتكم إليه، ومنهجٌ يريّ قبل أن يُفتي. وهكذا لا يصبح الإمام الباقر (عليه السلام) راوياً لعلمٍ محفوظٍ فحسب، بل صانعٍ شرطٍ إمكانه في الوعي والواقع معاً.

المبحث الأول: سيرة عطرة

أولاً: نبذة تاريخية:

وُلد الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) في المدينة المنورة يوم الاثنين، إمّا في الثالث من شهر صفر أو في الأول من شهر رجب سنة ٥٧ للهجرة. ينحدر من سلالة طاهرة، فأبوه هو الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام)، وأمّه هي السيدة فاطمة بنت الإمام الحسن المجتبي (عليه السلام)، والتي كانت تُكنّى بأُمّ عبد الله واشتهرت بين الناس بتقواها وفضائلها وعبادتها. وقد ورد عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) قوله فيها: «كانت صديقة لم يوجد في آل الحسن امرأة بمثل فضلها»^(١).

ثانياً: ألقابه وكنيته:

عُرِف الإمام (عليه السلام) بعدة ألقاب تدلّ على مكانته، منها: (الباقر)، و(الشاكر)، و(الهادي)، و(الأمين). أما كنيته فهي (أبو جعفر).

ثالثًا: نشأته وأحداث الطف:

شهد الإمام الباقر (عليه السلام) وهو في الرابعة أو الثالثة من عمره واقعة كربلاء الأليمة مع جدّه الإمام الحسين (عليه السلام)، ورافق قافلة السبایا في رحلتها من الكوفة إلى الشام، ثمّ في العودة إلى المدينة المنورة.

رابعًا: فترة الإمامة:

تولّى منصب الإمامة بعد استشهاد والده الإمام السجاد (عليه السلام)، وامتدّت فترة إمامته تسعة عشر عامًا، من سنة ٩٥ هجرية حتى سنة ١١٤ هجرية.

خامسًا: ذريّته:

رُزق الإمام الباقر (عليه السلام) بسبعة أولاد بين ذكور وإناث، وهم: الإمام جعفر بن محمّد الصادق (عليه السلام)، و(عبد الله بن محمّد) (وكانت أمهما أم فروة بنت القاسم بن محمّد بن أبي بكر). وكذلك (إبراهيم) و(عبید الله) (وأمهما أم حكيم بنت أسيد بن المغيرة الثقفيّة)، مضافًا إلى (علي) و(زينب) و(أم سلمة) (وكانت أمهم أم ولد)^(١).

١ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ١٧٦.

سادساً: وصيته ووفاته:

قبل استشهاده، أوصى الإمام ﷺ بابنه الإمام جعفر الصادق ﷺ خليفة وإماماً من بعده^(١). وافته المنية يوم الاثنين في السابع من شهر ذي الحجة سنة ١١٤ هجرية، عن عمر يناهز السادسة والخمسين عاماً، ودفن في مقبرة البقيع في المدينة المنورة إلى جوار قبر والده الإمام السجاد ﷺ.

المبحث الثاني: عبادته ودعاؤه وتقواه ﷺ

تميّز الإمام الباقر ﷺ بأنّه كَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ عِبَادَةً فِي عَصْرِهِ. ويُروى عن (عبد الله بن يحيى) أنّه قال: «رَأَيْتُ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ إِزَارًا أَصْفَرَ اللَّوْنِ، وَكَانَ يُؤَدِّي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ رَكْعَةً تَشْمَلُ الْفَرَائِضَ وَالنَّوَافِلَ»^(٢).

وَكَانَ ﷺ يَعْتَرِفُ بِعِبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ -تَعَالَى- اعْتِرَافًا شَدِيدًا، فَقَدْ رُويَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ وَالِدِي يَقُولُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ: لَقَدْ أَمَرْتَنِي فَلَمْ أَطْعَمْكَ، وَنَهَيْتَنِي فَلَمْ أَتِهِ، هَا أَنَا عَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ لَا أَعْتَذِرُ»^(٣).

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٠٦.
 ٢ - شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٤٠٤.
 ٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٩٠.

ويروى عن (إسحاق بن عمار) أنه قال: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: كنت أهيبُّ لوالدي فراشه وأنتظره حتى يأتي، فإذا اضطجع ونام ذهبت إلى فراشي. وفي إحدى الليالي تأخَّر عن مواعده، فذهبت أبحث عنه في المسجد بعد أن هداً الناس، فوجدته ساجداً وحيداً في المسجد، وسمعتة وهو يبكي ويقول: سبحانك اللهم أنت ربي حقاً، سجدت لك تعبدًا وخشوعًا. اللهم إنَّ عملي قليل وضعيف فضاعف أجرى. اللهم نجِّنِي من عذابك يوم تبعث عبادك، وتقبَّل توبتي إنَّك أنت التَّوَّاب الرحيم»^(١).

وأما اهتمامه بشيعته ودعاؤه لهم، فقد أَوَّلَى الإمام عليه السلام شيعته ومحبيه عناية خاصَّة، وكان من أدعيته من أجلهم: «بسم الله الرحمن الرحيم، يا ذا العطاء غير المتباطئ، يا أرحم الراحمين، اجعلْ لشيعتي وقايةً من النار، وأرضَ عنهم، واغفرْ ذنوبهم، ويسرْ أمورهم، وأدِ ديونهم، واسترْ عيوبهم، واغفرْ لهم الذنوب العظيمة التي بينك وبينهم. يا من لا يُظلم ولا يغفل ولا ينام، اجعل لي من كل هم فرجًا ومخرجًا»^(٢).

١ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: المقنعة، ص ٤٣٠.

٢ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ٦٣.

المبحث الثالث: مكارم أخلاقه وسجاياه

جسد الإمام الباقر عليه السلام قيم الإسلام السامية في سلوكه، فكان جواداً كريماً، يبذل ما في يده للمحتاجين، مشهوراً بالسخاء والجود بين خاصته وعامة الناس، ومعروفاً بالفضل والإحسان رغم كثرة من يعول وتواضع حاله المادي. ويروى عن (الحسن بن كثير) أنه قال: شكوت إلى أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام حاجتي وجفاء الإخوان، فقال: «بئس الأخ الذي يصاحبك غنياً ويتعد عنك فقيراً». ثم أمر غلامه فأحضر كيساً فيه سبعمائة درهم وقال: «أنفق هذه، فإذا انتهت فأخبرني»^(١). وكان لا يملّ من مواصلة الإحسان إلى إخوانه وزواره وكلّ من يرجوه^(٢). وفي موقف آخر يظهر خلّقه الحسن، الذي كان سبباً في استمالة قلوب الناس حتّى أصبحوا من أتباعه ومحبيه. فقد روي أنّ رجلاً من أهل الشام كان يحضر مجلس الإمام عليه السلام في المدينة، فقال له يوماً: «يا محمد، اعلم أنّني أحضر مجلسك حياءً منك، وليس لأنني أحبّك، ولا أجد على الأرض أحداً أبغض إليّ منكم أهل البيت، وأعتقد أنّ طاعة الله ورسوله وأمير المؤمنين تكون في بغضكم. ولكنني أراك رجلاً فصيحاً، مهذباً وحسن

١ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ١٦٦.

٢ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ١٦٦.

الحديث، وإنما أحضر لأدبك». فكان أبو جعفر عليه السلام يردّ عليه بالخير ويقول: «لن تخفى على الله خافية». ولم يمض وقت طويل حتى مرض الرجل الشامي مرضاً شديداً، أوصى غلامه إذا مات أن يتولّى الإمام الباقر عليه السلام الصلاة عليه. وعندما ظنّوا أنّه مات، ذهب الغلام إلى الإمام عليه السلام، لكنّ الإمام أخبره بأنّ صاحبه لم يمت بل هو في سكرات المرض. فذهب الإمام عليه السلام إلى داره، وأمرهم بعلاجه، ثم صلّى ركعتين، فلم يلبث الرجل إلا قليلاً حتى شفي. فجاء إلى أبي جعفر عليه السلام وقال له على انفراد: «أشهد أنّك حجة الله على خلقه، وبابه الذي يؤتى منه، فمن لم يأت من عندك خاب وخسر وضلّ ضلالاً بعيداً». فقال له أبو جعفر عليه السلام: «أما علمت أنّ الله قد يحبّ العبد ويكره عمله، وقد يكره العبد ويحبّ عمله؟». فأصبح الرجل بعد ذلك من أخلص أصحاب الإمام عليه السلام ^(١).

المبحث الرابع: العوامل المؤثرة في عصر الإمام الباقر عليه السلام

يمكن إيجاز أبرز العوامل التي شكلت ملامح تلك الحقبة التاريخية في النقاط الآتية:

١ - محمد بن الحسن الطوسي: الأمالي، ص ٤١١ (بتصرف).

١. سيطرة مناخ الخوف والرعب على مختلف أرجاء العالم الإسلامي، خاصة بعد أحداث "وقعة الحرّة" الأليمة.

٢. التراجع الفكري والثقافي الذي أصاب معظم أفراد المجتمع الإسلامي، نتيجة الابتعاد عن المنهج الديني الأصيل على مدى سنوات طويلة.

٣. تفشي ظاهرة الفساد السياسي بين صفوف الحكّام على المستويين النظري والتطبيقي.

في خضمّ هذه الظروف الصعبة، شرع الإمام السّجاد عليه السلام في العمل الدؤوب والمتواصل -كما أسلفنا-، ليواصل من بعده ابنه الإمام الباقر عليه السلام المسيرة نفسها. وقد شهد عهد الإمام الباقر عليه السلام تحسّناً نسبياً في الأجواء بالمقارنة مع السابق، وذلك بناء على الجهود المضنية التي بذلها الإمام زين العابدين عليه السلام.

إلى جانب ما سبق، بلغت حالة الانحراف في عصر الإمام الباقر عليه السلام ذروتها، سواء على صعيد نظام الحكم والسلطة أم على المستوى العقدي والديني والثقافي. فقد تحوّل الحكم إلى كتلة مترابطة من الظلم والجور، بينما أصبحت العقائد والمفاهيم الدينية عرضة للأهواء الشخصية، فتكاثرت المدارس الفكرية، وتنوّعت المناهج، وتعمّقت الخلافات الأيديولوجية.

وفي هذا السياق، يمكن الإشارة إلى بعض التيارات المنحرفة التي واجهها الإمام (عليه السلام) ووقف ضد أفكارها:

١. الغلاة: وقد نشطوا تحت قيادة (المغيرة بن سعيد)، الذي قال عنه الإمام الصادق (عليه السلام): «لعن الله المغيرة بن سعيد، فإنه كان يفترى الكذب على أبي»^(١).

٢. المجبرة: وهم الذين قالوا بنظرية الجبر الملزمة، والتي تنفي في جوهرها النبوات والتكاليف الشرعية. وقد اتفق معظم مؤرخي فرق «المجسمة» على ذكرهم، بينما قلّ من صرح بكفرهم^(٢).

٣. المفوضة: وهم الذين يقابلون المجبرة في الرأي؛ حيث يقولون بتفويض الله أمر العباد إليهم بالكامل. وحال هؤلاء يشبه حال المجبرة في الانحراف^(٣). وقد روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) تحذيره من هذا الفكر: «إياك أن تقول بالتفويض، فإن الله عز وجل لم يفوض الأمر إلى خلقه عجزاً منه

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ٢٩٧.

٢ - محمد علي الأنصاري: الموسوعة الفقهية الميسرة، ج ٢، ص ٢١.

٣ - محمد علي الأنصاري: الموسوعة الفقهية الميسرة، ج ٢، ص ٢٢.

وضِعْفًا، ولا أجبرهم على معاصيه ظلمًا منه»^(١).
 ٤. المُرَجَّة: وهي تسمية مشتقة من "الإرجاء" بمعنى التأخير. فهم يعتقدون أنَّ جميع أهل القبلة مؤمنون، وأنَّ الله -تعالى- قد أخرَّ عقابهم على المعاصي أو أسقطه^(٢). وقد حذَّر الإمام عليه السلام منهم قائلاً: «اللهم العن المُرَجَّة فإنَّهم أعداؤنا في الدنيا والآخرة»^(٣).

المبحث الخامس: إسهام الإمام الباقر عليه السلام في تأسيس المدرسة العلميَّة لأهل البيت عليه السلام

عاصرَ الإمامُ الباقر عليه السلام مرحلة حاسمة وخطيرة في تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة ومسيرتها، خلال ذروة الصراع على السلطة في العهد الأموي بشقَّيه السفيناني والمرواني. وقد تميَّزت تلك الحقبة بحملة منهجيَّة شاملة لتعبئة الرأي العام الإسلامي ضدَّ أهل البيت عليه السلام، مستخدمة

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥، ص ١٧.
 ٢ - راجع: فخر الدين الطريحي: مجمع البحرين، ج ١، ص ١٧٧؛ الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج ١، ص ١٦.
 ٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٩٢.

وسائل الدعاية والإغراء المادّي والمعنوي؛ حيث أصبح إظهار العداء لنهج أهل البيت عليهم السلام شرطاً لتجنّب الاضطهاد والظلم والقمع، والذي كان مصيره في كثير من الأحيان الإعدام.

ومع كل هذه الأجواء القمعيّة، فإنّه قد تيسّر هامش من الحرّيّة النسبيّة نتيجة انشغال النظام الأموي بصراعاته الداخليّة على السلطة، فضلاً عن الثورات المتلاحقة التي اندلعت بعد واقعة كربلاء وأسهمت في إضعاف السلطة الأمويّة.

استثمر الإمام الباقر عليه السلام هذه الظروف المتاحة، وحدّد لنفسه مساراً واضحاً يستند إلى نهج رسول الله صلى الله عليه وآله في إبلاغ الرسالة الإسلاميّة. فقام ببيان أحكام الشريعة، ومعالجة الانحرافات العلميّة والفكريّة التي تسلّلت إلى الدين الإسلامي في ذلك العصر، ووضع الأسس للمنهج العلمي السليم لفهم الإسلام. وتمثّل دوره المحوري في عدّة محاور رئيسة هي:

أولاً: الإمام الباقر عليه السلام.. مرجعيّة علميّة رائدة:

لقد وصف (ابن حجر) الإمام محمّد الباقر عليه السلام في ترجمته له قائلاً: "لقّب بـ "الباقر" لأنّه بقر العلم بمعنى شقّه وأظهر خباياه وأسراره، فكما يشقّ المحراث الأرض ليُخرج كنوزها، فقد كشف عليه السلام عن كنوز

المعارف وحقائق الأحكام واللطائف الشرعية التي لا يدركها إلا ذو البصيرة النافذة والنية الصافية. وقد اشتهر ﷺ بأنه باقر العلم وجامعه، وناشره، ورافع رأيته^(١).

وتدلُّ على سعة علومه أنه رغم استفادة العلماء الواسعة من معارفه، كان يشعر بضيق وحزن بسبب كثرة العلوم التي يمتلكها ولم يجد فرصة لنشرها، فكان يقول: «لو وجدت من يحمل علمي الذي منحني إياه الله عزَّ وجلَّ، لنشرت التوحيد والإسلام والدين والشرائع... ولكن كيف لي بذلك، ولم يجد جدِّي أمير المؤمنين ﷺ من يحمل علمه حتى كان يتنفس الصعداء ويقول: «لو وجدت حملة لعلمي الذي آتاني الله عزَّ وجلَّ، لنشرت التوحيد والإسلام والدين والشرائع... وكيف لي بذلك، ولم يجد جدِّي أمير المؤمنين ﷺ حملة لعلمي حتى كان يتنفس الصعداء ويقول على المنبر: سلوني قبل أن تفقدوني فإنَّ بين الجوانح علماً جمًّا...»^(٢).

وكان ﷺ محطَّ أنظار العلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامي، ولم يزر أحد المدينة إلا وتوجَّه إلى بيت الإمام محمد الباقر ﷺ لأخذ العلم

١ - ابن حجر العسقلاني: الصواعق المحرقة، ص ٢٠١.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٢٥.

منه. وقد توافد عليه أئمة الفقه وكبار العلماء؛ حيث حظي بشهرة علمية واسعة في عصره، فكان مجلسه يعجّ دائماً بالوافدين من مختلف أطراف العالم الإسلامي^(١). وكانت مكانته العلمية تجذب كثيرين للاستفادة منه في حل المعضلات العلمية والفقهية التي تواجههم. وقد أُعجب به أهل العراق خاصة، وكان الوافدون عليه يظهرون احتراماً وتقديراً كبيرين لشخصيته العلمية، حتى أنّ (عبد الله بن عطاء المكي) قال: «ما رأيتُ العلماء أبداً يظهرون التواضع عند أحد كما يظهرونه عند أبي جعفر. لقد رأيت الحكم بن عيينة مع مكانته الكبيرة بين الناس يكون أمامه كالصبي أمام معلّمه»^(٢). وقد أخذ عنه الفقهاء أحكام الحلال والحرام الظاهرية^(٣). وكان عليه السلام واسع العلم غزير الحلم^(٤)، حتى أنّ (هشام بن عبد الملك) وصفه بأنّه «نبي الكوفة» عندما سأله (الأبرش الكلبي): «من هذا الذي احتشد حوله أهل العراق يسألونه؟ فأجاب: هذا نبي الكوفة، يزعم أنّه ابن رسول الله ﷺ وباقر العلم ومفسّر القرآن»^(٥).

-
- ١ - محمد أبو زهرة: الإمام الصادق (حياته وعصره، آراؤه وفقهه)، ص ٢٢.
 - ٢ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ص. ٢٨٠-٢٨٢.
 - ٣ - باقر شريف القرشي: حياة الإمام الباقر، ج ١، ص ١٣٩.
 - ٤ - جمال الحسيني (ابن عتبة): عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، ص ١٩٥.
 - ٥ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٥٠.

ثانياً: التركيز على الجانب الخُلُقِيّ والتربويّ:

وضع الإمام ﷺ الأسس المتينة للنظام الخُلُقِيّ الشامل، الذي ينظّم حياة الفرد والمجتمع. وفي ما يأتي إشارة موجزة إلى بعض جوانبه:

١. الحثّ على الصفات الحميدة: فقد شجّع ﷺ على التدرّب في مسالك الأخلاق الفاضلة، وضرورة اتّصاف النفس بالخصال الحسنة؛ حيث قال: «عليكم بالورع والاجتهاد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة إلى من ائتمنكم عليها برّاً كان أو فاجراً؛ فلو أنّ قاتل علي بن أبي طالب ﷺ ائتمني على أمانة لأديتها»^(١).

٢. فضل حسن الخُلُق: وغرس في النفوس محبة الرفق وحسن المعاملة، مؤكّداً أنّ: «من أُعطي الخلق والرفق فقد أُعطي الخير كله، والراحة، وحسن حاله في دنياه وآخرته. ومن حُرّم الرفق والخلق كان ذلك له سبيلاً إلى كل شر وبليّة إلا من عصمه الله تعالى»^(٢).

٣. ربط العلاقات بالله تعالى: وحثّ ﷺ على أن تقوم الروابط والعلاقات بين الناس على أساس القرب من الله أو البعد

١ - الحسن بن علي بن شعبة الحرّاني: تحف العقول عن آل الرسول، ص ٢٩٩.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٨٦.

عنه، مستشهداً بأحاديث لرسول الله ﷺ تؤكد هذا المبدأ، منها قوله: «وَدُّ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ فِي اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ شَعْبِ الْإِيمَانِ، وَمَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَأَعْطَى فِي اللَّهِ، وَمَنَعَ فِي اللَّهِ، فَهُوَ مِنْ أَصْفِيَاءِ اللَّهِ»^(١).

٤. ذم إكراه الفاسق: ونقل (عليه السلام) عن رسول الله ﷺ تحذيره من إكراه أهل الشرّ خشية أذاهم، فقال: «أَلَا إِنَّ شَرَّ أُمَّتِي الَّذِينَ يُكْرِمُونَ مَخَافَةَ شَرِّهِمْ، أَلَا وَإِنَّ مِنْ أَكْرَمِهِ النَّاسِ اتِّقَاءَ شَرِّهِ فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

٥. الحضّ على الأدب: حيثُ حثّ أتباعه على التمسك بحسن الأدب والسيرة الطيبة، قائلاً: «ما استوى رجلان في حسب ودين قطّ إلا كان أفضلهما عند الله آدبهما»^(٣).

٦. أهميّة الزهد: وروى (عليه السلام) عن أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) قوله الذي يبيّن فضل الزهد: «إِنَّ مِنْ أَعْوَنِ الْأَخْلَاقِ عَلَى الدِّينِ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا»^(٤). فقد حثّ الإمام (عليه السلام)

١ - محمد بن الحسن (الحرّ العاملي): وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٦٦.
 ٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٧٢.
 ٣ - محمد بن الحسن (الحرّ العاملي): وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢٢١.
 ٤ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٢، ص ١٢٨.

أُتباعه على التحلي بالأخلاق الفاضلة، موضِّحاً أنَّ أساسها العبادة واللجوء إلى الله طلباً للمعونة، فقال: «ما من عبادة أفضل من عفة بطن وفرج، وما من شيء أحبُّ إلى الله من أن يُسأل، وما يدفع القضاء إلا الدعاء، وإن أسرع الخير ثواباً البر...»^(١).

٧. الصلة الوثيقة بالله تعالى: بين الإمام (عليه السلام) أنَّ الصلة الدائمة بالله والانقياد له والعزم على طاعته تُنقي القلوب وتزكي النفوس، مؤكِّداً أن: «من يعص الله لا يعرفه حق المعرفة». فالمعرفة الحقيقية تولد المحبة، والمحبة الصادقة تمنع المرء من معصية من يحب. قال (عليه السلام): «ما عرف الله من عصاه»^(٢).

٨. الاعتراف بالخطأ والعودة إلى الله: يهدف منهج أهل البيت (عليهم السلام) إلى معالجة النفوس وإيقاظ جوانب الخير فيها، ومحاربة دوافع الشر والضعف والغفلة. وقال الإمام (عليه السلام): «والله لا ينجو من الذنب إلا من أقرَّ به»^(٣). فالتوبة تمحو الآثام وتمكِّن الإنسان من العودة إلى طريق الاستقامة من

١ - ابن الصباغ: الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، ج ٢، ص ٨٨٥.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٧٤.

٣ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٤٢٦.

جديد، وقال في ذلك: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، ومن يصِرَّ على الذنب وهو يستغفر منه كالمستهزئ»^(١).
 ٩. تعميقُ الشعور بالحياء: أكَّد الإمام (عليه السلام) على ضرورة أن يتسلَّح الإنسان بضابط داخلي يردعه عن فعل القبيح، وهو الحياء، الذي يمثِّل حصانة قويَّة تمنع الأهواء والشهوات من الانطلاق بلا قيود. فقال (عليه السلام): «الحياء والإيمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه»^(٢).

ثالثاً: العلم والتعلُّم.. ركيزتان رئيستان:

شجَّع الإمام (عليه السلام) على السعي لطلب العلم، ولا سيَّما علم الفقه، مُعتبراً أنَّ: «غاية الكمال تكمنُ في التفقه في الدين، والصبر على المصائب، وحسن تدبير المعيشة»^(٣).

واهتمَّ (عليه السلام) بنشر العلم وتعليمه للناس، قائلاً: «من علَّم الناس طريق هدى فله مثل أجر كل من عمل به، دون أن ينقص من أجورهم

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦، ص ٤١.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٢، ص ١٠٦.

٣ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٢.

شيء^(١)، وجعل للعلم زكاة يؤدّيها العالم فقال: «زكاة العلم أن تعلّمه عباد الله»^(٢).

رابعاً: إعداد الفقهاء والمحدثين:

لم يكتفِ الإمام ﷺ بحفظ الدين بما فيه من تفسير وتفصيل في الأحاديث ووضع القواعد المساعدة على الفهم، بل نجده اهتمّ بتربية ثلّة من الأصحاب وحملة الحديث جعلهم يتفرّغون لذلك، ومن بينهم (إبراهيم بن نعيم العبدي الكناني)، و(الحسن بن علي الأحمر الكوفي)، و(إبراهيم بن معرض الكوفي)، و(حماد بن بشير الطنافسي الكوفي)، و(إبراهيم بن عمر الصنعاني اليماني)، و(إسماعيل بن جابر الخثعمي الكوفي بشير)، و(أبو عبد الصمد بن بشير الكوفي)، و(بكير بن أعين بن سنسن الشيباني)، وغيرهم كثير^(٣).

وعهد إلى ابنه الإمام الصادق ﷺ أن يتولّى القيام بنفقاتهم حتّى تخرّجت على يديه كوكبة من عيون الفقهاء والعلماء. ويذكرهم الإمام الصادق ﷺ بقوله: «كَانَ أَصْحَابُ أَبِي وَاللَّهِ خَيْرًا مِنْكُمْ، كَانَ أَصْحَابُ

١ - محمد بن الحسن (الحر العاملي): وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٧٣.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي ج ١، ص ٤١.

٣ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ١٢٧.

أبي ورقًا لا شك فيه^(١). وقد ذكرتُ كتبُ التراجم ترجمة أربعمئة واثنين وثمانين شخصًا من تلامذته وأصحابه، منهم العظماء أمثال (أبان بن تغلب) الذي قال له الإمام (عليه السلام): "اجلس في مسجد المدينة، وأفتِ الناسَ فإنِّي أحبُّ أن يُرى في شيعتي مثلك"^(٢).

خامسًا: القرآن الكريم.. دستور العقيدة والمنهاج الهادي:

حضَّ الإمام الباقر (عليه السلام) المؤمنين على المداومة على تلاوة كتاب الله العزيز؛ إذ يعدّ المصدر الأساس والدستور الخالد الذي يهدي الناس إلى الصراط المستقيم. وقد روى (أبو بصير) أنّه قال للإمام (عليه السلام): عندما أرفع صوتي بتلاوة القرآن، يأتيني الشيطان ويوسوس لي بأنّ فعلي هذا رياءٌ لأهلي والناس، فردّ عليه الإمام (عليه السلام) قائلاً: "يا أبا محمّد اقرأ قراءة ما بين القراءتين تسمع أهلك، ورجّع بالقرآن صوتك فإنّ الله يحبّ الصوت الحسن يُرجّع فيه ترجيعاً"^(٣).

كما أبدى الإمام (عليه السلام) رفضه القاطع للمنهج التفسيري القائم على

١ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الكشي (اختيار معرفة الرجال)، ج ٢، ص ٦٣٩.

٢ - محمد بن الحسن (الحر العاملي): وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٣١٧.

٣ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٦١٦.

الآراء الشخصية والهوى، فحين دخل عليه الفقيه المشهور (قتادة)، سأله الإمام ﷺ: "أنت فقيه أهل البصرة؟" فأجاب (قتادة): "نعم، هكذا يزعمون"، فقال الإمام ﷺ: «بلغني أنك تفسر القرآن»، فأكد (قتادة) ذلك، فأنكر الإمام عليه منهجه قائلاً: «يا قتادة إن كنت قد فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلك، وإن كنت قد فسرت من الرجال فقد هلكت وأهلك، يا قتادة، ويحك، إنما يعرف القرآن من خوطب به»^(١).

سادساً: موقع السنة الشريفة وأهميتها في فهم الدين:

أولى الإمام الباقر ﷺ الحديث النبوي اهتماماً بالغاً، حتى إن (جابر بن يزيد الجعفي) قد روى عنه ما يزيد عن سبعين ألف حديث. كما نقل عنه مجموعة كبيرة من تلاميذه وأصحابه، مثل (أبان بن تغلب)، قدراً ضخماً من هذا التراث الثمين^(٢).

ولم يقتصر دور الإمام ﷺ على مجرد نقل الحديث ونشره، بل حث على التعمق في فهمه وإدراك مراميهِ، حتى جعل معيار تفاضل الراوي

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٨، ص ٣١١.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ١٤٠.

وقيمته هو مدى فهمه للحديث وإحاطته بمعانيه ودقائقه. وقد ورد عنه قوله: «اعرف منازل الشيعة على قدر رواياتهم ومعرفتهم، فإن المعرفة هي الدراية للرواية، وبالدراية للرواية يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان»^(١).

سابعاً: تنقية العقيدة وتصحيحها:

تناول الإمام أبو جعفر الباقر (عليه السلام) في عدد من دروسه وحواراته المسائل العقديّة والمعقّدة، وأجاب عن أعوص الأسئلة وأدقّها في علم الكلام. وقد سأله رجل قائلاً: أخبرني عن ربّك متى كان؟ فردّ عليه الإمام (عليه السلام) قائلاً: «ويلك! إنّما يقال لشيء لم يكن متى كان؟ إنّ ربّي تبارك وتعالى كان ولم يزل حيّاً بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كون. كيف! ولا كان له أين، ولا كان في شيء، ولا كان على شيء، ولا ابتدع لمكانه مكاناً، ولا قوي بعدما كوّن الأشياء، ولا كان ضعيفاً قبل أن يكوّن شيئاً...»^(٢).

١ - القرشي: حياة الإمام محمد الباقر، ص. ١٤٠-١٤١.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص. ٨٨-٨٩.

الفصل الثامن:

الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام

مع الإمام الصادق (عليه السلام) تدخل مدرسة أهل البيت طورَ الازدهار المؤسّس: انكسارُ الدولة الأمويّة، وارتخاءُ قبضة المراقبة، وصراعُ شرعيّاتٍ يتنازع موضعَ «النطق باسم الدين». في هذا الفراغ تشكّل جامعةٌ حيّةٌ للعلم: حلقاتٌ حديثٍ وفقهٍ وكلامٍ وتفسيرٍ، تلتقي فيها العقول من المذاهب والآفاق، ويُعاد فيها بناءُ المنهج من الداخل: مرجعيّة النصّ، ونقدُ القياس، وتقعيدُ الأصول، وتمرينُ الذهن على حلّ التعارض وضبط الاستدلال.

لا يقدّم الإمام الصادق (عليه السلام) معرفةً بلا عبادة، ولا عبادةً بلا أخلاق. يعلّم خشوعه حدودَ القول في حضرة الحقّ، ويشيّد حلمه أخلاقَ الاختلاف، ويربط سخاؤه العلمَ بمقاصده. ومن موقع المرجعيّة المتجاوزة للانتماءات الضيقة، تُخاض معاركُ التصحيح الهادئ: ليس استعراض غلبة في مناظرة، بل ترميمًا لبنية الفهم، وتحريرًا للفتيا من رطانة الظنّ، وتوسيعًا لدوائر التعلّم إلى حيث تصبح المدينة منبرًا مفتوحًا، وبيتُ الإمام مختبرًا دائمًا لإنتاج العلم.

يرصد هذا الفصل هذا التحوّل: من «نصّ يُسمع» إلى «منهج يُدرّس»، ومن «تلقي الرواية» إلى «دراية الرواية».

المبحث الأول: سيرة ذاتية مضيئة

أولاً: لمحة موجزة عن حياته المباركة ﷺ:

وُلد الإمام جعفر بن محمد الصادق ﷺ في المدينة المنورة في السابع عشر من ربيع الأول سنة ٨٣ للهجرة، الموافق ليوم الاثنين. وقد حظيت ولادته ببركة خاصة إذ وافقت تاريخ مولد جدّه رسول الله ﷺ. أبوه هو الإمام محمد الباقر ﷺ، وأمّه السيدة (فاطمة بنت القاسم)، والتي كانت تُكنّى بـ (أم فروة). وقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله عنها: «كانت أُمّي ممن آمنت واثقت وأحسنّت، والله يحب المحسنين»^(١)، حتى أنّه كان يُعرف بين الناس بـ «ابن المكرّمة»^(٢).

تولّى الإمامة بعد استشهاد والده الإمام الباقر ﷺ بناءً على وصيّته، وامتدّت فترة إمامته لنحو ٣٤ عاماً، من سنة ١١٤ هـ حتى سنة ١٤٨ هـ. وعُرف الإمام ﷺ بعدّة ألقاب لُقّب بها، منها: الصابر، والفاضل، والطاهر، وأشهرها جميعاً هو «الصادق». كما كان له كنيّتان هما: أبو

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٩٣.
٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٦٧.

عبد الله وأبو إسماعيل، وأشهرهما أبو عبد الله.

ورُزق الإمام الصادق (عليه السلام) عشرة أولاد بين ذكور وإناث، وهم: الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) (وأمه أم ولد)، و(إسماعيل)، و(عبد الله)، و(أم فروة) (وأُمهم فاطمة بنت الحسين الأثير)، و(إسحاق)، و(محمد)، و(العبّاس)، و(عليّ)، و(أسماء)، و(فاطمة) وأُمهاتهم أم ولد^(١).

وقبيل استشهاده، أوصى بالإمامة من بعده لابنه الإمام موسى الكاظم (عليه السلام)^(٢). ووفقاً للروايات التاريخية، لقي الإمام (عليه السلام) حتفه مسموماً في شهر شوال سنة ١٤٨ هـ بأمر من الخليفة العباسي (المنصور)، عن عمر ناهز الخامسة والستين عاماً. ودفن (عليه السلام) في مقبرة البقيع في المدينة المنورة، إلى جوار آبائه الطاهرين (عليهم السلام).

ثانياً: تدينه وفضائل أخلاقه ومحاسنها:

تميّز الإمام الصادق (عليه السلام) بعلوّ أخلاقه ونبيلها، حتى فاقت مناقبه حدّ الإحصاء، وأعجزت الوصف. ومن أبرز مواقفها في العفو ما نُقل عن رجل جاء إليه فقال: إنّ ابن عمّك فلاناً قد ذكرك بسوء، ولم يترك قبيحاً

١ - راجع: الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٢٠٩؛ الفضل بن الحسن الطبرسي، تاج المواليد، ص ٤٥.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٠٧.

من الشتم والانتقاص إلا ونطق به في حقك. فما كان من الإمام ﷺ إلا أن طلب من جاريته ماء للوضوء، ثم توضأً ودخل مصلاه. ظن الراوي أنه سيدعو على ذلك الشخص، لكنه صلى ركعتين ثم قال: "اللهم إنه قد أساء إلي، وأنا قد وهبت حقي له، وأنت أجود مني وأكرم، فاعف عنه ولا تؤاخذه بما قال في". ثم أخذ في الدعاء حتى تعجب الحاضر من شأنه^(١).

أما عن شدة عبادته وتقواه، فقد روي أنه كان يُسبِّح الله وهو في حالة الركوع ستين تسبيحة. فقد روى (أبان بن تغلب) أنه دخل على الإمام أبي عبد الله ﷺ أثناء صلاته، فعدّ له في الركوع والسجود ستين تسبيحة^(٢).

ولم يكن هذا الأمر خافياً على معاصريه، حتى إن (مالك بن أنس) - إمام المذهب المالكي - قال عنه: "ما رأيت جعفر بن محمد إلا على إحدى ثلاث حالات: إما صائماً، وإما قائماً يصلي، وإما يذكر الله. وكان من أعبد الناس وأورعهم، يهابه المرء لمخافته الله عز وجل. وكان كثير الحديث، طيب الصحبة، كثير العلم، فإذا قال: قال رسول

١ - الفضل بن الحسن الطبرسي: مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، ص ٣٨٠.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٢٩.

الله، تغير لونه حتى يصفر أحياناً ويخضر أحياناً، فلا يعرفه من يعرفه.“
ويضيف (مالك بن أنس) في شهادة أخرى: ”صحابته في حجة، فلما أراد أن يهلّ بالتلبية ويبدأ مناسك الحج، كلما همّ أن يقول لبيك اللهم لبيك، انقطع الصوت في حلقه وكاد يسقط من على دابته من شدة الخشية. فقلت له: يا ابن رسول الله، لا بدّ لك من التلبية. فأجابني (عليه السلام): «كيف أجرو على قول لبيك، وأخشى أن يقول الله لي: لا لبيك ولا سعديك»^(١).

ثالثاً: نفحات من عطائه العلمي:

تكشف الشهادات التاريخية عن المكانة العلمية الرفيعة التي تمتع بها الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) بين معاصريه. فقد وصفه (كمال الدين محمد بن طلحة) بقوله: ”كان من أعظم شخصيات أهل البيت (عليه السلام)، جمع علوماً واسعة، وواظب على العبادة، وأدام تلاوة القرآن، وتفكّر في معانيه، واستخرج كنوزه، واكتشف أسرارهِ، ونظّم أوقاته لأنواع الطاعات حتى كان يحاسب نفسه عليها. منظره يذكر بالآخرة، وكلامه يزهد في الدنيا، واتباع منهجه يوصل إلى الجنة. نور محياه يشهد بنسبه النبوي،

وطهارة سلوكه تدل على انتسابه للرسالة“.

وقد تتلمذ على يديه عدد كبير من علماء المذاهب المختلفة، ومن أبرزهم: (يحيى بن سعيد الأنصاري)، و(ابن جريح)، و(مالك بن أنس)، و(السفيانين) -الثوري وابن عينة-، و(أبو حنيفة النعمان)، و(أيوب السختياني)، وغيرهم. وكان هؤلاء العلماء يعتبرون الأخذ عنه شرفاً عظيماً وفضيلة كبرى^(١).

كما برز من بين تلامذته عدد من كبار علماء الإمامية، مثل: (أبان بن تغلب)، و(إسحاق بن عمار)، و(بريد بن معاوية العجلي)، و(حريز بن عبد الله السجستاني)، و(حمران بن أعين الشيباني)، و(زرارة بن أعين)، و(صفوان بن مهران)، وغيرهم كثير^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ علماء الفرق الإسلامية أجمعوا على اعترافهم بسعة علم الإمام الصادق (عليه السلام) وتفوقه العلمي. ومن الشواهد على ذلك ما رُوي عن (أبي حنيفة) عندما استدعاه الخليفة المنصور لاختبار الإمام الصادق (عليه السلام)؛ حيث قال: ”هَيَّأتُ له أربعين مسألة عويصة، فلمَّا دخلت عليه هبَّته أكثر مما هبَّتُ المنصور نفسه. ثم بدأت ألقى عليه

١ - أبو الحسن الأربلي: كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج ٢، ص ٣٦٨.

٢ - راجع: محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ١٥٥.

الأسئلة، فكان يجب عن كل مسألة بقوله: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا... حتى أتيت على الأربعين مسألة فأجاب عنها جميعاً". ثم علّق (أبو حنيفة) بعد هذه الواقعة قائلاً: "أليس أعلم الناس أعلمهم باختلاف العلماء؟!"^(١).

لقد نقل الرواة عن الإمام الصادق (عليه السلام) من العلوم ما ملأ الآفاق، وانتشر ذكره في كل الأقطار، ولم ينقل عن أي أحد من أهل بيته من العلوم ما نقل عنه^(٢).

المبحث الثاني: السّياق التاريخي لعصر الإمام الصادق (عليه السلام)

يُمثّل العصر الذي عاش فيه الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) مرحلة انفتاح فكريّ واستثنائيّ لمدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، خاصّة إذا قورن بالمراحل السابقة التي مرّت بها مسيرة الأئمة الإسلامية.. وقد أسهمت عوامل متعدّدة في تحقيق هذا الانفتاح، يأتي في مقدّماتها:

١ - راجع: محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٢١٧؛ أسد حيدر: الإمام الصادق، ج ٤، ص ٣٣٥.

٢ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ص ٢٧٠.

١. الضعف التدريجي والانحيار النهائي للدولة الأموية سنة ١٣٢هـ.

٢. المرحلة الانتقالية الهشة التي مرت بها الدولة العباسية في

بداياتها.

هذه الظروف السياسية المضطربة شغلت الحكام الجدد عن ملاحقة شخصيات أهل البيت ﷺ، ما أتاح للإمام الصادق عليه السلام مساحة من الحرية النسبية، فابتعد عن المواجهات السياسية المباشرة، وكرس جهوده للنشاط العلمي والثقافي. لذلك أطلق على هذه الفترة "عصر انتشار علوم آل محمد ﷺ".

كان لهذا المناخ الإيجابي تأثير مباشر على أتباع مدرسة أهل البيت بالذات؛ حيث تمتع شيعة ذلك العصر وأعلامهم بأمان غير مسبوق، وظهر ولاؤهم لخط مدرسة أهل البيت ﷺ بشكل علني، وعرفوا به بين الناس. كما أن عدم وجود منافسة قوية على نشر الأحكام الشرعية سمح للإمام عليه السلام بتكريس جهوده التعليمية دون عوائق.

حضر كثير من الناس والعلماء من الشيعة ومن غيرهم، مجالس الإمام عليه السلام العامة والخاصة^(١)، واغترفوا من علمه الغزير، ما أدى إلى

١ - محسن بن علي (آغا بزرك) الطهراني: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج ٢، ص ١٣٢.

ذروة الازدهار العلمي والفكري في عصره. وتحوّلت المدينة المنورة إلى مركز إشعاع علمي، يقصدها طُلّاب المعرفة من مختلف الأقطار الإسلاميّة، وتعدّدت فيها حلقات الدرس، وكان بيتُ الإمام (عليه السلام) تحوّل لما يشبه الجامعة الإسلاميّة الكبرى التي تضمّ كثيراً من علماء الحديث ورواته من مختلف المدارس والمشارب والمستويات، يتعلّمون في ظلّه، وينهلون من معين علمه الذي لا ينضب.

وقد تناقل الرواة عن الإمام الصادق (عليه السلام) من العلوم والمعارف ما جعل شهرته تنتشر في كل الآفاق والأمصار والأقطار، وتجاوز صيته حدود الزمان والمكان^(١).

المبحث الثالث: منهجيّة الإمام الصادق (عليه السلام) في الإصلاح العلميّ

سعى الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) إلى معالجة الواقع العلمي السائد، وخاصّة في المجال الفقهي، معالجةً علميّة رصينة وشاملة. وتمثّلت خطّته الإصلاحية في مجموعة من الإجراءات المتسلسلة، كان من أبرزها:

١ - ابن حجر العسقلاني: الصواعق المحرقة، ص ١٩٩.

أولاً: نقدُ منهج الاجتهاد القائم

تصدَّى الإمام الصادق ﺍﻟﻤُﺒَﺘَّﺎﺋِﻴﻦ لتصحیح المنهج الفقهي السائد الذي اعتمد على القياس، معتبراً إياه منحرفاً عن جادة الصواب. وقد ورد عنه قوله: "أصحاب المقاييس طلبوا العلم بالمقاييس، فلم تزدِهم المقاييس من الحقِّ إلا بُعداً، وإنَّ دينَ الله لا يُصاب بالمقاييس"^(١)، مؤكِّداً أنَّ الحقائق الدينيَّة لا تُدرك بمثل هذه الأدوات العقليَّة المحضه.

ثانياً: تأسيس منهجيَّة التعامل مع الشريعة

عمل الإمام الصادق ﺍﻟﻤُﺒَﺘَّﺎﺋِﻴﻦ على وضع أُسس منهجيَّة واضحة لاستنباط الأحكام الفقهيَّة من مصادرها الأصليَّة. وقد تجسَّد هذا المنهج في المؤلَّفات التي دوَّنها تلامذته في مجالات أصول الفقه والفقه والحديث، والتي اتَّسمت بالاستناد إلى مدرسة أهل البيت ﺍﻟﻤُﺒَﺘَّﺎﺋِﻴﻦ ورفض التعويل على الرأي الشخصي أو الاستحسان. ويمكن تفصيل هذا المنهج في النقاط الآتية:

١. إرساء مرجعيَّة النص: حصر الإمام ﺍﻟﻤُﺒَﺘَّﺎﺋِﻴﻦ الحجِّيَّة في

النصوص الصادرة عن النبي مُحَمَّد ﷺ والمعصومين

من أهل بيته عليه السلام. ورُوي عنه أنّه قال: "حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ" ^(١).

٢. تحديد مصادر الفتيا: نفى الإمام عليه السلام أن تكون فتاواه نابعة من آرائه الشخصية، رغم مكانته العلميّة السامقة، وقال: "إنّا لو كنّا نفتي الناس برأينا وهوانا لكنّا من الهالكين ولكنّا نفتيهم بآثار من رسول الله صلى الله عليه وآله وأصول علم عندنا نتوارثها كابراً عن كابر، نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضّتهم" ^(٢).
٣. وضع أطر التفقه: علّم الإمام طلابه آليّة استنباط الأحكام من مصادرها وكيفيّة التعامل مع الروايات التي تبدو متعارضة. وتمثّلت مكوّنات هذه الآليّة في:

أ. معيارية القرآن: أوجب عليه السلام رفض أي رواية تعارض القرآن الكريم، واصفاً إياها بالزخرف، وقال: "ما لم

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٥٣-٥٨.

٢ - محمد بن الحسن الصفار: بصائر الدرجات، ص ٣٠٠.

يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف“^(١). وقال أيضاً:
 ”إِنَّ عَلَى كُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، وَعَلَى كُلِّ صَوَابٍ نَوْرًا فَمَا
 وَاَفَقَ كِتَابَ اللَّهِ فَخُذُوهُ وَمَا خَالَفَ كِتَابَ اللَّهِ فَدَعُوهُ“^(٢).
 ب. آليّة حل التعارض: في حال تعارض الروايات، وجّه
 (عليه السلام) نحو عرضها على الكتاب والسُّنّة، فما وافقهما
 قُبِلَ، وإلا فالحكم للروايات الأكثر قوّة وموثوقيّة..
 يقول (عليه السلام): ”إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً
 من كتاب الله أو من قول رسول الله ﷺ، وإلا فالذي
 جاءكم به أولى به“^(٣).

ج. التفريعُ على الأصول: أوكل الإمام (عليه السلام) إلى تلامذته
 مهمّة البناء على القواعد الكلّيّة التي يزودهم بها، فقال:
 ”إنّما علينا أن نلقي إليكم الأصول وعليكم التفريع“^(٤).
 د. تأسيس القواعد الكلّيّة: أسس الإمام (عليه السلام) جملة من
 القواعد الفقهيّة والأصوليّة الشاملة التي شكّلت لاحقاً

١ - محمد بن الحسن (الحر العاملي): وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٧٨.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٦٩.

٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٢٦٢.

٤ - محمد بن إدريس الحلي: السرائر، ج ٣، ص ٥٧٥.

نواة لعلم أصول الفقه وأدوات الاجتهاد في عصر الغيبة. جاء عن (موسى بن بكر)، قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام)، الرجل يُغْمَى عليه يوماً أو يومين أو الثلاثة أو الأربعة أو أكثر من ذلك، كم يقضي من صلاته؟ قال: "ألا أخبرك بما يجمع لك هذه الأشياء كلها؟ كلما غلب الله عليه من أمر فالله أعذر لعبده"^(١).

هـ. تشجيع الإفتاء: حث الإمام (عليه السلام) فقهاء أصحابه على القيام بمهمة الإفتاء، كما هو واضح في قوله لـ (أبان بن تغلب): "اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس، فإني أحب أن يُرى في شيعتي مثلك"^(٢).

المبحث الرابع: العناية بالتدوين

تميّزت مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) بالحثّ على كتابة العلم وتدوينه، وكان (عليه السلام) يوصي تلامذته بالاحتفاظ بكتبهم قائلاً: "احتفظوا بكتبكم

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): الخصال، ج ٢، ص ٦٤٤، أبواب ما بعد الألف، ح ٢٤.

٢ - محمد بن علي الأردبيلي: جامع الرواة، ج ١، ص ٩.

فإنكم سوف تحتاجون إليها“^(١)، ما أسهم في حفظ تراث أهل البيت ﺍﻟﻤُﻮﺳَّوِﺋِﻴﻦ.

أولاً: إعادة التأكيد على مرجعية الكتاب والسنة

أكد الإمام ﺍﻟﻤُﻮﺳَّوِﺋِﻴﻦ على أنَّ القرآن والسُّنَّة هما المصدران الشاملان لكل ما تحتاجه الأمة. جاء عن (مُرازم) عن أبي عبد الله ﺍﻟﻤُﻮﺳَّوِﺋِﻴﻦ، قال: ”إنَّ الله تبارك وتعالى أنزلَ في القرآن تبيان كلِّ شيء، حتَّى والله ما ترك الله شيئاً يحتاج إليه العباد، حتَّى لا يستطيع عبد أن يقول: لو كان هذا أنزل في القرآن، إلّا وقد أنزل الله فيه“^(٢). وعن (المعلّى بن خنيس) قال: قال أبو عبد الله ﺍﻟﻤُﻮﺳَّوِﺋِﻴﻦ: ”ما من أمرٍ يختلفُ فيه اثنان، إلّا وله أصلٌ في كتاب الله، ولكن لا تبلغه عقول الرجال“^(٣).

ثانياً: رحابة الصدر واتساع الجامعة العلمية

واجه الإمام الصادق ﺍﻟﻤُﻮﺳَّوِﺋِﻴﻦ التيارات الفكرية المختلفة في عصره وأثبت تفوق الفكر الإسلامي الأصيل. ولم تنحصر حلقة علمه بشيعة

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٥٢.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٥٩، كتاب فضل العلم، الباب ٢٠، باب الرد الى الكتاب، ح ١.

٣ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٦٠، ح ٦.

أهل البيت فحسب، بل ضُمَّت علماء من مختلف المذاهب، وكان أئمة بعضها -ك- (أبي حنيفة) - من المتتبعين بشكل مباشر أو غير مباشر من علمه، حيث لازمه (أبو حنيفة) عامين، واعتبرهما مصدر علمه، وكان يقول: "لولا الستتان لهلك النعمان"^(١).

وقد توافد طلبة العلم إليه من أقطار العالم الإسلامي كافة (الكوفة، والبصرة، والحجاز...) ومن قبائل عدّة^(٢).. وبلغ عدد الرواة عنه في مسجد الكوفة وحدها -كما يروي (الحسن الوشاء)- تسعمئة شيخ^(٣). وكان الإمام (عليه السلام) يشجّع كلّ تلميذ على التخصص في المجال الذي يبدع فيه (حديث، تفسير، كلام...). بل وكان يحيل العلماء القادمين للمناظرة إلى تلامذته المتخصصين، كما في قصّة الرجل الشامي، حيث أوكله إلى (حمران) في القرآن، و(أبان بن تغلب) في النحو، و(زرارة) في الفقه، و(مؤمن الطاق) في الكلام، و(هشام بن الحكم) في الإمامة، فغلبوه جميعاً، ما أظهر سعة علم مدرسته وفرح الإمام (عليه السلام) بذلك^(٤).

١ - أسد حيدر: الإمام الصادق، ج ١، ص ٧٠، كان اسم أبي حنيفة النعمان بن ثابت.

٢ - أسد حيدر: الإمام الصادق، ج ١، ص ٣٨.

٣ - أحمد بن علي النجاشي: فهرست مصنفى الشيعة، ص ٣٩-٤٠.

٤ - محمد بن الحسن الطوسي: اختيار معرفة الرجال، ج ٢، ص ٥٥٥.

المبحث الخامس: موقفُ الإمام الصادق ﺍﻟﻌﻠﻴﻪ ﺍﻟﺴﻼﻡ من حُكم (المنصور)

أثارت المكانةُ العلميَّةُ والشَّعيَّةُ للإمام الصادق ﺍﻟﻌﻠﻴﻪ ﺍﻟﺴﻼﻡ قلقَ الخليفة العباسي (أبو جعفر المنصور)، فكان يستدعيه بين الحين والآخر إلى العراق تحت حجج مختلفة، مُضمراً النيةَ لاغتياله، لكنَّ الإمام ﺍﻟﻌﻠﻴﻪ ﺍﻟﺴﻼﻡ كان يتجنَّب المخاطر بأسلوب حكيم^(١).

وراقب (المنصور) أنشطة الشيعة في المدينة عن كثب عبر جواسيسه^(٢)، وكان يصدر أوامره بقتل من يثبت تشيعه. وفي هذا الجو، منع الإمام ﺍﻟﻌﻠﻴﻪ ﺍﻟﺴﻼﻡ أصحابه من التعاون مع النظام الحاكم بأي صورة، وردَّ على من سأله عن العمل في مشاريع الدولة بقوله: ”ما أحب أن أعقد لهم عقدة... إنَّ أعوانَ الظَّلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتَّى يحكمَ اللهُ بينَ العباد“^(٣).

وحذَّر ﺍﻟﻌﻠﻴﻪ ﺍﻟﺴﻼﻡ العلماء من الارتباط بالسلطة، قائلاً: ”الفقهاء أمناء

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٦٢-٢١٢، وقد عقد محمد باقر المجلسي فصلاً خاصاً للمواجهات التي كانت بين الإمام والمنصور.

٢ - محمد بن الحسن الطوسي: اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، ص ٢٨٢.

٣ - محمد بن الحسن (الحر العاملي): وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٢٩.

الرسول، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتهموهم“^(١). وعندما كتب إليه (المنصور) محاولاً استمالته: ”لولا تغشانا كما يغشانا سائر الناس“، ردَّ عليه الإمام عليه السلام ردًّا حكيماً مفعماً بالزهد في دنياهم والبراءة من سلوكهم: ”ما عندنا من الدنيا ما نخافك عليه، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له... فلم نغشاك؟!“، وعندما حاول (المنصور) مرةً أخرى طلب النصيح، أجابه: ”من أراد الدنيا فلا ينصحك، ومن أراد الآخرة فلا يصحبك“^(٢).

١ - أسد حيدر: الإمام الصادق، ج ٣، ص ٢١، نقلاً عن حلية الأولياء.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٨٤.

الفصل التاسع:

الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام

إذا كان الإمامان الباقر والصادق (عليهما السلام) قد شيّدا معمار المدرسة، فإن الإمام الكاظم (عليه السلام) يحفظ استمراريتها تحت سقف القمع العباسي: معرفة تُصان في السرّ، وشبكاتُ تواصلٍ تتشكّل بين جدران السجون، وسياسةُ رفضٍ خُلقي تُعرّي شرعيّة الحكم وهي تُجنّب الجماعة حروب الاستنزاف. هنا يغدو «الكظم» استراتيجيةً نجاةً ورسالةً قوّة: ردّ الإساءة بالإحسان ليس ترفاً روحياً، بل بناءً لصورة عامّة تغلبُ سطوة البلاط، وتثبيتاً لقيادة لا تحتاج مقعد السلطان لتوجّه الوجدان.

يتقدّم الفصلُ عبر ثلاثة محاور: سياقٌ تاريخيٌّ تتكثّف فيه الوشائات والصراع على الشرعيّة، ومشروعُ صيانةٍ علميّةٍ يمدّ جسوراً بين جيليّ التأسيس والتعقيد، وعملٌ سياسيٌّ هادئٌ يزاوج بين كشف الطغيان والتأثير من داخل مؤسساته من غير أن يمنحها براءة ذمّة.

المبحث الأول: سيرة الإمام موسى الكاظم (عليه السلام)

أولاً: لمحة تاريخيّة مضيئة

وُلد الإمام موسى بن جعفر الكاظم (عليه السلام) في السابع من صفر سنة ١٢٨هـ في منطقة «الأبواء» الواقعة بين مكّة والمدينة. وكان أبوه الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، وأمّه السيّدة حميدة (عليها السلام) التي وُصفت بالإمام

الباقر (عليه السلام) بقوله: "حَمِيدَةٌ فِي الدُّنْيَا، مَحْمُودَةٌ فِي الْآخِرَةِ"^(١).
 تميّزت علاقة الإمام الصادق (عليه السلام) بابنه الكاظم (عليه السلام) بمحبة فائقة،
 حتى إنه أجاب حين سُئِلَ عن درجة حبه له: "وَدِدْتُ أَنْ لَيْسَ لِي وَلَدٌ
 غَيْرُهُ حَتَّى لَا يُشْرِكُهُ فِي حُبِّي لَهُ أَحَدٌ"^(٢).

ومن أبرز ألقابه (عليه السلام): (العبد الصالح)، (الصابر)، (الأمين)، و(باب
 الحوائج). لكن لقب "الكاظم" هو أشهرها على الإطلاق، وذلك
 لعظيم صبره وكظمه للغيت، وإحسانه إلى من أساء إليه، مع ما تعرض
 له من أذى كبير^(٣).

وكانت كنيته الأشهر "أبو الحسن". تولى الإمامة بعد استشهاد أبيه
 الإمام الصادق (عليه السلام) سنة ١٤٨ هـ، واستمرت إمامته ٣٥ عامًا حتى سنة
 ١٨٣ هـ.

رُزِقَ الإمام الكاظم (عليه السلام) بسبعة وثلاثين ولدًا، من بينهم الإمام علي بن
 موسى الرضا (عليه السلام)، و(إبراهيم)، و(العباس)، و(القاسم)، و(إسماعيل)،
 و(جعفر)، و(هارون)، و(الحسين)، و(فاطمة الكبرى)، و(فاطمة

١ - راجع: محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ٤٧٦؛ سعيد بن هبة الله
 الراوندي: الجرائح والخراج، ج ١، ص ٢٨٦.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٠٩.

٣ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ١٦٤.

الصغرى)، و(رقية)، و(حكيمة)^(١).

قبل استشهاده، أوصى عليه السلام بالإمامة لابنه الإمام الرضا عليه السلام^(٢). وقد لقي ربه شهيداً مسموماً في سجن (السندي بن شاهك) ببغداد، في الخامس والعشرين من رجب سنة ١٨٣هـ، عن عمر يناهز ٥٤ عاماً، ودُفن في مقابر قريش المعروفة اليوم بالكاظمية المقدسة.

ثانياً: العبادة والتقرب إلى الله:

تميّز الإمام الكاظم عليه السلام بأنه كان أكثر أهل عصره عبادة واجتهاداً في الطاعة. وتشير الروايات إلى أنه كان يحيي ليلاته بالتهجد والصلاة حتى مطلع الفجر، فيؤدّي صلاة الصبح ثم يلتزم بالتعقيب إلى أن تشرق الشمس، ويظلّ ساجداً لله - تعالى - حتى اقتراب وقت الظهيرة. وكان من دعائه المتكرّر: ”اللهم إني أسألك الراحة عند الموت والعفو عند الحساب“^(٣)، مع الإلحاح في تكرار هذا المناجاة. كما كان يردّد أيضاً: ”عظم الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك“.

وكان عليه السلام يكثر من البكاء خشية من الله، حتى كانت دموعه تتدفّق

١ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٢٤٤.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣١١.

٣ - محمد بن يعقوب الكليني: ج ٣، ص ٣٢٣.

على لحيته الشريفة^(١). وقد جاء في زيارته المأثورة وصفٌ دقيق لحالة العبودية الخاشعة التي عاشها؛ حيث وُصف بأنه: "الذي يحيي الليل بالسهر إلى السحر، بالمواظبة على الاستغفار، رفيق السجدة الطويلة، والدموع الغزيرة، والمناجاة الكثيرة، والابتهالات المتواصلة الجميلة"^(٢).

وفي إحدى الليالي، دخل مسجد رسول الله ﷺ، وسجد سجدة عند بداية الليل، وسُمع وهو يردد في خشوع: "عظم الذنب عندي فليحسن العفو عندك، يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة"، وظل يكرر هذا الدعاء الخاشع حتى طلع الفجر^(٣).

ثالثاً: سجاياه الخُلُقِيَّة الحميدة:

تميّز الإمام الكاظم (عليه السلام) بمكانته الرفيعة، وغزارة تقواه وعبادته لله عزّ وجلّ. فكان دائم المواظبة على الطاعات، مشهوراً بآياته الخارقة، يقضي ليله راکعاً وساجداً، ويقضي نهاره صائماً ومتصدّقاً. ونظراً لشدة حلمه وصفحه عمّن أساء إليه، لُقّب بـ

١ - عباس القمي: منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، ج ٢، ص ٢٩١.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٩، ص ١٧.

٣ - أحمد بن علي (الخطيب البغدادي): تاريخ بغداد، ج ١٣، ص ٢٩.

”الكاظم“. كان عليه السلام يردّ الإساءة بالإحسان، ويقابل الجرم بالعفو والغفران.

ولفرط ما كان عليه من عبادة، أُطلق عليه ”العبد الصالح“، وعُرف في العراق بـ ”باب قضاء الحوائج عند الله“ نظراً لإجابة دعاء من يتوسّل به إلى الله تعالى. كان أعلم أهل زمانه وأجودهم وأكرمهم^(١).

كما عُرف بكثرة صلة أرحامه وإحسانه إلى فقراء المدينة بشكلٍ لافت، حتى إنّه كان يحمل إليهم ليلاً الطعام والمال من ذهبٍ وفضة دون أن يعرفوه. ومن مظاهر كرمه أن أعتق ألف عبدٍ من الرق^(٢).

واشتهر عليه السلام بالجود والعطاء، فإذا بلغه أن أحداً يؤذيه، كان يبعث إليه بهدية من المال قدرها ألف دينار. وكان يعمد إلى تجهيز حقب من النقود، يحوي بعضها ثلاثمئة دينار، وبعضها أربعمئة، ومئتين، ليوزّعها على أهل المدينة. وكانت هذه الصرّة تكفي من يأخذها ويغنيه عن سؤال الناس^(٣).

١ - محمد بن طلحة الشافعي: مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، ص ٤٤٧.

٢ - الشيخ عباس القمي: منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، ج ٢، ص ٢٩١.

٣ - الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ١٣، ص ٢٩.

المبحث الثاني: الإطار التاريخي والسياق العام

تعرَّضَ أبناء الإمام علي بن أبي طالب ﺍﻟﻌﻠﻴﻪ ﺍﻟﺴﻼﻡ وشيعتهم لمضايقات كثيرة، ولكثير من الملاحقات التي استمرَّت بقسوتها وظلمها وشدَّتها في عهد الحكَّام العبَّاسيين الذين طاردوهم في شتَّى أرجاء العالم الإسلامي، وسعوا محاولين استئصال شأفتهم خشية من ثوراتهم المحتملة، ومكانتهم الروحيَّة، ونفوذهم الكبير في وجدان العامَّة. وقد سُجِّلَ عددٌ كبيرٌ من الشهداء الذين قُتِلوا منذ تولي (أبي العبَّاس السفَّاح) الحكم وحتى استشهاد الإمام موسى بن جعفر ﺍﻟﻌﻠﻴﻪ ﺍﻟﺴﻼﻡ، بمن فيهم الشهيد (الحسين بن علي بن الحسن)، قائد ثورة فخ الذي استشهد عام ١٦٩هـ، وانتهاءً باستشهاد الإمام الكاظم ﺍﻟﻌﻠﻴﻪ ﺍﻟﺴﻼﻡ نفسه في سجن (هارون الرشيد) عام ١٨٣هـ، بعد سنواتٍ عجافٍ أمضاها في غياهب سجون هذا الطاغية.

أما على الصعيد الفكري والعلمي، فقد انتشرت الشبهات بين الناس، وظهرت عدد من الفرق والمذاهب والتيارات المنحرفة، بل ووصل بعضها إلى درجة إنكار وجود الله (الإلحاد)^(١).

المبحث الثالث: الحفاظ على الاستمرارية الفكرية والعلمية

أسَّس الإمامان الباقر والصادق (عليهما السلام) للمعارف والعلوم الإسلامية الأصيلية، ووضعوا الأطر والمناهج والمبادئ الأساس في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام). وقد اضطلع الإمام الكاظم (عليه السلام) بمهمة الحفاظ على هذه المسيرة العلمية المشرقة، فواصل الدور الذي بدأه والده الإمام الصادق (عليه السلام) في إعداد وتخريج جيلٍ من العلماء والطلاب الحاملين لواء الإسلام الأصيل، ما ضمن استمرار ازدهار هذه المدرسة ونمائها وتقدمها. كما سعى إلى نشر هذا العلم ومدّ نطاق تأثيره ليشمل مختلف العلماء والشخصيات البارزة في ذلك العصر. وحثَّ الإمام (عليه السلام) على أهمية تسجيل العلم وتدوينه، فكان العلماء يحضرون في مجلسه ومعدّات الكتابة بحوزتهم، فإذا ما نطق (عليه السلام) بحكمة أو أفتى في مسألة، بادروا إلى تدوين ما سمعوه منه مباشرة^(١). وقد نقل العلماء والفقهاء كثيراً من أحاديثه (عليه السلام) وقاموا بتسجيلها في مؤلفاتهم ومصادرهم، في مختلف حقول المعرفة التي تلقّوها عنه، رغم تباين مشاربهم واختلاف اتجاهاتهم، من فلسفة وتفسير وفقه وحديث، حتى انتشر وذاع صيت آرائه شرقاً وغرباً، وقطعت الإبل

١ - علي ابن طاووس: المجتنبى من دعاء المجتبى، ص ٢٧.

لأجله المسافات لتلقّي حديثه، والارتواء من نمير علومه. فكانت حلقة العلميّة امتداداً طبيعياً لمدرسة والده الإمام الصادق (عليه السلام)، ليصبح (عليه السلام) بعد رحيل أبيه القائد والرائد للحركة العلميّة والنهضة الثقافيّة في زمانه.

وكان من أبرز تلامذته الذين تتلمذوا على يديه: (إبراهيم بن عمر اليماني)، و(أحمد بن محمّد بن أبي نصر البيزنطي)، و(النضر بن سويد)، و(حماد بن عيسى الكوفي)، و(أبو عبد الله عبد الرحمن بن الحجاج البجلي الكوفي)، و(عبد الله بن جندب البجلي)، و(عبد الله بن يحيى الكوفي)، و(علي بن يقطين)، و(المفضل بن عمر)، و(هشام بن الحكم)، و(يونس بن عبد الرحمن)؛ حيث كان هؤلاء جميعاً من كبار علماء الحديث والرواية في عصرهم^(١).

المبحث الرابع: النشاط السياسيّ

انطلق الإمام الكاظم (عليه السلام) في مسار جديد تمثّل في المواجهة السياسيّة، متّخذاً خطوات عمليّة عدّة في هذا المجال. أمّا الخيار

١ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ٣٣١.

العسكري المباشر (الجهاد المسلّح) فلم يكن خياراً متاحاً؛ لأنّ الأُمَّة لم تكن مستعدّة له آنذاك، وهو ما تُظهره كلماته لـ (الحسين بن علي) (شهيد فخ) عندما رآه مصمّماً على الثورة: «إنّك مقتول فأجدّ الضراب، فإنّ القوم فسّاق يظهرون إيماناً ويضمرون نفاقاً وشركاً فإنّا لله وإنّا إليه راجعون وعند الله أحْتَسِبْكم من عصابة»^(١).

وتمثّلت مظاهر هذا العمل السياسي السلمي في عدة أمور:

أولاً: إثبات أحقيّة الإمام (عليه السلام) بالخلافة:

حيث انتقل هذا المبدأ من كونه قضيّة عقديّة إلى شكل من أشكال التحدّي السياسي وبناء الرأي العام. ومن الروايات الشهيرة في هذا السياق ما حدث عندما زار الخليفة (هارون الرشيد) قبر النبي (صلى الله عليه وآله) في حضور وجوه الدولة وأشرافها. فبعد أن وجّه (هارون) تحيّة للنبي قائلاً: "السلام عليك يا بن العم"؛ بهدف الافتخار بقرابته منه ودعم شرعيّة خلافته، بادر الإمام الكاظم (عليه السلام) الذي كان حاضراً بالموقف، فسلم قائلاً: "السلام عليك يا أبت". فغضب (هارون) غضباً شديداً وقال: "لمَ قلت إنّك أقرب إلى رسول الله منا؟". فردّ عليه الإمام (عليه السلام)

بحكمة: ”لو بُعث رسول الله حيًّا وخطب منك كريمتك هل كنت تجيبه إلى ذلك؟“ فأجاب (هارون) منفعلًا: ”سبحان الله! وإنِّي لأفتخر بذلك على العرب والعجم.“

فأوضح الإمام (عليه السلام) الفرق قائلاً: «ولكنَّه لا يخطب مني، ولا أزوجه؛ لأنَّه والدنا لا والدكم، فلذلك نحن أقرب إليه منكم»^(١).

ثانيًا: النفوذ إلى السلطة والتأثير من الداخل:

تمكَّن الإمام (عليه السلام) من توظيف بعض أتباعه المخلصين للتغلغل داخل دوائر صنع القرار، مؤسَّسًا بذلك شبكةً من الأعين داخل أروقة الحكم، تقوم بمهمَّة نقل التوجهات والخطط لتحذير أتباعه منها من ناحية، والسعي للتأثير في صياغة تلك القرارات لصالحهم من ناحية أخرى، أو على أقلِّ تقدير، العمل على خدمة المؤمنين وتخفيف المظالم عنهم بقدر المستطاع.

وكان (علي بن يقطين) -الذي شغل منصب وزير في بلاط (هارون الرشيد)- أحد أبرز هذه الشخصيات. وقد خاطبه الإمام الكاظم (عليه السلام): «يا عليّ إنَّ لله تعالى أولياءَ مع أولياء الظلمة ليدفع بهم عن أوليائه

وأنت منهم يا علي^(١).

وحرص الإمام (عليه السلام) حرصاً شديداً على سلامة (علي بن يقطين) وأمنه، وحمايته من أن ينكشف أمره لدى (هارون) وأعوانه. وذات مرة، أهدى الخليفة (الرشيدي) إلى (ابن يقطين) هدية ثمينة تضمّنت دراعة فاخرة، فبادر الأخير بإهدائها فوراً إلى الإمام (عليه السلام)، لكن الإمام ردّها إليه وكتب إليه يحذّره: «احتفظ بها ولا تخرجها عن يدك فسيكون لك بها شأن تحتاج إليها معه»^(٢).

وبعد فترة، جاء وشاء إلى (هارون الرشيد) يخبره بأنّ (علي بن يقطين) يعتقد بإمامة موسى الكاظم (عليه السلام)، وأنّه قد أرسل إليه تلك الدراعة السوداء التي كان قد أكرمه بها الخليفة. فاستدعى (هارون) الوزير وسأله: «ماذا فعلت بالدراعة السوداء التي خصصتك بها من بين سائر مقرّبي؟».. فقال ابن يقطين: «هي عندي يا أمير المؤمنين، في سبط من طيّبٍ مختومٍ عليها، فطلب إحضارها، فأرسل من يحضرها من مكانها. وعندما رآها هارون قال: ردّها إلى مكانها وخذها وانصرف راشداً فلن نصدّق بعدها عليك ساعياً»^(٣).

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٤٩.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٣٧.

٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٣٨.

ثالثاً: مجابهة الحكم وكشف طغيانه:

كان الإمام ﺍﻟﻤُؤَﻣِّدِينَ ﷺ يصرّ على إظهار الطبيعة غير الشرعيّة لهذا النظام الحاكم. ومن الروايات التي تنقل موقفاً بهذا الصدد، ما جرى عندما سأله (هارون الرشيد) عند استدعائه إليه: “ما هذه الدار؟” (في إشارة إلى دار الخلافة أو السلطة).. فأجابه الإمام ﺍﻟﻤُؤَﻣِّدِينَ ﷺ بكل وضوح: «هذه دار الفاسقين».. فسأله (هارون) مستفزاً: «فلمن تكون الدار إذن؟» (أي من هو صاحب الحقّ الشرعي فيها).

فردّ الإمام ﺍﻟﻤُؤَﻣِّدِينَ ﷺ: “هي لشيعتنا اختبار وامتحان، ولغيرهم وسيلة للضلال والانحراف».

فقال (هارون): “فلماذا لا يستعيدها صاحبها الحقّ؟” (في تلميح إلى عدم قيام الإمام بمطالبة بالخلافة).

فأجابه الإمام ﺍﻟﻤُؤَﻣِّدِينَ ﷺ: «لقد سُلبت منه وهي عامرة مزدهرة، ولن يسترجعها إلا عندما تعود عامرة كما أخذت». (مشيراً إلى أن الحق لا يُسترد بالخراب).

فحاول (هارون) التهمك قائلاً: “فأين أتباعك وشيعتك؟” (متسائلاً عن قوّتهم التي ستمكّنه من ذلك).. فاستشهد الإمام ﺍﻟﻤُؤَﻣِّدِينَ ﷺ برّدّه بالآية الكريمة: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، فانبرى هارون غاضباً:

«أفنحن إذن كفّار؟!»

فأجابه الإمام عليه السلام بحكمة: «لا، بل أنتم مصداق للذين: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [ابراهيم: ٢٨]». مبيّنًا أنّهم جحدوا نعمة الحكم والحق، واستبدلوا الشكر بالجحود، ما قاد الأمة إلى الدمار.. فاستشاط هارون غضبًا من هذا الردّ الحاسم والواضح، واشتدّ في معاملته للإمام الكاظم عليه السلام^(١).

المبحث الخامس: الدوافع وراء سجن الإمام عليه السلام

أولاً: حسد (هارون) وحقده على الشخصيات البارزة:
لم يكن (هارون) يطيق وجود أي شخصيّة تتمتع بمكانة مرموقة بين الناس؛ حيث كان يشعر بالتهديد من أي نفوذ قد ينافس سلطته. ويتجلّى ذلك بوضوح في ما فعله بوزراء البرامكة الذين كانوا من أقرب مساعديه؛ حيث أبادهم وأزال وجودهم بعد أن ذاع صيتهم وازدادت هيبتهم بين الرعيّة.

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٥٦.

ثانيًا: كراهيته للعلويين

تميّز (هارون) بحقد عميق على آل البيت (العلويين)، وكان يبدع في أساليب قهرهم واضطهادهم وإيذائهم والاستمرار في حرمانهم وظلمهم معنويًا وماديًا، والتعدي على ممتلكاتهم. لذلك لم يكن يسمح لزعيمهم الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) أن يعيش في هدوء وطمأنينة واستقرار حقيقي.

ثالثًا: الوشاية ضده (عليه السلام):

ويعتبر هذا السبب المحوري وراء سجنه؛ حيث قام بعض المتملّقين بتقديم تقارير كاذبة إلى هارون ضدّ الإمام الكاظم (عليه السلام)، تضمّنت اتهامات متعدّدة، من أبرزها:

١. جمّع الأموال: بينما كان (هارون) يفرض حصارًا اقتصاديًا على العلويين ليجوّعهم ويفقرهم، وصلته معلومات تفيد بأنّ الأموال تندفق على الإمام (عليه السلام) من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وأنّه اشترى عقارًا باسم "البصريّة" بمبلغ ثلاثين ألف دينار.

٢. المطالبة بالخلافة: يذكر المؤرّخون أنّ (علي بن إسماعيل بن جعفر) كان من بين الوشاة، وهو الذي ذهب إلى بغداد

والتقى بـ (الرشيد) قائلاً: "لم أكن أتصور وجود خليفتين في الأرض، حتى رأيت عمي موسى بن جعفر يُسلم عليه بالخلافة". فأثار هذا الكلام غضب (هارون)، وجنّ جنونه. ومن الحوادث التي أعاظت (هارون) أيضاً، أنّه كان يعرض على الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) قائلاً: "خذ فداً وسأردّها إليك"، لكن الإمام كان يرفض باستمرار حتى ألحّ (هارون) عليه. فردّ الإمام (عليه السلام): «لن أقبلها إلا بحدودها الأصلية!» سأل هارون: «وما هي حدودها؟». فأجاب الإمام (عليه السلام): «إذا حددتها لن تردّها». قال (هارون): «وحقّ جدّك إلا فعلت». فبدأ الإمام (عليه السلام) بالحدود: «أولاً عدن»، فاصفرّ وجه (هارون) وقال: «هيه».

تابع الإمام (عليه السلام): «ثانياً سمرقند»، فاشتدّ غضب (هارون). وأضاف الإمام (عليه السلام): «ثالثاً أفريقية»، فاسودّ وجه (هارون). ثم قال الإمام (عليه السلام): «رابعاً مناطق ساحل البحر بما فيها الجزر وأرمينية».

فصاح (الرشيد): «لم يبق لنا شيء! اجلس في مكاني...!» فردّ الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام): «قد أخبرتك أنّك إن عرفتّها لن

تردّها». عندها عزم (هارون) على قتله^(١). وهكذا، جرى اعتقال الإمام (عليه السلام) في شهر شوال من سنة ١٧٩هـ، وانتقل بين السجون، حيث عانى أنواع المشقّات والعذابات، إلى أن دسّ له (هارون) السمّ في رطب وأمر (السندي) بتقديمه إليه وإجباره على تناوله، فاستشهد الإمام (عليه السلام) سنة ١٨٣هـ.

الفصل العاشر:

الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام

يحضر الإمام الرضا (عليه السلام) في التاريخ الإمامي بوصفه لحظةً فارقة تُختبر فيها الإمامة على تماسٍّ مباشر مع جهاز الدولة؛ فولاية العهد التي عُرِضت عليه ليست مجرد واقعة سياسية، وإنما مسرحٌ لامتحان عقديٍّ دقيق: كيف يصون الإمام جوهر الإمامة—العلم والقدوة والحجة—داخل بنية سلطةٍ تريد تحويله إلى غطاءٍ شرعي؟ لهذا يقرأ هذا الفصل سيرة الرضا (عليه السلام) ضمن ثلاث دوائر متشابكة:

أولاً: العلم والحجة

تُظهر مناظراته العابرة للملل والاتجاهات أنّ «عالم آل محمد» ليس لقباً تكريمياً، بل وظيفة معرفية كاشفة: ضبطُ أصول النظر، وتحويلُ الاختلاف إلى اختبارٍ لسلامة البرهان لا إلى ضوضاء مذهبية. هنا يصبح مجلس المأمون—على ما فيه من قصدٍ سياسي—منبراً لبيان معيارية العقل المؤيّد بالنص؛ حيث يقدم الإمام (عليه السلام) نموذجاً للجدل الملتزم بأدب العلم وحدوده.

ثانياً: السياسة وحدود المشاركة

قبول ولاية العهد تحت الإكراه مع اشتراط «لا أمر ولا أنهي...» ليس تنازلاً بل ترسيم حدٍّ خلقي يُبطل وظيفة التسييس: يميّز

بين الوجود الرمزي للإمام في وعي الأمة، وبين محاولة دمجها في ماكينة القرار العباسي. بذلك حوّل الإمام خطوة الاحتواء إلى تعطيل ناعم لمقاصدها، وفتح في المقابل فضاءً عاماً لنشر فضائل أهل البيت وحقوقهم، وحقن الدماء، وتوسيع هامش الدعوة والتعليم.

ثالثاً: إدارة الشرط التاريخي

من خلال شبكة التلامذة والرواة وتكثيف الحضور التعليمي، هندس الإمام ﷺ انتقالاً آمناً للمرجعية من تحت ضغط الدولة، وراكم رأسماً رمزياً جعل آلة الإعلام الرسمية—سك النقود، الدعا على المنابر—تعمل بخلاف نيّتها: تعلن فضلاً يتجاوز السلطة. بهذا المعنى، يتقدّم الإمام الرضا ﷺ بصفته صانع بنية صمود معرفيّة-اجتماعيّة تمهّد لما بعده.

على هذا الأساس، لا تُقرأ ولاية العهد بوصفها حادثة معزولة بل منعطفاً بلور ثلاث رسائل: مركزيّة العقل المُلزَم بأدب الوحي، و«فقه المشاركة بغير التورط»، وبناء مؤسسيّة هادئة للعلم والهداية تحفظ الإمامة من الاستهلاك السياسي وتمنح الأمة معياراً تميّز به بين الشرعيّة والشرعنة.

المبحث الأول: سيرة مضيئة

أولاً: نبذة تاريخية:

وُلد الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) في الحادي عشر من شهر ذي القعدة عام ١٤٨ هـ في المدينة المنورة. والده هو الإمام موسى الكاظم (عليه السلام)، وأمّه كانت من أمّهات الأولاد وتُعرف بعدة أسماء، منها: تُكْتَمَ وسمانة. وقد كانت تكتُم من أفضل النساء عقلاً وتقوى وإجلالاً لمولاتها حميدة المصفاة، حيث لم تجلس أمامها منذ أصبحت تحت رعايتها تقديرًا واحترامًا لها. وبعد أن أنجبت الإمام الرضا (عليه السلام)، أطلق عليها الإمام الكاظم (عليه السلام) اسم "الطاهرة"^(١).

وكان جدّه الإمام الصادق (عليه السلام) يتوق إلى رؤيته، كما رُوي عن الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) قوله: «سمعت أبي جعفر بن محمّد (عليه السلام) يقول لي مراراً: «إنّ عالم آل محمّد لفي صلبك وليتني أدركته، فإنّه سميّ أمير المؤمنين علي (عليه السلام)»^(٢).

ومن أبرز ألقابه: (الرضا)، و(الصابر)، و(الفاضل)، و(الرضي)،

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ١٤.

٢ - الفضل بن الحسن الطبرسي: إعلام الوري، ص ٣١٥.

و(الوفي)، و(قرّة أعين المؤمنين)، و(غَيِّظَ الملحدين). أما كنيته فكانت (أبا الحسن الثاني).

ورزق الإمام علي بن موسى الرضا ﷺ بابنه الوحيد الإمام محمد بن علي الجواد ﷺ^(١).

تولّى الإمامة بعد استشهاد أبيه الكاظم ﷺ عام ١٨٣ هـ، واستمرت إمامته نحو عشرين عامًا حتى عام ٢٠٣ هـ. وأوصى قبل شهادته إلى ابنه الإمام محمد الجواد ﷺ^(٢). استشهد ﷺ مسمومًا في شهر صفر من سنة ٢٠٣ هـ يوم الجمعة، وكان عمره خمسًا وخمسين سنة. ودُفن في مدينة طوس.

ثانيًا: سموّ أخلاقه وعبادته:

تميّز الإمام الرضا ﷺ بسموّ أخلاقه وتواضعه العظيم حتى أصبح حديث الناس، وأقرّ بذلك كلّ من عرفه وخالطه. وقد قدّم (إبراهيم بن العباس) وصفًا رائعًا يجمع مكارم أخلاقه وفضائله، فقال: "ما شاهدت أبا الحسن الرضا ﷺ أساء إلى أحد بقولٍ قط، ولا مقطّعًا حديث أحد

١ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٢٧١.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٢٠.

حتى ينهي كلامه، ولا مدّ رجله أمام جلسه أبداً، ولا اتكأ بحضور من يجالسه، ولا شتم أحداً من خدمه أو عبيده، ولا رأيته يبصق، ولا ضحك ضحكاً عالياً، بل كان ضحكه ابتسامة هادئة.

وكان عند انفرادهم ووضع المائدة، يدعو جميع خدمه ومواليه - بما فيهم الحارس وسائس الخيل - ليشاركوه الطعام. وكان الرضا (عليه السلام) ينام قليلاً بالليل، ويبقى مستيقظاً طويلاً؛ حيث كان يُحيي معظم ليليه من أولها حتى مطلع الفجر صلاةً وعبادةً.. وكان مواظباً على الصيام، فلا يفوت صيام ثلاثة أيام من كل شهر، قائلاً: ذلك كصيام الدهر. وكان (عليه السلام) كثير البرّ والإحسان في الخفاء، وكان معظم صدقاته في الليالي المظلمة. فمن ادّعى وجود من يساويه في فضله فلا تصدّقه»^(١).

ومن مظاهر عبادته وتقربه إلى الله عزّ وجلّ، أنّه كان دائم الذكر في جميع أحواله، شديد الخشية من الله تعالى. وكان يجلس في مصلاه ليلاً يسبح الله ويكبره ويهلّله ويصلي على النبي (صلى الله عليه وآله) حتى شروق الشمس. وكان من أدعيته في قنوته: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد، اللهم اهدنا مع من هديت، وعافنا مع من عافيت، وتولّنا مع

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٩٧.

من تولّيت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا شرّ ما قضيت، فإنّك تقضي ولا يُقضى عليك، إنّه لا يذلّ من واليت، ولا يعزّ من عاديت، تباركت ربّنا وتعاليت»^(١).

ثالثاً: مكانته العلميّة ومآثره:

تميّز الإمام الرضا (عليه السلام) في عصره بغزارة علمه وتنوّع معارفه واتساعها، حتى لُقّب بشبيه جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام). وقد تواترت الشهادات بعلوّ منزلته العلميّة؛ حيث نقل والده الإمام الكاظم (عليه السلام) عن أبيه الإمام الصادق (عليه السلام) قوله؛ إذ كان يوصي أبناءه قائلاً: «هذا أخوكم علي بن موسى الرضا، هو عالم آل محمّد، فاستفتوه في أمور دينكم واحفظوا ما يرشدكم إليه، فقد سمعت أبي جعفر بن محمّد (عليه السلام) يؤكّد لي مراراً: «إنّ عالم آل محمّد لفي صلبك، وليتني أدركته، فإنّه سميّ أمير المؤمنين (عليه السلام)»^(٢).

وقد وثّق الإمام الرضا (عليه السلام) بنفسه كيف كان العلماء يفدون إليه ويستقون العلم من معينه، فقال: «كنت أجلس في الروضة والعلماء

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٩٥.

٢ - الفضل بن الحسن الطبرسي: إعلام الوري، ج ٢، ص ٦٤.

بالمدينة متوافرون، فإذا أعيأ الواحد منهم عن مسألة أشاروا إليّ بأجمعهم، وبعثوا إليّ بالمسائل، فأجبت عنها»^(١).

ولم يقتصر الاعتراف بفضله وعلمه على شيعته فحسب، بل شهد له بذلك معاصروه من مختلف المشارب، حتى قال (أبو الصلت الهروي): «ما صادفت أعلم من علي بن موسى الرضا (عليه السلام)، وما التقى به أيُّ عالم إلا وأقرّ له بما أقررت به. وقد جمع الخليفة المأمون في عدّة مجالس علماء الأديان وفقهاء الشريعة وفلاسفة الكلام، فما كان منهم إلا أن انهزموا واحدا تلو الآخر أمام حجّته، حتى اعترفوا جميعاً بفضله وعلوّ كعبه وقصور أنفسهم أمام علمه»^(٢).

وتربّى على يد الإمام الرضا (عليه السلام) عدد كبير من الفقهاء والعلماء البارزين، وكان من بين تلامذته وروّاد مدرسته: (أحمد بن محمّد بن عيسى الأشعري القمّي)، و(إبراهيم بن سلام النيشابوري)، و(الحسن بن سعيد بن حمّاد)، و(الحسن بن علي الخزاز)، و(الحسن بن علي بن يقطين)، و(داوود بن سليمان)، و(ريان بن الصلت)، و(صفوان بن يحيى البجلي)، و(علي بن إسماعيل الميثمي)^(٣).

١ - علي بن عيسى الإربلي: كشف الغمّة، ج ٣، ص ١١١.

٢ - الفضل بن الحسن الطبرسي: إعلام الوري، ج ٢، ص ٦٤.

٣ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ٣٦٢.

وحُكي أنَّ (المأمون) قال للشاعر (أبي نوَّاس) ذات مرَّة: ”يا أبا نوَّاس، أنت تعرف مكانة علي بن موسى الرضا عندي وكرمي له، فلماذا تأخَّرت عن مدحه وأنت شاعر هذا العصر وفريد زمانك؟“ فأنشأ أبياتاً قال فيها:

 قيل لي أنت أوحّد الناس طرّاً * في فنون من الكلام النبيه
 لك من جوهر الكلام بديع * يثمر الدرّ في يدي مجتنيه
 فعلى ما تركت مدح ابن موسى * والخصال التي تجمّعن فيه
 قلت لا أهتدي لمدح إمام * كان جبريل خادماً لأبيه
 فأثنى عليه المأمون وقال ”أحسنّت“، وأعطاه من العطاء ما يعادل ما
 أعطاه لجميع الشعراء مجتمعين، بل وفَضَّله عليهم^(١).

المبحث الثاني: الحياةُ السياسيَّةُ للإمام الرضا ﺍﻟﻌﻠﻴﻬﻲﺍ ﺍﻟﺴﻼﻡ

أولاً: عصر هارون الرشيد:

بعد استشهاد الإمام الكاظم ﺍﻟﻌﻠﻴﻬﻲﺍ عام ١٨٣ هـ، وتقلَّد الإمام الرضا ﺍﻟﻌﻠﻴﻬﻲﺍ منصبَ الإمامة، واجه صنوفاً وأشكالاً شتّى من ظلم (هارون) وقسوته واضطهاده، ولم يُسجَلْ له أيّ مشاركة فاعلة في المجالس أو

١ - محمد بن الحسن الطوسي: عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٥٥.

المناسبات العامة. ويرجع ذلك إلى جملة أسباب، أبرزها التوصية التي أوصى بها الإمام الكاظم عليه السلام، والتي نصّت على أن إعلان إمامة ابنه يجب أن يتأخّر أربع سنوات بعد استشهاده، أي في عام ١٨٧ هـ، وذلك لإدراكه العميق للظروف العصيبة التي كانت ستمرّ بها الأمة.

وبحلول العام ١٨٧ هـ، أعلن الإمام عليه السلام عن إمامته علناً. وقد سأله (محمّد بن سنان) مستغرباً: "لقد أعلنت هذا الأمر -الإمامة- وجلست مكان أبيك بينما سيف هارون لا يزال يقطر دمًا!" فردّ عليه الإمام عليه السلام: «إنّ ما منحني الجرأة على هذا الفعل هو قول الرسول صلى الله عليه وآله: لو استطاع أبو جهل أن ينقص شعرة من رأسي؛ فاشهدوا بأنّي لست نبياً، وأنا أقول: لو استطاع هارون أن ينقص شعرة من رأسي فاشهدوا بأنّي لست إماماً»^(١). وقد توفّي هارون عام ١٩٣ هـ ودفن في طوس، دون أن يتمكن من إلحاق الأذى بالإمام الرضا عليه السلام.

ثانياً: عصر (الأمين):

تصف بعض المصادر التاريخية شخصية (الأمين) بأنّها كانت شخصية متهاوية؛ حيث تشير بعض الكتابات إلى أنّه «كان سيّء

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٨، ص ٢٥٧.

السيرة، ضعيف الرأي، مسفكاً للدماء، يتبع هواه، ويُهمل شؤون الدولة، ويُفوّضُ أمورها المصيرية للآخرين»^(١).

وقد تفاقم الصراع بينه وبين أخيه (المأمون)، ما أدى في نهايته إلى الإطاحة بحكم (الأمين) وقتله. واستغلَّ الإمام الرضا (عليه السلام) هذه الأجواء المضطربة، فكرَّس جهوده في بناء الجماعة الصالحة ونشر التعاليم الإسلامية الأصيلة في مجتمع كان يعاني من الفساد والمجون والانحراف الفكري.

ثالثاً: عصر (المأمون):

سعى (المأمون) إلى إظهار براعته وحنكته السياسية من خلال تنصيب الإمام علي الرضا (عليه السلام) ولياً للعهد.. لكن الطرف المقابل (الذي هو الإمام) تمكَّن بذكاء من تحويل خطط (المأمون) الماكرة إلى إجراءات عديمة الجدوى والفاعلية. كما سيُتضح لاحقاً أثناء الحديث عن مسألة ولاية العهد بشيء من التفصيل.

وهناك عدَّة أدلَّة على مكر (المأمون) وشدَّة دهائه.. ففي عهده كان يجري تشجيع العلم والمعرفة ظاهرياً؛ حيث كان يدعو العلماء

إلى بلاطه، ويُنعم عليهم بالهبات والجوائز لتشجيعهم وحثهم على العلم والمعرفة والترجمة، وذلك تمهيداً لكسب ولأئهم. علاوة على ذلك، حاول استمالة شيعة الإمام (عليه السلام) وأتباعه من خلال القيام ببعض الإجراءات، مثل:

١. الإقرار بأن الإمام علياً (عليه السلام) كان الأحق بالخلافة بعد النبي (صلى الله عليه وآله).
 ٢. جعل سبّ (معاوية) ولعنه سياسة رسمية للدولة.
 ٣. إعادة أملاك فدك إلى العلويين، والتي كانت قد اغتُصبت من السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام).
- وفي الختام، كان (المأمون) يبذل قصارى جهده لكسب رضا العامة، لتثبيت حكمه وتأمين مركزه على عرش الخلافة.

المبحث الثالث: الإمام الرضا (عليه السلام) وولاية العهد

أولاً: دوافع تنصيب الإمام الرضا (عليه السلام) ولياً للعهد:

بعد مقتل (الأمين)، تولى أخوه (المأمون) الحكم عام ١٩٨هـ، ثم أعلن عن تعيين الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) ولياً لعهد عام ٢٠١هـ. وكانت هناك عدة غايات وأغراض من وراء إصدار (المأمون) لهذا القرار، منها:

١- تهدئة الأوضاع الداخلية:

بعد عام واحد فقط من تولي (المأمون) الخلافة (عام ١٩٩هـ)، اندلعت انتفاضات كبرى وحركات تمرد واسعة النطاق قادها أبناء البيت العلوي. فقد ثار (أبو السرايا السري بن منصور الشيباني) في العراق مدعوماً من (محمد بن إبراهيم بن إسماعيل الحسني)؛ حيث ضرب نقوداً في الكوفة تخالف سكة العباسيين، وأرسل قواته إلى البصرة. وقد انتشرت الثورة على عدة جبهات:

أ. جبهة البصرة تحت قيادة (العبّاس بن محمد بن عيسى الجعفري).

ب. جبهة مكة تحت قيادة (الحسين بن الحسن الأفطس).

ج. جبهة اليمن تحت قيادة (إبراهيم بن موسى بن جعفر).

د. جبهة فارس تحت قيادة (إسماعيل بن موسى بن جعفر).

هـ. جبهة الأهواز تحت قيادة (زيد بن موسى).

و. جبهة المدائن تحت قيادة (محمد بن سليمان)^(١).

ولذلك كان الهدف الأساس من استدعاء الإمام (عليه السلام) إلى خراسان هو تحويل ساحة الصدام الدامي والمتوتر إلى مواجهة سياسية سلمية.

١ - لجنة التاريخ في المنظمة العالمية للحوزات العلمية: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص.ص ١٦٠-١٦١.

٢- تجريدُ الثورة من صفتي القداسة والمظلومية:

لم يعرف الشيعة الكلل أو الملل في النضال، ولم تكن ثورتهم لتعرف حدوداً. وقد اتَّسمت هذه المواجهات بخصيَّتين أساسيتين:

■ صفةُ المظلومية.

■ القداسة^(١).

فالمظلومية: تجلَّت في انتزاع الحقِّ الشرعي في الخلافة وقيادة الدولة، وما تعرَّض له أئمةُ أهل البيت (عليه السلام) وأتباعهم من اضطهاد وتضييق وإعدامات.

أمَّا القداسة: فتمثَّلت في شخص الإمام المعصوم الذي حافظَ على مسافة بينه وبين أجهزة الحكم القائم الجائر؛ حيث قاد الأمة وفق المنهج الإسلامي الأصيل.

حاول (المأمون العباسي) من خلال منصب ولاية العهد أن ينتزع هاتين الصفتين (القداسة والمظلومية) اللتين تشكَّلان مصدر قوة دافعة للحركة الثورية في المجتمع الإسلامي. فبحسب تقديره، إنَّ انضمام الإمام (عليه السلام) إلى هيكل الحكم بصفته ولياً للعهد سيجعله جزءاً من النظام الحاكم ومنفذاً لأوامر الخليفة، وبذلك يفقدُ صفةَ المظلومية وينزع عنه هالة القداسة.

١ - علي الخامنئي: الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت عليهم السلام، ص.ص ١٩٠-١٩١. (بتصرّف).

٣- منح الشرعية للخلافة العباسية:

إنَّ قبول الإمام الرضا عليه السلام بمبايعة (المأمون) لولاية العهد يعني منح الخليفة اعترافاً علنياً من أعلى المراتب العلوية بمشروعية حكم الدولة العباسية. وقد أفصح (المأمون) نفسه عن هذا الهدف بقوله: «فأردنا أن نجعله وليَّ عهدنا، ليكون دعاؤه لنا، وليعترف بالملك والخلافة لنا»^(١). فبالنسبة إلى (المأمون)، كانت هذه البيعة تعني إقراراً من الإمام عليه السلام بأنَّ الحقَّ في الخلافة ليس حكراً عليه شخصياً، ولا على آل البيت وحدهم. وبالتالي، فإنَّ حصول (المأمون) على هذا الاعتراف -خاصةً من الإمام عليه السلام- يُعدُّ ضربةً للعلويين أخطر من الأساليب القمعية التي استخدمها الحكَّام السابقون من أمويين وعبَّاسيين، والتي تمثَّلت في القتل والتشريد ومصادرة الممتلكات^(٢).

وقد ذكرت المصادر التاريخية أهدافاً أخرى للبيعة، مثل رغبة (المأمون) في اكتساب سمعة طيبة وصيتٍ بالتقوى والحكمة، وتحويل الإمام عليه السلام إلى داعم ومرشد للنظام الحاكم، وغير ذلك من الأهداف

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٨١.

٢ - جعفر مرتضى العاملي: الحياة السياسية للإمام الرضا(ع)، ص. ص ٢٣٨-٢٣٩.

التي سيجري التطرُّق إليها لاحقاً. ولكن يبقى السؤال الجوهرى هنا: ما هي الإجراءات التي اتَّخذها الإمام (عليه السلام) لمواجهة هذه الخطوة السياسية المحفوفة بالمخاطر؟

ثانياً: الإجبارُ على القبول بالبيعة:

إنَّ أوَّل إجراء قام به الإمام (عليه السلام) هو رفض عرض ولاية العهد. وقد انتشر خبر هذا الرفض على نطاق واسع، حتى أنَّ (الفضل بن سهل) ذكره صراحة في أحد اجتماعات القصر. ومن جهة أخرى، كان الإمام (عليه السلام) يوضِّح في كلِّ فرصة تسنح له أنَّه مضطَّرٌّ ومُكرَّهٌ على قبول هذا المنصب، وهو بذاته إجراء مواجهة لخطة (المأمون).

وفي هذا الصدد، يروي (الريان بن الصلت) قائلاً: «دخلتُ على عليٍّ بن موسى الرضا (عليه السلام)، فقلت له: يا بن رسول الله، الناس يتساءلون: كيف قبلت ولاية العهد مع ما يُعرف عنك من الزهد في الدنيا؟ فأجابني (عليه السلام): (إنَّ الله يعلم كراهتي لذلك، ولكن عندما وُضعت أمام خيارين لا ثالث لهما؛ القبول أو الموت، اخترت القبول على القتل. ألا يعلم هؤلاء أنَّ النبي يوسف (عليه السلام) عندما اضطرتته الظروف إلى توليِّ منصب في بلاط العزيز قال: اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ؟ لقد اضطرتت أنا أيضاً للقبول تحت الإكراه والإجبار، وأنا على حافة

الهلاك، مع علمي أنّ دخولي في هذا الأمر سيكون دخولاً مؤقّتا سأخرج منه، فإلى الله أشتكي وهو المستعان»^(١).

وبالطبع، فإنّ قبول الإمام ﷺ بالبيعة تحت التهديد بالقتل لا يعني أنّه لم يفكر في العواقب والنتائج المترتبة على هذه الخطوة. ومن النصوص التي أظهرت تهديد المأمون له بوضوح، قوله: «إنّ عمر بن الخطاب جعل الشورى في ستّة أحدهم جدك أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ، واشترط أن يضرب عنق أي معترض منهم. ولا بدّ لك من قبول ما أريده منك، فإني لا أجد مفرّاً من ذلك»^(٢).

ثالثاً: الإجراءات التي اتخذها الإمام ﷺ عند قبوله ولاية العهد:

١- إصدار بيان تهديدي:

سبق التطرّق إلى هذا الإجراء، وقد أسهم تقصير أعوان السلطة وافتقارهم إلى الحنكة السياسيّة في تسريب هذا الخبر ونشره.

٢- عدم التورط في الشؤون السياسيّة:

على الرغم من جميع الضغوط والتهديدات التي تعرّض لها الإمام

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٣٩.

٢ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ص ٢٩٠.

عليه السلام، فقد وافق على قبول ولاية العهد مشروطاً الموافقة على عدم تدخله في أي شأن من شؤون الدولة، سواء في ما يتعلق بإعلان الحرب أم إبرام السلام، أم تعيين المسؤولين وعزلهم وغير ذلك. وقد صرح عليه السلام ردّاً على تهديدات (المأمون) له قائلاً: «فإني أجيبك إلى ما تريد من ولاية العهد على أنني لا آمر ولا أنهي، ولا أفتي ولا أقضي، ولا أولي ولا أعزل، ولا أغير شيئاً مما هو قائم»، فقبل (المأمون) منه ذلك كله^(١).

إلى جانب إجراءات أخرى اتخذها الإمام الرضا عليه السلام لمواجهة هذه السياسة التي كان ينتهجها (المأمون).

رابعاً: نتائج ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام:

شكّلت السنة التي تولّى فيها الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد منعطفاً تاريخياً بالغ الأهمية للقضية الشيعية؛ حيث أعطت نضال العلويين وكفاحهم دفعاً جديداً وروحاً متجددة، وذلك بفضل حكمة الإمام الثامن عليه السلام وتدييره^(٢). وفيما يأتي أبرز نتائج هذه الولاية:

١ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ص ٢٦٠.

٢ - علي خامنئي: الدروس العظيمة، ص ١٩٠.

١- اعترافُ المأمون بحقوق أهل البيت ﺍﻟﻤُﺒَﺎﺭَﻛِﻴﻦ:

تتجلَّى هذه النتيجة في الخطابين اللذين ألقيا خلال مراسم التعيين. فقد صرَّح الإمام ﺍﻟﻤُﺒَﺎﺭَﻛِﻴﻦ موجِّهاً كلامه إلى الناس: «... إنَّ لنا عليكم حقًّا برسول الله ﷺ، ولكم علينا حقًّا به، فإذا أدبتم إلينا ذلك وجبَّ لكم علينا الحكم والسلام»^(١). ثم أتبع (المأمون) ذلك خطابه قائلاً: «... جاءكم بيعة علي بن موسى بن جعفر... والله لو قرأت هذه الأسماء على الصم البكم لبرئوا بإذن الله عزَّ وجلَّ»^(٢).. ما يشكِّل اعترافاً صريحاً بمكانة أهل البيت.

٢- توظيفُ الإعلام لصالح الإمام ﺍﻟﻤُﺒَﺎﺭَﻛِﻴﻦ:

استُخدمت آلة الدولة الإعلامية لنشر فضل الإمام ومكانته عبر خطوات عملية، منها:

- الدعاء للإمام الرضا ﺍﻟﻤُﺒَﺎﺭَﻛِﻴﻦ على المنابر في خطب الجمعة وجميع المناسبات.
- سلَّ النقود باسمه في جميع أرجاء الدولة العباسية.

١ - ابن الصباغ المالكي: الفصول المهمة، ص ٢٥٥-٢٥٦.

٢ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٤٧.

■ انتشار الخطب والأشعار التي تمدح الإمام وأهل بيته (عليه السلام)،
حتى أنَّ (المأمون) نفسه قال أبياتاً منها:
لا تُقبل التوبة من تائب *** إلاَّ بحبِّ ابن أبي طالب
أخي رسول الله حلف الهدى^(١) *** والأخ فوق الخَلِّ والصاحب^(٢)

٣- حُرِّيَّة الإمام (عليه السلام) في إجراء المناظرات:

أتاحت ولاية العهد للإمام (عليه السلام) فرصة كبيرة لإجراء المناظرات العلنيَّة مع علماء جميع المذاهب والأديان، حتى لُقِّب بـ “غيظ الملحدين” لقدرته على مواجهتهم وإفحامهم.. فقد جمع (المأمون) له كبار علماء المسيحيَّة واليهوديَّة والصابئة والمجوس والزرادشتيَّة والروم، فناظرهم جميعاً وغلبهم بالحجَّة والبرهان؛ لأنَّه امتلك المنطق الصحيح، والحجج والعلم وقوَّة المعرفة، فخضعوا لمعرفته وبَيَّنَّته وبراهينه.

٤- حقنُ دماء المسلمين:

كان من الآثار المباشرة والمهمَّة لهذه الولاية تحقيق السلامة

١ - محمد باقر القرشي: حياة الإمام الرضا (عليه السلام)، ج ٢، ص ٢٤٩.

٢ - محسن الأمين العاملي: أعيان الشيعة، ج ٢، ص ١٦.

للمعارضين؛ حيث أصدر (المأمون) عفواً عاماً عن قادة الثورات العلوية مثل (زيد) و(إبراهيم) -أخي الإمام- و(محمد بن جعفر)، ما حفظ دماء كثيرين.

٥- نشر فضائل أهل البيت ﷺ ومقاماتهم:

استغلَّ الإمام ﷺ موقعه لنشر مناقب وكرامات الإمام علي ﷺ وأهل البيت ﷺ.. ويعدّ أمر المأمون في سنة ٢١١ هـ — بمنع مدح (معاوية) والإعلان بأنَّ «أفضل الخلائق بعد رسول الله ﷺ هو علي بن أبي طالب»^(١).. وهذا بحدّ ذاته دليل واضح على نجاح الإمام ﷺ في إظهار هذه الفضائل والشمائل العظيمة، فكراً وعملاً.

١ - عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين السيوطي): تاريخ الخلفاء، ص ٢٤٧.

الفصل الحادي عشر:

الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام

يحضر الإمام محمد الجواد عليه السلام في التاريخ الإمامي بوصفه حلقةً مفصليّة تربط بين إرث الأئمّة السابقين وظروف القرن الثالث الهجري المتحوّلة. ولأنّ نفردت سيرته في صغر سنّه وتجلّيات علمه المبكرة، فإنّ أهميّته لا تقتصر على معجزات الكفاءة المعرفيّة فحسب بل تتجلّى في كفيّة أداء الإمامة بوصفها وظيفة روحية-اجتماعيّة داخل جهاز سلطة متغطّس. يتطلّب فهم حقبة الإمام الجواد عليه السلام قراءة مركّبة تربط بين ثلاثة محاور: أوّلاً، استمرار الخطّ العقدي للمعصوميّة في ظرفٍ سياسيٍّ مضطّرب؛ ثانياً، آليات الاحتكاك والتفاعل مع دواوين الحكم العبّاسي (منظور المأمون إلى الموقف الإمامي)؛ وثالثاً، بناء المرجعيّة العلميّة ونقلها عبر شبكة الوكلاء والرواة في زمن غياب الحرّيّة.

المبحث الأول: سيرة حياة مضيئة

أوّلاً: نظرة تاريخيّة:

وُلد الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام في المدينة المنوّرة في العاشر من شهر رمضان المبارك، أو في التاسع عشر منه، عام ١٩٥ هجري. وهو ابن الإمام علي الرضا عليه السلام، وأمّه جارية تُدعى (سبيكة)، وقد أطلق عليها الإمام الرضا عليه السلام اسم (خيزران). تنتمي إلى أرض النوبة، من

قبيلة السيدة (مارية القبطية) أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وقد كانت من أفضل نساء عصرها فضلاً وتقوى، وقد أشير إلى ذلك في رواية عن النبي ﷺ حيث قال: «بأبي ابن خيرة الإماء النويّة الطيبة الفم»^(١). وكان للإمام عليه السلام عدة ألقاب، منها: (المختار)، و(المنتجب)، و(المرتضى)، و(القانع)، و(العالم)، و(التقي)، و(الجواد)، وهذان الأخيران هما أشهرها. وكنيته (أبو جعفر الثاني)، للتمييز بينه وبين جده الإمام محمد الباقر عليه السلام.

تولّى منصب الإمامة بعد استشهاد أبيه الرضا عليه السلام عام ٢٠٣ هجري، واستمرت إمامته سبعة عشر عاماً حتى عام ٢٢٠ هجري. وقبل استشهاد، عهد بالإمامة لابنه الإمام علي الهادي عليه السلام^(٢).

رُزق الإمام الجواد عليه السلام بأربعة أبناء هم: الإمام علي الهادي عليه السلام، و(أبو أحمد موسى المبرقع)، و(أبو أحمد الحسين)، و(أبو موسى عمران). وله عدة بنات هنّ: (فاطمة)، و(خديجة)، و(أم كلثوم)، و(حكيمه)، و(أمامة). وأم أولاده كانت أمة تدعى (سمانة). ولم ينجب من زوجته (أم الفضل)^(٣).

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٢٣.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٢٣.

٣ - راجع: الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٢٩٥؛ الفضل بن الحسن الطبرسي: تاج الموالي، ص ٥٤.

استشهد عليه السلام في نهاية شهر ذي القعدة عام ٢٢٠ هجري، بعد أن دسّت له زوجته (أم الفضل بنت المأمون) السم، بتشجيع من عمّها الخليفة (المعتصم). دُفن في بغداد في مقبرة قريش، إلى جوار قبر جدّه الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام.

ثانيًا: علمه وسمو أخلاقه:

حظي الإمام الجواد عليه السلام بمكانة علميّة رفيعة في الأوساط الإسلاميّة، وكان محطّ تقدير العلماء والجمهور على حد سواء. وكان أتباعه وشيعته يقصدونه ليسألوه عن أحكام الحلال والحرام، رغم صعوبة السفر ومشاق الطريق. وكان عليه السلام يكرس وقته للردّ على استفسارات الناس وإشكالاتهم، فكان يقيم جلسات مخصّصة لذلك، حتى أنّه أجاب في إحدى الجلسات عن مئات المسائل، ما أثار إعجاب الحاضرين بعمق علمه وفضائله الكبيرة^(١).

وهذه المنزلة العلميّة الرفيعة هي ما دعت (المأمون) إلى التقرب منه وإكرامه، بل والمبالغة في إجلاله وتعظيمه، حتى أنّه عزم على تزويجه من ابنته (أم الفضل). وقد أثبت الإمام عليه السلام جدارته بهذه المكانة وهو

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٦، ص ٤٩٦.

لا يزال في ريعان الصبا؛ حيث تولّى الإمامة وعمره لم يتجاوز السبع أو الثماني سنوات^(١).

وتتلمذ على يديه عدد كبير من الرواة والعلماء، منهم: (إسحاق بن إبراهيم الحضيضي)، و(أيوب بن نوح بن درّاج)، و(الحسن بن راشد)، و(صالح بن أبي حمّاد)، و(علي بن يحيى) -المُكنّى بأبي الحسين، و(محمّد بن أبي زيد الرازي)، و(نوح بن شعيب البغدادي)، و(أحمد بن الحسن بن علي بن فضّال)، و(حمدان بن سليمان بن عميرة)، و(داوود بن أبي زيد)، و(رجاء العبرتائي بن يحيى)، وغيرهم كثير من الفقهاء والمحدّثين^(٢).

وعلى الرغم من إقامته في عاصمة الخلافة (بغداد)، كان الإمام عليه السلام متّصفاً بالزهد الشديد في الدنيا. يروي (الحسين المكاري) قائلاً: «دخلت على أبي جعفر عليه السلام في بغداد وهو في حاله تلك، فقلت في نفسي: هذا الرجل لن يعود إلى وطنه أبداً (يقصد المدينة) وأنا أعرف مستوى عيشه الفاخر، فأطرق برأسه ثم رفعه وكان لونه قد اصفرّ، فقال: يا حسين، خبز شعير وملح جريش في حرم جدّي رسول الله ﷺ،

١ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٢٨١.

٢ - محمد بن الحسن الطوسي: رجال الطوسي، ص ٣٨٧.

أحبُّ إليَّ ممَّا تراني فيه»^(١).

كما كانَ (عليه السلام) حريصاً على توجيه أصحابه وإرشادهم، فوردَ أنَّ رجلاً جاءه طالباً الوصيَّة، فقال له الإمام (عليه السلام): «هل تقبل؟» قال: نعم. فقال (عليه السلام): «توسّد الصبر، واعتنق الفقر، وارفض الشهوات، وخالف الهوى، واعلم أنَّك لن تخلو من عين الله، فانظر كيف تكون»^(٢).

المبحث الثاني: السِّياقُ السِّياسي السَّائد

كان أتباع مدرسة أهل البيت يترقّبون بلهفة شديدة ميلاد الإمام الجواد من والده الإمام الرضا (عليه السلام)؛ إذ كانوا على علم مسبق بذلك. لكنَّ الإمام الرضا (عليه السلام) قد تجاوز عمره الأربعين عاماً دون أن يُرزق ذريَّة، وعندما كان يُسأل عن ذلك، كان يرد قائلاً: «إنَّ الله سوف يرزقني ولداً يكون الوارث لي والإمام من بعدي»^(٣).

وأخيراً، وُلد الإمام الجواد عام ١٩٥هـ. وقد قال الإمام الرضا (عليه السلام) لدى ولادته: «لقد وُلد لي من يشبه موسى بن عمران فاتح البحار،

١ - سعيد بن هبة الله الراوندي: الخرائج والجرائح، ج ١، ص ٣٨٣.

٢ - ابن شعبة الحراني: تحف العقول، ص ٤٥٥.

٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ١٥.

ويشبهه عيسى بن مريم. طهرت أم ولدته، فقد خلقت طاهرة مُطَهَّرَةً. ثم أضاف ﷺ: «يُقتل غصباً فيبكي له وعليه أهل السماء ويغضب الله على عدوه وظالمه، فلا يلبث إلا يسيراً حتى يُعجل الله به إلى عذابه»^(١). وشكّلت ولادة الإمام ﷺ محطةً مزّقت غيمة القلق التي كانت تخيم على قلوب الشيعة الذين كانوا يخشون ألا يكون للإمام الرضا ﷺ خليفة من بعده.

إنَّ النقطة الأبرز التي تستدعي التأمل هي تسلّم الإمام ﷺ لمنصب الإمامة وهو في السابعة أو الثامنة من عمره، ما شكّل سابقة في الفكر الإمامي. لكنَّ هذا الأمر لا يُعد غريباً في سير الأولياء والصالحين، التي حفلت بعدد من المعجزات والخوارق التي تتخطى القوانين الطبيعية المألوفة.

وتميّزت الفترة التي عاشها الإمام الجواد ﷺ بوجود شخصية فريدة على رأس السلطة، تمتّعت بدهاء غير عادي وعلم واسع، وأسلوب عمل متميّز عن غيره من الحكّام الذين تعاقبوا على مواجهة الأئمة ﷺ، ألا وهو (المأمون) الذي شهد له التاريخ بأنّه كان أذكى حكام بني العبّاس، كما كان (معاوية) أذكى بني أميّة.

فبخلاف من سبقوه في الحكم، الذين واجهوا الأئمة عليهم السلام وأتباعهم مواجهة مباشرة باستخدام القوة والعنف، فإن (المأمون) - الذي رأى بعينه كيف كان والده هارون الرشيد يتعامل مع الشيعة بقسوة بالغة - أدرك أن هذا النهج لن يزيدهم إلا تمسكاً بمبادئهم ورسوخاً في خطهم، بل قد يهدد استقرار حكم بني العباس نفسه^(١)، كما حدث مع حكم بني أمية من قبل، حيث انهار من جذوره.

المبحث الثالث: استراتيجية المأمون

انتهج المأمون منهجاً مغايراً في تعامله مع الشيعة، يركز على محاولة إضعاف الفكر الشيعي وهزيمته من داخله، بما يحدث شرخاً في قناعاتهم وعقائدهم ما يقضي عليهم نهائياً. ولإدراكه أنَّ مسألة الإمامة تمثل حجر الزاوية في هذا الفكر، سعى لتحقيق هدفه عبر محاور عدة:

١. محاولة تقويض عقيدة عصمة الإمام عليه السلام من خلال إحضاره إلى بلاط الخلافة ليعيش في رغد وترف القصور، آملاً أن يسقطه ذلك من أعين ناسه وأتباعه.

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٣١.

٢. محاولة النيل من مكانته العلميّة عبر إقامة مناظرات بينه وبين

أبرز علماء عصره بحضور النخبة والوجهاء، على أمل أن يعجز أو يتردّد، فيحقّق (المأمون) مراده.

٣. في حال فشل خطّته في تحطيم فكرة الإمامة، فإنّ وجود

الإمام ﷺ إلى جانبه سيحوّله إلى تابع للسلطة، ما يحوّل أتباعه من معارضين إلى مؤيدين لحكم بني العبّاس.

مضافاً إلى ذلك، شكّلت ممارسة الشيعة للتقيّة والعمل السريّ مشكلةً للدولة، وقُرب الإمام ﷺ من (المأمون) ومراقبته طوال الوقت يُمكنه من رصد جميع تحرّكاته واتصالاته، وبالتالي كشف قادة الشيعة وتنظيماتهم.

وقد طبّق المأمون هذه الاستراتيجية نفسها مع الإمام الرضا ﷺ، لكنّها باءت بالفشل الذريع، ولم يتمكّن من تسجيل أي نقطة ضعف ضدّ الإمام ﷺ يستغلّها، حتى أيقن أنّ الأمور تسير إلى غير صالحه، وأنّ شهرة الإمام الرضا ﷺ وحبّ الناس له تتعاظم بسبب تلك المناظرات، ويزداد أتباعه يوماً بعد يوم. فلم يبقَ أمامه إلا الحلّ الوحيد: التخلص منه بالسمّ. في هذا المناخ انتقلت مواجهة (المأمون) إلى الإمام الجواد ﷺ، الذي كان في الثامنة من عمره تقريباً. هنا، أبصر (المأمون) بصيص أمل جديد في تحقيق مخطّطه بالطريقة ذاتها، فالشخص الذي يواجهه الآن

ليس الإمام الرضا عليه السلام بل فتى لم يبلغ الحلم بعد، ومن في مثل سنّه - في الظاهر - لن يستطيع مجابهة كبار العلماء أو يقاوم مغريات القصور السلطانيّة. لذا، بادر باستدعاء الإمام الجواد عليه السلام إلى بغداد.

المبحث الرابع: ردّ الإمام الجواد عليه السلام

واجه الإمام الجواد عليه السلام هذه السياسة منذ وطأت قدماه بغداد، وأفشلها واحدة تلو الأخرى:

١- على الصعيد العلمي:

هيئاً (المأمون) مناظرات علنيّة بين الإمام عليه السلام وقاضي القضاة (يحيى بن أكثم)، بحضور أعيان الدولة ووجهائها. وصرّح (المأمون) بغايته منها عندما قال ليحيى: «اطرح على أبي جعفر محمّد بن الرضا عليه السلام مسألة صعبة تعجزه عنها». لكن سير المناظرات كان دوماً إلى صالح الإمام عليه السلام؛ حيث كان خصمه يقف حائراً منبهرًا من سعة علمه وإحاطته. ومثال على ذلك: عندما سأله يحيى: ما قولك في مُحرم قتل صيداً؟ فردّ الإمام عليه السلام بسؤال مضادّ: «أقتله في الحلّ أم الحرم؟ أكان عالمًا أم جاهلاً؟ أقتله عمدًا أم خطأ؟ أكان حرّاً أم عبداً؟ صغيراً أم كبيراً؟

لأوّل مرة يقتل أم معيدًا؟ أكان الصيد من الطيور أم غيرها؟ من صغار الصيد أم كباره؟ أكان مصرًّا على فعلته أم نادماً؟ أقتله ليلاً أم نهاراً؟ أكان محرماً بعمره حين قتله أم بحج؟.. فتحيّر (يحيى بن أكثم) وبدأ العجز على محيّا، وتلعثم حتى أدرك الحاضرون انقطاعه.

ثمّ شرع الإمام ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻲ في تفصيل أحكام كلّ حالة، قائلاً: «إنّ المحرم إذا قتل صيداً في الحلّ وكان الصيد من ذوات الطير، وكان من كبارها، فعليه شاة، فإن أصابه في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً، وإذا قتل فرخاً في الحلّ فعليه حمّل قد فُطم من اللبن، وإذا قتله في الحرم فعليه الحمل وقيمة الفرخ، فإذا كان من الوحش وكان حمار وحش فعليه بقرة، وإن كان نعامة فعليه بدنة، وإن كان ظبيّاً فعليه شاة، وإن كان قتل شيئاً من ذلك في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً هديّاً بالغ الكعبة. وإذا أصاب المحرم ما يجب عليه الهدى فيه، وكان إحرامه بالحجّ نحره بمنى، وإن كان إحرامه بالعمرة نحره بمكة، وجزاء الصيد على العالم والجاهل سواء وفي العمد عليه المأثم وهو موضوع عنه في الخطأ، والكفارة على الحرّ في نفسه، وعلى السيّد في عبده، والصغير لا كفارة عليه، وهي على الكبير واجبة والنادم يسقط ندمه عنه عقاب الآخرة، والمصرّ يجب عليه العقاب في الآخرة»^(١).

وكان من نتائج هذه المناظرات أن انتشر الفكر الشيعي وظهرت متانته وعلوه، فانقلبت خطّة (المأمون) عليه.

٢- الحفاظ على هبة أهل البيت (عليه السلام):

سعى (المأمون) جاهداً لتسجيل أي هفوة على الإمام (عليه السلام) للنيل من مكانته وقديسيته، واستخدم كل الوسائل. ففي رواية لـ (محمد بن الريان): احتال المأمون على أبي جعفر (عليه السلام) بكل حيلة فلم يقدر عليه. فلما أراد تزويجه ابنته، أرسل إليه مئة جارية من أجملهن، كلّ تحمل طبقاً من جواهر، ليقابلنه حين جلوسه في مكان الختان، فلم يلتفت إليهن إطلاقاً. وكان هناك رجل يُدعى مخارق، صاحب صوت وعود، طويل اللحية، فقال للمأمون: «دعني أكفيك أمره إن كان من أمور الدنيا». فجلس يعزف أمام الإمام (عليه السلام) الذي لم يلتفت إليه. ثم رفع الإمام (عليه السلام) رأسه وقال: «اتّق الله يا ذا العشون»^(١) قال: «فسقط المضراب من يده والعود فلم ينتفع بيده إلى أن مات»^(٢).

كان (المأمون) يستغلّ وجود الإمام (عليه السلام) في القصر إعلامياً لعكس

١ - اللحية الطويلة.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٤٩٥.

صورة سلبية في الوسط الشيعي. لكنّه فشل في تحويل الشيعة إلى أتباع للمشروع العباسي؛ حيث استفاد الإمام عليّ من هذه السياسة في تقوية المشروع الإسلامي الأصيل. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

واستمرّ (المأمون) في سياسته يجني الفشل تلو الآخر حتى تُوفي، فخلفه أخوه (المعتصم) الذي سار على النهج نفسه لفترة، ثمّ سرعان ما أدرك فشل هذه الاستراتيجية التي لم تزد مشروعه إلا ضعفاً وأتباع أهل البيت عليّ إلا قوّة وثباتاً. فأحبطه الفشل وتخلّى عن سياسته، ولجأ إلى القوّة والعنف ككل ضعيف يعجز عن مواجهة الفكر والكلمة، فدنّ السم للإمام عليّ الذي استشهد عن عمر لم يتجاوز الخامسة والعشرين.

الفصل الثاني عشر:

الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام

يمثّل الإمام الهادي عليه السلام محطةً تلازم فيها المباشرة العقدية مع تحدّيات السلطنة العباسية المتدهورة: طفولة إمامة تلازمها اختبارات شرعية وسياسية، وبيئة ثقافية تخطبها ترجمات ومعارف جديدة وظهور معايير سلطوية متبدّلة. هدف هذا الفصل أن يقدّم الإمام الهادي عليه السلام لا بوصفه مثلاً فردياً فحسب، بل نموذجاً لعمل إماميٍّ مؤسّسي: كيف تُنظّم شبكة الإمامة في زمن يكون فيه الوجود العلويّ معرضاً للاختزال والإفقار؟ وكيف يستمرُّ الفعل التربويّ والمعرفيّ في مواجهة ضيق المساحة العامة؟ سنعيد قراءة سلوك الإمام الهادي عليه السلام من خلال تراكيب ثلاثية: أخلاق الحضور (تواضع، عبادات، خطابات تربوية)، والإدارة التنظيمية (نظام الوكالة وأهمية الكلاء في هندسة التواصل)، والامتداد التاريخي (كيف تهيأ الحقل الشيعي لمرحلة ما بعد الإمام الهادي). ربّما الأهم، أن نفهمه صانعاً للمقومات التي ستحمّل غياب الإمام الحاضر لاحقاً؛ أي: تهيئة الذخيرة العقدية والرسائل العملية للأجيال القادمة.

المبحث الأول: حياة مضيئة

أولاً: نبذة تاريخية:

وُلد الإمام علي بن محمّد الهادي عليه السلام في الخامس عشر من ذي

الحجة سنة ٢١٢ هجرية بالقرب من المدينة المنورة في مكان يُعرف بـ (صريا). أبوه هو الإمام محمد الجواد عليه السلام، وأمّه السيدة سمانة المغربية، التي عُرفت بالتقوى والصلاح، وكانت دائمة الصيام ولا نظير لها في زهداها، وتكنّى بـ (أم الفضل). وقد ورد عن الإمام عليه السلام في حقها قوله: «أُمِّي عارفة بحقي وهي من أهل الجنة لا يقربها شيطان مارد، ولا ينالها كيد جبار عنيد، وهي محفوظة بعين الله التي لا تنام، ولا تختلف عن أمّهات الصديقين والصالحين»^(١).

ومن ألقابه عليه السلام: (النقيب)، و(المرتضى)، و(الهادي)، و(النقي)، و(العالم)، و(الفقيه)، و(الأمين)، و(المؤتمن)، و(الطيب)، و(المتوكل). وأشهرها لقباً «الهادي» و«النقي».

أما كنيته فهي: أبو الحسن الثالث، للتمييز بينه وبين الإمام الكاظم والإمام الرضا عليه السلام. ورُزق الإمام عليه السلام بخمسة أولاد هم: الإمام الحسن العسكري عليه السلام، و(الحسين)، و(محمد)، و(جعفر) - المشهور بجعفر الكذاب لادّعاءه الإمامة زوراً-، وابنته عائشة^(٢).

وقبل استشهاده، أوصى الإمام عليه السلام بالإمامة لابنه الإمام الحسن

١ - يوسف بن حاتم الشامي: الدرّ النظيم في مناقب الأئمة اللهايم، ص ٧٢١.

٢ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٣١٢.

العسكري(ع)^(١). واستشهد عليه في الثالث من شهر رجب سنة ٢٥٤ هجرية، مسموماً في عهد الخليفة (المعتز)، ودُفن في سامراء.

ثانياً: مكارم أخلاقه وفضائله:

كان الإمام الهادي عليه السلام أعذب الناس طلعة، وأصدقهم حديثاً، وأبهجهم مظهرًا عن قرب، وأكملهم هيئةً عن بعد؛ إذا سكت غمرته هيبَةُ الوقار، وإذا نطق أشرق بهاءً ونوراً^(٢). وكان الناس إذا دخل عليهم تواضعوا له إجلالاً وإكباراً. وهنا يروي (أبو هاشم الجعفري) أنَّ بعض الحاضرين في مجلس ينتظرون قدوم الإمام الهادي عليه السلام قالوا: «لَمْ نتواضع لهذا الغلام؟ فهو ليس بأشرفنا ولا أكبرنا سناً ولا أعلمنا! والله لن نفعل». فقال لهم (أبو هاشم): «والله لتقومنَّ إليه خاضعين عندما ترونه». وما إن أقبل الإمام عليه السلام حتى رأوه فقام الجميع له إجلالاً.. فقال لهم (أبو هاشم): «ألم تزعموا أنكم لن تقوموا؟» فردُّوا: «والله ما ملكنا أنفسنا حتى قمنا»^(٣).

وكان عليه السلام كثير العبادة لله تعالى، منصرفاً إليها بكلِّيته، لا يكل ولا

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٢٥.

٢ - ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٣، ص ٥٠٥.

٣ - ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٣، ص ٥١١.

يملّ، دائم الابتسام، ودائم الذكر لله عزّ وجلّ^(١). ومن أذكّاره الدائمة قوله: «سبحان من هو دائم لا يسهو، سبحان من هو قائم لا يلهو، سبحان من هو غني لا يفتقر، سبحان الله وبحمده»^(٢).
وكان متجرّداً من الدنيا، يلبس جبةً من الصوف، ويسجد على حصير بسيط^(٣).

ومن حكمه ومواعظه للناس ما روي عن (أبي هاشم الجعفري) قال: «أصابني ضيق وشدة، فذهبت إلى أبي الحسن علي بن محمّد ﺍﻟﻪﻳﻤﻪ، فأذن لي. فلمّا جلست قال: يا أبا هاشم، أيّ نعم الله تعالى عليك تريد أن تؤدّي شكرها؟ قال أبو هاشم: فدهشت ولم أدر ما أردّ عليه»

فابتدأه الإمام ﺍﻟﻪﻳﻤﻪ قائلاً: «رزقك الإيمان فحرّم بدنك على النار، ورزقك العافية فأعانتك على الطاعة، ورزقك الفنون فصانك عن التبذل، يا أبا هاشم إنّما ابتدأتك بهذا لأنّي ظننت أنّك تريد أن تشكو لي من فعل بك هذا، وقد أمرت لك بمئة دينار فخذها»^(٤).

١ - سعيد بن هبة الله الراوندي: الخرائج والجرائح، ج ٢، ص ٩٠١.

٢ - سعيد بن هبة الله الراوندي: الدعوات، ص ٩٤.

٣ - سعيد بن هبة الله الراوندي: الخرائج والجرائح، ج ٢، ص ٩٠١.

٤ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): الأمالي، ص ٤٩٨.

ثالثاً: إطلالةٌ على عطاءه العلمي:

يُجمع كُتّاب السيرة والمؤرّخون على اعتبار الإمام الهادي (عليه السلام) أحد أبرز الشخصيات العلميّة في زمانه؛ حيث تتلمذ على يديه وروى عنه ما يزيد عن مئة وخمسة وثمانين طالباً وراوياً. وقد حفظت لنا المصادر التراثيّة في مجالات الحديث والفقه والتفسير والمناظرات وغيرها ثروة علميّة نُقلت عنه واستُفيد منها.

ومن بين أبرز تلامذته ورواة حديثه: (أحمد بن حمزة بن اليسع)، و(داوود بن القاسم الجعفري)، و(عبد العظيم الحسني)، و(أحمد بن إسحاق الأشعري)، و(الحسين بن سعيد الأهوازي)، و(داوود النيشابوري)، و(علي بن مهزيار الأهوازي)، و(الفضل بن شاذان النيشابوري)، و(عثمان بن سعيد العمري) - وكيل الإمام المهدي (عليه السلام) وسفيره^(١).

وللإمام (عليه السلام) أيضاً رسائل في مجالات متعدّدة، تشمل رسالة في نقد نظريّة الجبر والتفويض، وأخرى في إثبات العدل الإلهي، وثالثة في بيان مفهوم "المنزلة بين المنزلتين"، وغيرها من القضايا.

المبحث الثاني: استلام الإمام الهادي ﷺ لمنصب الإمامة

تولّى الإمام الهادي ﷺ مهام الإمامة بعد استشهاد والده الإمام الجواد ﷺ عام ٢٢٠هـ، وكان عمره آنذاك ثمانى سنوات فقط. وبذلك، تُعدّ إمامته النموذج الثاني لتولّي منصب الإمامة في سنٍّ مبكرة ضمن الفكر الشيعي، تمامًا كما حدث مع الإمام الجواد ﷺ من قبله؛ حيث كان هناك استعداد وتوطئة من الإمام الرضا ﷺ لإمامة ابنه من بعده.

وقد استدعت هذه المرحلة المبكرة تركيز النصوص والروايات على تثبيت فكرة إمامته في أذهان الناس. كما أنّ تسلّمه لهذا المنصب الإلهي في مثل هذا السنّ الصغير جعل الكرامات تظهر على يديه، ما يؤكّد صلته بعالم الغيب. ولذلك، كان لا بدّ من التأكيد على إمكانية نيل مرتبة الإمامة في الصغر، وقد وردت في ذلك روايات عدّة.

وبعض هذه الروايات يشير صراحةً إلى أنّ الإمام الهادي هو الخليفة الشرعي بعد أبيه، وأخرى تؤكّد على ضرورة الانقياد لأمره وتبيين أنّ الإمام من بعده هو ابنه الحسن ﷺ، ثمّ الإمام القائم ﷺ. ومن تلك الروايات ما نقله (إسماعيل بن مهران) عن الإمام الجواد ﷺ عندما

سأله عن الإمام من بعده أثناء خروجه إلى بغداد، فأجابه ضاحكاً بأنَّ الخطر لم يحن بعد، ولكن عند استدعائه للمرة الثانية، بكى الإمام (عليه السلام) وأخبره بأنَّ الإمام من بعده هو ابنه علي (أي الإمام الهادي). وفي رواية أخرى عن (الصقر بن أبي دلف)، قال الإمام الجواد (عليه السلام): "الإمام بعدي ابني عليّ، أمره أمري، وقوله قولي، وطاعته طاعتي، والإمام بعده ابنه الحسن، أمره أمر أبيه، وقوله قول أبيه، وطاعته طاعة أبيه"^(١). وعندما سُئل عن الإمام بعد الحسن، بكى بشدّة ثمَّ قال: «إن بعد الحسن ابنه القائم بالحقّ المنتظر»^(٢).

المبحث الثالث: السياق التاريخي لعصر الإمام الهادي (عليه السلام)

أولاً: الأوضاع السياسيّة السائدة في عصره (عليه السلام):
تولّى الإمام الهادي (عليه السلام) مسؤولياته الإماميّة في عهد الخليفة العبّاسي (المعتصم) عام ٢٢٠ هـ، واستمرّت إمامته حتى استشهاده في خلافة

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٦٠.

٢ - علي بن يونس العاملي النباطي البياضي: الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، ص ٢٣٠.

المعترّ عام ٢٥٤ هـ. وخلال هذه الفترة التي امتدّت لأربعة وثلاثين عاماً، عاصر الإمام ستّة من خلفاء بني العبّاس.

ويُعَدُّ عهد الخليفة المتوكّل بداية ما يُعرف بالعصر العبّاسي الثاني، الذي تميّز بهيمنة النفوذ التركي (من عام ٢٣٢ إلى ٣٣٤ هـ). يرى عدد من المؤرّخين أنّ هذه الحقبة كانت بمثابة الشرارة الأولى لمرحلة التدهور والتفكك التي دخلتها الدولة العبّاسيّة، والتي انتهت لاحقاً بانهيائها على يد المغول (التتار) سنة ٦٥٦ هـ.

وساهمت السياسات التي انتهجها المتوكّل وأسلافه في تمرّد بعض الأقاليم واستقلالها التدريجي عن السلطة المركزيّة في بغداد، ما أدّى إلى ظهور كيانات ودول مستقلّة ومتنافسة مثل السامانيّة والبويهية والحمدانيّة، والتي أعقبتها لاحقاً دول الغزنويين والسلاجقة^(١).

ويعتبر (المعتصم) أول خليفة عبّاسي يفتح الباب على مصراعيه للعنصر التركي؛ حيث اعتمد عليهم بشكل كبير في الجيش والإدارة ومنحهم المناصب القياديّة والأراضي الواسعة^(٢).

أما (المتوكّل)، فقد اشتهر باتباعه سياسة قمعيّة وعنيفة تجاه

١ - حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٣، ص ١.

٢ - حسن حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٣، ص ٢.

العلويين وأتباع مدرسة أهل البيت (عليه السلام). بلغت ذروة هذه السياسة العدائية عندما أمر بهدم ضريح الإمام الحسين (عليه السلام) في كربلاء، ومنع الناس من زيارته، وهدّد كلّ من يخالف هذا المنع بالسجن. أثارت هذه الإجراءات الاستفزازيّة سخط المسلمين عامّة، وأهالي بغداد خاصّة، الذين ردّوا على إهاناته للعلويين بشتمة علنيّة في الشوارع والمساجد^(١). بعد (المتوكّل)، خلفه ابنه (المنتصر) الذي انتهج سياسة معاكسة لسياسة أبيه، فعامل العلويين معاملة حسنة، وأزال عنهم أجواء الخوف والرعب، وألغى الحظر على زيارة قبر الإمام الحسين (عليه السلام). لكنّ حكمه كان قصيراً؛ حيث دبر له القادة الأتراك مؤامرة انتهت بقتله على يد طبيبه الخاصّ (طيفور) سنة ٢٤٨ هـ^(٢).

تولّى الخلافة بعد مقتل (المنتصر) (المستعين بالله) سنة ٢٤٨ هـ، وأعاد العاصمة إلى بغداد. لكنّ مصيره أيضاً كان مأساوياً، حيث قُتل غدراً^(٣)، ليتولّى الخلافة من بعده (المعتز) بقيادة وتدبير من الأتراك^(٤).

١ - محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ١١، ص ٤٤.

٢ - حسن حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٣، ص ٥.

٣ - محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٦، ص ٤٣٧.

٤ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٥٠ وما بعدها.

٥ - أبو الحسن المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٤٠٧-٤٠٨.

ولم يسلم (المعتز) نفسه من بطش وتعسف قادة الدولة الأتراك؛ حيث قُتل قتلةً بشعة على أيديهم سنة ٢٥٥ هـ، وهو نفسه الذي دُبِّرَت مؤامرة لقتل الإمام الهادي ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻲ في عهده.

ويشير التحليل التاريخي إلى أن ضعف الشخصية الذي ميَّز معظم خلفاء تلك الحقبة كان أحد العوامل الرئيسة وراء حالة التفكك والانحيار التي أصابت الدولة. وقد اقترن هذا الضعف بنفوذ كبير لزوجاتهم وأمهاتهم في شؤون الحكم، مضافاً إلى سيطرة القادة الأتراك الذين استُقدموا أصلاً للحد من نفوذ الفرس والعرب. كما كان لظلم الولاة والوزراء وفسادهم دور محوري في تقويض ثقة الرعية بالحكومة، وإشعال نيران الفتن والاضطرابات في أرجاء العالم الإسلامي.

ثانياً: المشهد الثقافي:

أسهمت الحركة الواسعة لترجمة الأعمال من اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية في تشكيل ملامح الثقافة في تلك الفترة. وقد بدأت هذه الظاهرة في عهد الخليفة (المأمون)، وأسهمت من ناحية في إثراء الثقافة الإسلامية، ومن ناحية أخرى في فتح آفاق للتواصل مع الحضارات الأخرى، وما تحمله من تيارات فكرية قد تلتقي أو تختلف مع ما أنتجته الحضارة الإسلامية.

كما أدّى تنقّل المسلمين وترحالهم عبر أرجاء العالم المعروف إلى تعزيز التبادل الثقافي بين شرق العالم الإسلامي وغربه، ما ولّد حراكاً فكرياً ونشاطاً ثقافياً متميّزاً. وقد حظي الشعراء والأدباء برعاية خاصّة من قبل الحكام والأمراء، ما أسهم في ازدهار الحركة الأدبيّة بشكل ملحوظ خلال هذه الحقبة.

ثالثاً: الأوضاع الاقتصادية:

أثّرت الاضطرابات السياسيّة والصراعات على السلطة وبداية انفصال بعض الأقاليم عن الدولة العبّاسيّة سلّماً على الاقتصاد، ما أدّى إلى تدهوره. وساهمت الطبقية الاجتماعية الواضحة في تسريع الانهيار الاقتصادي، إلى جانب انتشار المجاعات وارتفاع الأسعار، ما كان له تأثير كبير في تفشّي انعدام الأمن وفقدان الدولة لقدرتها على السيطرة. وقد انعكس هذا الضعف الاقتصادي والسياسي على قصر المدّة الزمنيّة لفترات حكم الخلفاء، كما تجلّى في انتقال السيطرة الفعلية على إدارة الدولة إلى القادة الأتراك بدلاً من الخلفاء أنفسهم، وهو ما يعدّ دليلاً واضحاً على ضعف نفوذهم وفقدان هيبتهم أمام قادة الجيش ووزرائهم وكتّاب الدواوين^(١).

١ - راجع: محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص ٦٧٦، وما بعدها.. أحداث السنوات ٢٤٧-٢٥٤ للهجرة.

رابعاً: العلاقة بين العباسيين والإمام الهادي عليه السلام:

تطوّرت سياسة الحكام العباسيين في مواجهة أهل البيت عليه السلام بعد أن أدركوا مكانتهم الدينية والاجتماعية المتميزة، وأنّهم لم يكونوا مستعدين للمساومة على مبادئهم وقيّمهم من أجل السلطة والملك. فاتّبع (السفّاح) و(المنصور) و(الرشيد) سياسة المراقبة المشدّدة والتضييق مع السماح بهامش محدود للحركة، إلى جانب خلق بدائل علمية لمنع انفراد أهل البيت عليه السلام بالمرجعية العلمية والدينية في المجتمع، وذلك من خلال دعم أئمة المذاهب الأخرى وتبني بعضها والدعوة إليها. لكنّ هذه الأساليب كلّها لم تنجح في تحويل الأنظار عن أهل البيت عليه السلام، ما دفع بـ (المأمون) إلى اتّباع أسلوب جديد هو سياسة الاحتواء التي طبّقها مع الإمام الرضا عليه السلام.

أمّا الإمام الهادي عليه السلام فقد بقي تحت الرقابة المشدّدة للخلفاء العباسيين لأكثر من عشرين عاماً، وهي مدّة طويلة جداً مقارنة بفترة ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام أو فترة وجود الإمام الجواد عليه السلام في بغداد في عهد (المعتصم)، ما يشير إلى وضوح السياسة الحقيقية للعباسيين تجاه أئمة أهل البيت عليه السلام ومدى تخوفهم من نفوذهم وتأثيرهم.

خامساً: اضطهاد أتباع أهل البيت (عليه السلام):

باستثناء الفترة القصيرة التي لم تتجاوز ستّة أشهر خلال حكم (المنتصر) التي اتّسمت سياسته فيها باللين تجاه العلويين وشيعة أهل البيت (عليه السلام)، نجد أنّ السياسة العامّة للدولة العبّاسيّة كانت معادية لأهل البيت (عليه السلام) وأتباعهم، ومارست ضدهم سياسة قمعيّة عنيفة، على الرغم من الانتشار الواسع للتشيع بعد أن تظاهر (المأمون) بإظهار الاحترام للإمام الرضا (عليه السلام).

ويعود حرمان أهل البيت (عليه السلام) وشيعتهم من المستوى المعيشي اللائق إلى تخوّف السلطة العبّاسيّة من استخدام الأموال في الإطاحة بحكمهم. لذا، اتّخذت سياسة التقتير والإفقار تجاههم منهجاً عامّاً سار عليه معظم حكام بني العبّاس الذين كانوا يدركون جيّداً المكانة الاجتماعيّة الرفيعة لأهل البيت (عليه السلام) في قلوب المؤمنين.

وقد امتدّ هذا الحرمان إلى فصلهم من الوظائف الحكوميّة إذا ما اكتُشف أنّ موالياً لأهل البيت (عليه السلام) يشغل أحد المناصب، بل وتجاوز ذلك إلى مصادرة أملاكهم وتقييد عدد خدمهم، حتى أصبح الفقر والحرمان سمةً ظاهرة عند كثير من العلويين في تلك الحقبة.

سادساً: انتفاضات العلويين:

بلغ اضطهاد (المتوكل) للعلويين ومنعهم حقوقهم الشرعية درجةً عالية من القسوة، أوشكوا معها على الهلاك نتيجة العوز وشدة الفقر. بل تمادى في ظلمه إلى درجة تقديم دعوى غير العلوي على دعوى العلوي إذا تحاكما إلى القضاء. ولم نرَ من العباسيين بشكل عام إلاَّ العداء والكره لأهل البيت ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻴﻴﻦ، لأسباب متعددة، أبرزها: اختصاص أهل البيت ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻴﻴﻦ بالنصِّ عليهم من قبل جدِّهم الرسول ﷺ، وتميُّزهم بالزعامة الروحية والعلمية، وتأثيرهم الكبير في قلوب المسلمين ومشاعرهم، واهتمامهم بشؤونهم، وإيثارهم الدين على الدنيا، والاستعداد للموت في سبيل الله على حياة الذلِّ والهوان في معصيته.

لقد اتَّجهت مشاعر المسلمين وقلوبهم نحو أبناء الرسول ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻴﻴﻦ وشيعتهم المقتدين بهم، وأخذ هذا الاتجاه في النمو والبروز على الساحة الإسلامية، وهو ما أقلق حكام بني العباس وعملاءهم الذين تنعموا بثروات بيت مال المسلمين في مآذب باذخة. ومن هنا، لم تخلُ الساحة الإسلامية من الثورات التي قادها زعماء علويون بشكل متواصل بعد ثورة الحسين ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻴﻲ.

واستمرت هذه الثورات حتى عصر الغيبة، وتوجت لاحقاً بتأسيس دويلات وإمارات حكمها زعماء علويون أو علماء يحملون فكر أهل

البيت (عليه السلام) وساروا على نهجهم، ساعين لتجسيد قيمهم وسيرتهم في الواقع الإسلامي.

ولم تكن اغتيالات الخلفاء لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) إلا بسبب دعمهم وتأييدهم -من قريب أو بعيد- لهذه الثورات المسلّحة ضدّ الظلم. وقد ثار على حكّام تلك الفترة مجموعة من العلويّين، مثلوا امتداداً طبيعياً للخط الثوري المناهض للظلم والظالمين.

المبحث الرابع: الجانب التنظيمي (نظام الوكالة)

استلزم مفهوم الإمامة، الذي يقوم على قيادة الأئمة نحو الخير والصالح في الدنيا والآخرة، أن يضطلع الإمام (عليه السلام) بتنظيم شؤون المجتمع لحماية المؤمنين وإمامهم من مكائد السلطة التي كانت تربّص بهم. فاعتمد أسلوب نظام الوكالة للتواصل مع أتباعه وشيعته المنتشرين في أرجاء العالم. فكيف كان هذا النظام؟ تتمثّل مهامّ الوكلاء في تنظيم عمليّة الاتصال بين الإمام (عليه السلام) وشيعته، خاصّة في الجوانب الآتية: استلام أموال الخمس من الشيعة وإيصالها إلى الإمام (عليه السلام)، والردّ على الاستفسارات الفقهيّة والعقدية، والتعريف بالإمام وتهيّة الأرضيّة المناسبة له.

وكان من بين وكلائه (علي بن جعفر). وقام الإمام ﷺ بتنظيم العلاقات بين الوكلاء أنفسهم، بحيث يلتزم كل وكيل ضمن نطاق عمله المحدد دون التدخل في شؤون الآخرين. وقد وجه كتاباً إلى (أيوب بن نوح) - أحد وكلائه - يأمره فيه بعدم الإكثار من التواصل المباشر مع الوكيل الآخر (أبي علي)، وأن يلتزم كل منهما بالمهام الموكلة إليه في منطقته. كما أوصى (أبا علي) بمثل ما أوصى به (أيوباً)، وطلب منهما أن يتولّى كل منهما الشؤون المالية للشعبة في ناحيته دون قبول أموال من شيعة المناطق الأخرى.

كما نظم الإمام ﷺ العلاقة بين الوكيل وشيعته في ناحيته؛ حيث جعل طاعة الوكيل بمثابة طاعة له شخصياً، فقال في كتاب له عن (أبي علي بن راشد): «فقد أوجبت في طاعته طاعتي، والخروج إلى عصيانه الخروج إلى عصياني، فالزموا الطريق يأجركم الله ويزدكم من فضله»^(١). وأكد على ضرورة تسهيل مهمة الوكيل وتمهيد الطريق أمامه، قائلاً: «فعليك بالطاعة له والتسليم إليه جميع الحقّ قبلك، وأن تحضّر مواليّ على ذلك، وتعرفهم من ذلك ما يصير سبباً إلى عونه وكفايته، فذلك توفير علينا ومحجوب لدينا، ولك به جزاء من الله وأجر»^(٢).

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٢٣.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٢٣.

الفصل الثالث عشر:

الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام

يفتح هذا الفصل قراءةً مركّبةً عن الإمام العسكري (عليه السلام) بصفته قائدًا معنويًا في عصر أمنيّ خائق: سجن، ومراقبة، وإيكال مسؤوليّاتٍ كبرى في ظلّ دولةٍ لا تقبل التنافس الفكريّ. هنا، لا ندرس «سيرة» بالمعنى التقليدي فقط، بل نضع الوجود الإمام العسكري (عليه السلام) في سياق عمليتين متلازمتين: الأولى، تقنينُ الإمامة في زمن الاستضعاف عبر أدوات اجتماعيّة-شرعيّة (النوّاب، والوكلاء، والشبكات). والثانية، المقاربة العقديّة للتأسيس للغيبة التي بعدها؛ أي العمل على تثبيت مفهوم الانتظار والوصيّة في وعي الجماعة. من هذا المنظار تكون رسالة الإمام العسكري (عليه السلام) أعمق من دوره الزمني؛ هي تأسيس لوجود غير ظاهرٍ لكنّه مستمرّ، وبناء قدرةٍ عقديّة تؤمّن صمود الأُمّة. سنعالج في المباحث كيف تلاقى التأسيس النظري مع إدراك المآلات العمليّة، وكيف تحوّلت أشكال الحضور (الرسائل، والتوقيعات، والوكلاء) إلى استراتيجيّة بقاء معرفيّة-تاريخيّة.

المبحث الأول: حياة مضيئة ومشركة

أولاً: نظرة تاريخيّة:

وُلد الإمام الحسن بن علي العسكري (عليه السلام) في المدينة المنورة في

اليوم الثامن من شهر ربيع الآخر عام ٢٣٢ هجري. والده هو الإمام علي الهادي ﷺ، وكان يُطلق عليه وعلى أبيه وجده ﷺ لقب (ابن الرضا). أما والدته فكانت تسمى (حُدِيث) أو (سَلِيل)، وقد عُرِفَتْ بصلاحها وتقواها البالغين، وكانت في مكانتها بين قومها بمقام الملكات. ويكفي دلالة على فضلها أنها أصبحت ملاذاً ومرجعاً للشيعة بعد استشهاد الإمام العسكري ﷺ^(١).

ومن الألقاب التي اشتهر بها: (التقي)، و(المرضي)، و(النقي)، و(الرفيق)، و(الزكي)، و(الصامت)، و(الهادي)، و(السراج)، و(العسكري)، و(الخالص). وكنيته هي (أبو محمد)^(٢).

وكان للإمام الحسن العسكري (عليه السلام) ولدٌ وحيد هو الإمام محمد المهدي المنتظر ﷺ^(٣).

تولَّى منصب الإمامة بعد استشهاد والده الإمام الهادي ﷺ عام ٢٥٤

١ - عباس القمي: منتهى الآمال، ج ٢، ص ٦٤٩.

٢ - يروي محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق) أنه سمع مشايخه يقولون: «إنَّ المنطقة التي سكنها الإمامان علي بن محمد الهادي والحسن بن علي العسكري (عليهما السلام) في سامراء، كانت تُعرف باسم العسكر، ولهذا السبب أُطلق على كلٍّ منهما لقب (العسكري)». (راجع: الصدوق: علل الشرائع، ج ١، ص ٢٣٠).

٣ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٣٣٦.

هجري، واستمرت إمامته ست سنوات حتى عام ٢٦٠ هجري. وقبل استشهاده، أوصى بالخلافة والإمامة لابنه الإمام المهدي عليه السلام.
استشهد عليه السلام يوم الجمعة في الثامن من ربيع الأول عام ٢٦٠ هجري عن عمر يناهز ٢٨ عامًا، ودُفن إلى جانب أبيه الإمام الهادي عليه السلام في سامراء.

ثانيًا: سمو أخلاقه وعبادته:

برز من حياة الإمام العسكري عليه السلام، رغم الرقابة المشددة والصارمة من قبل سلطات عصره، حرصه على خدمة الناس والاهتمام بهم. يروي (محمد بن القاسم أبو العيناء الهاشمي)، وهو مولى لـ (عبد الصمد بن علي)، قائلاً: "كنت أدخل على أبي محمد عليه السلام فأعطش وأنا عنده، فأستحيي أن أطلب الماء، فيقول عليه السلام: يا غلام اسقه. وربما خطر ببالي القيام، فأفكر في ذلك، فيقول عليه السلام: يا غلام دابته" ^(١).

كان الإمام عليه السلام كثير العبادة لله تعالى، يقيم الليل ويصوم النهار. وقد كان موضوعاً تحت مراقبة شديدة، لكن شخصيته أثرت بعمق في كثيرين. يروى أن جماعة من العباسيين زاروا (صالح بن صيف)

عندما سجن أبا محمد ﷺ، قائلين له: "شدّد عليه ولا تتساهل". فردّ عليهم (صالح): "ماذا أفعل به؟ لقد وكلت به رجلين من أقسى من عرفت، وقد أصبحا من شدّة العبادة والصلاة والصيام في حالة مذهلة". ثمّ أمر بإحضار الحارسين، فقال لهما: "ويحكما! ما شأنكما مع هذا الرجل؟" فأجابا: "ماذا نقول في رجل يصوم النهار ويقوم الليل كلّ، لا يتكلّم ولا ينشغل بشيء سوى العبادة؟ إذا نظر إلينا ارتعدت فرائصنا وخالطنا شعور لا نقوى على التحكّم فيه". فلمّا سمع العباسيون ذلك، انصرفوا خائبين^(١).

وكان الخليفة (المعتمد) يستفسر بشكل دائم عن أحوال الإمام ﷺ عبر (علي بن جرير)، ويطلب أخباره، فكان الجواب الذي يصله دائماً: "إنّه يصوم النهار ويصليّ الليل"^(٢).

كان ﷺ كثير الوعظ والتذكير باللّٰه سبحانه، ومن حكمه قوله: "أورع الناس من وقف عند الشبهة؛ أعبد الناس من أقام على الفرائض؛ أزهد الناس من ترك الحرام؛ أشدّ الناس اجتهاداً من ترك الذنوب"^(٣).

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٥١٢.

٢ - علي بن موسى ابن طاووس: مهج الدعوات، ص ٢٧٥.

٣ - ابن شعبة الحراني: تحف العقول، ص ٤٨٩.

ثالثاً: منزلة الإمام ومكانته العلميّة:

رغم كلّ الضغوط والمضايقات السياسيّة والأمنيّة التي أحاطت بالإمام العسكري (عليه السلام)، فإنّه استطاع أن يتحرّك في الساحة العلميّة بين المسلمين عموماً والشيعه خصوصاً؛ حيث عمل الإمام (عليه السلام) في تلك الفترة على إعداد وتأهيل عدد كبير من العلماء؛ ليكونوا مرجعاً للنّاس -كما سيأتي لاحقاً- ومن ناحية أخرى، كان يردّ على جميع الشبهات الفكرية التي تواجه الإسلام والتي قد تؤثر على معتقدات المسلمين، والتي لم يتمكن أحد من حلّها إلا الإمام العسكري (عليه السلام). فكان (عليه السلام) يجيب عن تلك الإشكالات بحكمة بالغة ويقدم الحلول وفقاً لمنهج مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، كما حدث مع (إسحاق الكندي)، فيلسوف العراق في ذلك الزمان، عندما ألّف كتاباً عن ما زعمه من تناقض في القرآن الكريم، وانعزل لأجله في بيته. وبفضل علم الإمام (عليه السلام) وبصيرته النافذة، جرى تنفيذ جميع أسس حديث (الكندي)؛ حيث أرسل الإمام (عليه السلام) أحد تلامذته (الكندي) إليه حاملاً رسالة تقول: "قل له: إذا جاءك هذا المتكلّم بهذا القرآن، هل من الممكن أن يكون قصد بكلامه معاني غير تلك التي ظننت أنّك فهمتها؟ فإنّه سيجيبك بالإيجاب، لأنّه رجل يفهم إذا سمع. فإذا اعترف بذلك، فقل له: ما الذي يؤكّد لك أنّه ربما قصد معنى آخر غير الذي فهمته أنت؟ وبذلك تكون قد نسبت إليه

معاني غير مقصودة“.

فردّ (الكندي) على الرجل قائلاً: ”أستحلفك بالله، أخبرني من أين جاءك هذا الكلام؟“

فأجاب الرجل: ”لقد أمرني به أبو محمد الإمام العسكري (عليه السلام). فقال (الكندي): ”الآن جئت بالحقيقة، فما كان لمثل هذا الفكر العميق إلا أن يصدر من ذلك البيت الطاهر. فهم وحدهم القادرون على كشف الحقائق وإيضاحها“. ثم أمر بإحضار النار وأحرق جميع ما كتبه في ذلك الكتاب^(١).

المبحث الثاني: الأوضاع والتحوّلات السياسيّة في زمن الإمام العسكري (عليه السلام)

تولّى الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) مهام الإمامة خلفاً لوالده الإمام الهادي (عليه السلام). وخلال فترة إمامته القصيرة التي لم تتجاوز ست سنوات، عاصر حكم ثلاثة خلفاء عبّاسيين هم: (المعتز) و(المهتدي) و(المعتمد). واستمرّت المعاناة من بطش الدولة العباسيّة؛ حيث شهد

١ - ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٤، ص ٤٢٤.

عهد (المعتزّ) إعدام عدد من الأبرياء وسجن أكثر من سبعين شخصاً من آل جعفر وآل عقيل من العلويّين.

وبعد (المعتزّ)، تسلّم (المهتدي) خلافة، فسجن الإمام (عليه السلام) بل اتّخذ قراراً بقتله، لكن الموت عاجله قبل أن ينقذ مخطّطه.

ويروي (علي بن جعفر عن الحلبي): "اجتمعنا في سامراء وانتظرنا خروج أبي محمّد (عليه السلام) في يوم من أيّام خروجه، فصدر توقيعه: "ألا لا يسلمنّ عليّ أحد، ولا يُشزّ إليّ بيده، ولا يومئ، فإنكم لا تؤمنون على أنفسكم" (١).

ويكتب (أحمد بن محمّد): "كتبت إلى أبي محمّد (الإمام العسكري) عندما شرع (المهتدي) في قتل الموالي: يا سيدي، الحمد لله الذي شغله عنا، فقد بلغني أنّه يتهدّدك ويقول: والله لأجلينّهم عن وجه الأرض. فكتب أبو محمّد (عليه السلام) بخطّه: "ذلك أقصر لعمره، عدّ من يومك هذا خمسة أيام ويقتل في اليوم السادس بعد هوان واستخفاف يمرّ به"، فكان كما قال (عليه السلام)" (٢).

وقد بلغت حدّة الضغوط والمضايقات في عهد الإمام العسكري (عليه السلام)

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٦٩.

٢ - الشيخ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، ص ٣٢٤.

درجة اضطرَّ معها إلى اعتماد أساليب سرية وأمنية في تعامله. ويعود سبب هذه المضايقات إلى عاملين رئيسين:

١. تحوُّل الشيعة في عصر الإمام العسكري (عليه السلام) إلى قوة كبيرة مؤثرة في العراق، معارضة للخلفاء والحكام؛ حيث كانوا لا يعترفون بشرعية أي من الخلفاء العباسيين ويعتقدون أنَّ الإمامة محصورة في ذرية الإمام علي (عليه السلام). ومن الأدلة التاريخية على ذلك اعتراف (عبيد الله) وزير (المعتمد) بهذه الحقيقة، عندما جاءه جعفر الكذاب (أخو الإمام العسكري) بعد استشهاد طالباً أن يعطيه مكانة أخيه مقابل أن يدفع له عشرين ألف دينار سنوياً، فزجره الوزير قائلاً: ”يا أحمق، إنَّ السلطان قد استخدم السيف مع من ادَّعى إمامة أبيك وأخيك ليردَّهم عن ذلك فلم يستطع، فإذا كنت إماماً عند شيعة أبيك وأخيك فلا حاجة بك إلى مرتب“^(١).

٢. علم العباسيين وغيرهم -وفقاً للروايات المتواترة- أنَّ المهدي المنتظر الذي سينشر العدل والحرية في العالم ويسقط

١ - علي بن عيسى الإريلي: كشف الغمة، ج ٣، ص ١٩٧.

الحكومات الظالمة هو من أولاد الحسن العسكري عليه السلام. لذلك فرضوا رقابة صارمة على الإمام العسكري عليه السلام ووضعوه تحت المراقبة الدقيقة في كلّ تحركاته وتفاصيل حياته^(١). وبعد خلافة (المهدي)، تسلّم (المعتمد) زمام السلطة، وفي عهده استشهد الإمام العسكري عليه السلام، وقُتلت مجموعة من العلويين في هذه الأحداث. وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أنّ بعضهم قُتل بأبشع الطرق ومُثل بجثثهم بعد القتل^(٢).

المبحث الثالث: الإمام العسكري عليه السلام والإعداد لظهور الإمام المهديّ عليه السلام

تميّزت فترة إمامته عليه السلام بمهمّة فريدة، وهي التهيئة لمرحلة ميلاد الإمام المهدي عليه السلام وما يتبعها من غيبة صغرى ثمّ كبرى، وبناء صلة سليمة بين الأئمة وإمامها، وضرورة نقل المجتمع الشيعي من مرحلة الاتصال المباشر بالإمام المعصوم إلى مرحلة الاتصال غير المباشر.

١ - ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٤، ص ٤٣٤.

٢ - أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبين، ص. ص ٦٨٥-٦٩٠.

وتُعدّ هذه المرحلة من أدقّ المراحل التي مرّ بها الفكر الشيعي منذ عهد النبي محمد ﷺ وحتى زمن الإمام العسكري عليه السلام. لذلك اضطلع الإمام عليه السلام بمهمة مكثّفة لنشر الأحاديث التوجيهية والقيام بإجراءات عملية للتمهيد لمرحلة الغيبة، وقد عمل على ذلك من محاورين:

أولاً: التمهيد الفكري والنظري:

ويمكن إيجاز دور الإمام عليه السلام في هذا المجال في النقاط الآتية:

١. الإعلان عن الإمام اللاحق والتعريف به بين أتباعه:

يروى (محمد بن عبد الجبار) قال: «قلت لسيدي الحسن بن علي عليه السلام: يا ابن رسول الله، أفديك بروحي، أود أن أعرف من هو الإمام وحجة الله على خلقه من بعدك. فأجاب عليه السلام: "إنَّ الإمام من بعدي هو ابني، الذي تسمّى باسم رسول الله ﷺ وتكنّى بكنيته، وهو خاتم حجج الله وآخر خلفائه". فسألته: من أيّ أم هو يا ابن رسول الله؟ فقال عليه السلام: "من ابنة قيصر ملك الروم، ألا وإنّه سيولد ثم يغيب عن أعين الناس غيبة طويلة، ثم يظهر بعد ذلك" (١).

١ - الفضل بن الحسن الطبرسي: النجم الثاقب في أحوال الإمام الحجة الغائب، ج ١، ص ١٣٦.

ويروي (يعقوب بن منقوش) قال: "دخلت على أبي محمّد الحسن بن علي (عليه السلام) وهو جالس على أريكة في الدار، وعن يمينه غرفة عليها ستار مسدول. فقلت: سيدي، من صاحب هذا الأمر (من الإمام القادم)؟ فقال: ارفع الستر. فرفعته فخرج إلينا فتى في نحو الخامسة من عمره، يبدو أنّه في العاشرة أو الثامنة أو ما حول ذلك، واضح الجبين، أبيض البشرة، واسع العينين، غليظ الكفّين، مقوس الركبتين، وفي خده الأيمن شامة، وعلى رأسه خصلة شعر. فجلس على حجر أبي محمّد (عليه السلام)، ثمّ قال لي الإمام: هذا هو صاحبكم من بعدي. ثم نهض الفتى فقال له الإمام: يا بني، ادخل الآن إلى وقتك المعلوم. فدخل الغرفة وأنا أنظر إليه. ثم قال لي الإمام (عليه السلام): يا يعقوب، تأكّد بنفسك من داخل الغرفة. فدخلت فلم أجد أحدًا بداخلها" (١).

٢. التشديد على فضل الصبر وانتظار الفرج:

يُعَدُّ انتظار فرج الإمام (عليه السلام) من العبادات الرفيعة، بل هو من أسمى الأعمال كما ورد في الروايات الشريفة. وإنَّ أوّل ما يجب على المؤمن التحلّي به هو الصبر على طول فترة الغيبة. ومن أبرز ما يؤكّد هذا

المعنى تلك الرسالة التي وجهها الإمام ﷺ إلى (علي بن الحسين بن بابويه القمي)، والتي حثَّ فيها قائلاً: «عليك بالصبر وانتظار الفرج»^(١). وهذا الأمر نفسه كان رسول الله ﷺ يؤكِّده في أحاديثه، منها ما روي عنه ﷺ: «أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله عز وجل»^(٢).

٣. التنبيه من خطر الشك والتراجع:

حيث روي عن الإمام ﷺ قوله: «إنَّ لصاحب هذا الأمر غيبة، المتمسك فيها بدينه كالخارط لشوك القتاد بيده»^(٣)، في إشارة إلى شدة الصعوبات التي يواجهها المؤمنون في زمن الغيبة ومقدار الثبات الذي يتطلبه الأمر.

ثانياً: التمهيد العملي لمرحلة الغيبة:

ويقصد به أن الإمام ﷺ قام بتعيين وكلاء وسفراء من خواص أصحابه الموثوقين، لتقوم بدور نقل توجيهاته وأحكامه إلى مريديه وشيعته، وكان ذلك يجري بطريقة التوقيعات والمراسلات المكتوبة.

١ - ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٣، ص ٥٢٧.

٢ - الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة، ص ٦٤٤.

٣ - محمد بن إبراهيم النعماني: الغيبة، ص ١٢٢.

وقد شكّل هذا الإجراء تمهيداً عملياً مباشراً لما سيجري خلال مرحلة الغيبة الصغرى، حيث أصبح التواصل مع الإمام عليه السلام يجري عن طريق نوابه المعيّنين.

المبحث الرابع: النشاط والحضور العلمي والثقافي للإمام العسكري عليه السلام

تميّزت الفترة الزمنية التي عاشها الإمام العسكري عليه السلام، وكذلك عصر الإمامين الهادي والرضا عليهما السلام قبله، بتوسّع رقعة الانتشار الشيعي ووضوح معالم المدرسة الشيعية الفكرية. وقام الإمام العسكري عليه السلام بممارسة نشاطات مكثّفة في المجالات السياسية والاجتماعية والعلمية بهدف الدفاع عن الإسلام ومواجهة التيارات الفكرية المنحرفة. ويمكن تصنيف جهود الإمام عليه السلام في المحاور الآتية:

أولاً: إقامة جسور التواصل مع أتباعه:

نتيجة للتوسّع الجغرافي للوجود الشيعي في عهد الإمام العسكري عليه السلام، وانتشارهم في عدّة دول، أصبح من الضروري إيجاد قنوات اتصال منظمة. هذه القنوات كانت تهدف إلى تأمين التواصل بين

الشيعة وإمامهم من ناحية، وإلى تعزيز الروابط بين الشيعة أنفسهم من ناحية أخرى. ومن خلال هذا النظام كان يجري توجيههم دينياً وسياسياً وتحفيزاً. فقام الإمام ﷺ بتعيين أشخاص موثوقين في مناطق مختلفة ليكونوا وسطاء بينه وبين شيعته وبين الشيعة أنفسهم. ومن الأمثلة على ذلك تكليفه لـ (إبراهيم بن عبده)؛ حيث أرسل رسالة إلى (عبد الله بن حمدويه البيهقي) جاء فيها: "لقد عيّنت لكم إبراهيم بن عبدة ليتسلم الحقوق الواجبة عليكم لي من أهل نواحيكم ومنطقتك، وجعلته موثوقاً وأميناً لدى مواليني هناك. فليتقوا الله وليكونوا على حذر، وليؤدّوا الحقوق، فلا عذر لهم في ترك ذلك أو تأخيرها"^(١).

ثانياً: توجيه الأمة وتوحيدها وراء العلماء والفقهاء:

شجّع الإمام ﷺ على الرجوع إلى الفقهاء العدول في الحالات التي يتعذر فيها الوصول إلى الإمام المعصوم. وقد أجاز الإمام العسكري ﷺ عدداً من المؤلفات الفقهية والأصولية التي أُلِّفَتْ في عصره أو قبله. وقد بلغ عدد أصحاب الإمام ﷺ ورواة حديثه ٢١٣ شخصاً، ومن أبرزهم:

١ - محمد بن الحسن الطوسي: اختيار معرفة الرجال، ص ٥٨٠.

١. (أحمد بن إسحاق الأشعري القمّي): من المقرّبين للإمام عليه السلام، وكان يعتبر كبير علماء قم وكان ينقل مسائل وأسئلة أهل قم إليه عليه السلام.
٢. (أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري): من أحفاد (جعفر الطيّار)، وكان من أبرز شخصيّات أسرته وأعيان بغداد، وكان يتمتع بمكانة ساميّة ومقام رفيع لدى الأئمة عليهم السلام.
٣. (عبد الله بن جعفر الحميري): من أجمع شخصيات قم المقدّسة، وله مؤلّف بعنوان (قرب الإسناد).
٤. (أبو عمرو عثمان بن سعيد العمري): الذي أصبح النائب الأوّل للإمام المهدي القائم عليه السلام. وكان من كبار وكلاء الإمام الهادي عليه السلام والإمام العسكري عليه السلام^(١).

المبحث الخامس: استشهاد الإمام العسكري عليه السلام

يروى (أبو الأديان): "كنت في خدمة الإمام الحسن بن علي عليه السلام وأنقل رسائله إلى مختلف البلدان. دخلت عليه أثناء مرضه

الذي توفي فيه ﷺ، فكتب معي عدّة رسائل وقال: اذهب بهذه إلى المدائن، فستغيّب خمسة عشر يوماً، وستدخل سامراً في اليوم الخامس عشر، وستسمع النواح في داري، وستجدني على المغتسل“. فقلت: يا سيدي، إذا حصل ذلك فمن يكون الخليفة من بعدك؟ فأجاب: ”من يطالبك بردود رسائلي هو القائم من بعدي“. فقلت: زدني من العلم، فقال: ”من يصليّ عليّ هو القائم من بعدي“. فقلت مرّة أخرى: زدني، فقال: ”من يخبرك بما في الكيس (الهميان) فهو القائم من بعدي“. ثم منعني الهيبة والإجلال من أن أسأله عن محتويات الكيس.

انطلقت بالرسائل إلى المدائن، واستلمت الردود، ودخلت سامراً في اليوم الخامس عشر كما أخبرني (عليه السلام)، فإذا بي أسمع أصوات النواح في داره، وإذا به قد وُضع على المغتسل، وإذا به (جعفر بن علي) أخيه واقفاً عند باب الدار ومحاطاً بشيعته يعزونه ويهتّون به بالخلافة. فقلت في نفسي: إذا كان هذا إماماً، فقد انتهت الإمامة... تقدّم (جعفر) ليصلي على أخيه، ولكن حين همّ بالتكبير، خرج غلام أسمر الوجه، مفلج الأسنان، فجذب رداء (جعفر بن علي) وقال: ”تأخّر يا عمّ، فأنا أحقّ بالصلاة على أبي“. فتأخّر (جعفر) وقد تغيّر لونه واصفرّ وجهه. فتقدّم الغلام وصلى عليه، ثم دُفن إلى جوار قبر

أبيه. بعد ذلك قال لي الغلام: يا بصري، هات ردود الرسائل التي معك. فسلمتها إليه. فقلت في نفسي: هذه علامتان من العلامات الثلاث... وهكذا^(١).

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ج ٢، ص ٤٧٥.

الفصل الرابع عشر:

الإمام المهدي عليه السلام (العقيدة المهدوية: المعتقد والغيبة)

ينسجم هذا الفصل مع بؤرة مركزية في الوعي الإمامي: مفهوم الغيبة والظهور، وما يتفرّع عنه من أبعاد عقدية، واجتماعية، وسياسية. الإيمان بـ (المهدي) ليس مجردّ ميثولوجيا استشراقية، وإنما إطار أنطولوجي-عملي يعيد تشكيل علاقة الأمة بتاريخها ومستقبلها؛ فغيبة الإمام عليه السلام تقيم اختباراً لوفاء الجماعة وتنشئ واجبات جديدة على مستوى الفرد والمجتمع، بينما خطاب العلامات والرايات يربط بين الوعي النصّي والواقع التاريخي. سنقرأ هنا الغيبة بوصفها آلية تشكّلية: تميّز للصّادقين، وتختبر جهود التنظيمية، وتدعو للعمل الإيجابي في إطار الانتظار. كما سنناقش الحكمة من إبقاء زمن الظهور مجهولاً، شروط الانتصار، وحكم رفع الرايات قبل الظهور، محاولة بلورة رؤية تجمع بين الصبر العملي والعمل الإصلاحي المنهجي، مع الالتزام الصارم بمنهج النص والمرجعية.

المبحث الأول: محطات من سيرته العطرة

وُلد الإمام المهدي عليه السلام في مدينة سامراء، في يوم الجمعة الموافق للنصف من شهر شعبان عام ٢٥٥ هجري. أبوه هو الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وأمّه أم ولد تُدعى (نرجس) أو (سوسن) حسب بعض الروايات. وعمره الشريف عند وفاة والده عليه السلام كان خمس سنوات. وقد سبق أن بشّر

به جدّه رسول الله ﷺ، كما ورد في رواية (أبي سعيد الخدري) حيث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "المهدي منّي، واضح الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً..."^(١).

ومن الأسماء والصفات التي عُرف بها: (بقية الله)، و(الحجة)، و(الخلف الصالح)، و(القائم)، و(المهدي)، و(المنتظر). وكنيته هي كنية الرسول ﷺ: (أبو القاسم).

وقد عيّنه الإمام الحسن العسكري عليه السلام خليفة وإماماً من بعده، فتقلّد مسؤوليّة الإمامة وهو في سنّ الخامسة، ولا يزال يحمل هذه الرسالة إلى أن يأذن الله له بالظهور، ليتحقّق على يديه ما وعد الله به عباده المؤمنين من نصر وتمكين وإقامة دولة الحقّ في الأرض.

ولم يختلف الإمام المهدي عليه السلام عن أسلافه المعصومين في شدة العبادة والاجتهاد في التقرب إلى الله تعالى. وقد نُقلت عنه مجموعة من الأدعية، ومن أشهر ما أثر عنه تسبيحٌ يقول فيه: "سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله زنة عرشه، والحمد لله مثل ذلك"^(٢).

١ - علي بن الحسين ابن طاووس: الطرائف، ص ١٧٧.

٢ - سعيد بن هبة الله الراوندي: الدعوات، ص ٩٤.

المبحث الثاني: الاعتقاد بالمهدي عليه السلام تعبير عن حاجة فطرية

إنَّ شيوخ فكرة الإيمان بحتمية ظهور مُخلص عالمي في التراث الفكري للإنسانية عموماً يكشف عن وجود جذور راسخة وقوية لهذا المعتقد تنبع من الفطرة الإنسانية السليمة. فالإمام المهدي عليه السلام ليس مجسداً لعقيدة دينية إسلامية وحسب، بل هو رمزٌ لطموح مشترك اتجهت إليه البشرية باختلاف دياناتها وثقافاتهما، وهو أيضاً تجسيد وتعبير عن إلهام فطري عميقة أدرك الناس من خلاله -على تعدد معتقداتهم وطرق اتصالهم بالغيب- أنَّ للبشرية يوماً موعوداً على هذه الأرض تتحقق فيه الغاية الكبرى من رسالات السماء، وتبدأ فيه المسيرة المتعبة للإنسان عبر التاريخ مرحلة جديدة من الاستقرار والطمأنينة بعد معاناة طويلة^(١).

المبحث الثالث: الإيمان بحتمية المنقذ في الأديان السماوية

يُعدّ الإيمان بحتمية ظهور مصلح ديني عالمي يقيم دولة إلهية عادلة تشمل جميع أرجاء المعمورة، من نقاط الاتفاق الأساس بين مختلف الأديان

١ - محمد باقر الصدر: بحث حول المهدي عليه السلام، ص. ٧-٨.

السماءية. والخلاف بينها إنمّا في تحديد شخصيّة هذا المصلح العالمي الذي سيتولّى تحقيق الأهداف الكبرى التي جاء من أجلها جميع الأنبياء ﷺ^(١).

المبحث الرابع: معتقد الإمامية في الإمام المهديّ ﷺ

تواردت الأحاديث والنصوص المنقولة عن رسول الله ﷺ وأئمة أهل البيت ﷺ والتي تُبشّر بظهور المهدي في آخر الزمان، ليقم العدالة وينصر المظلومين في أرجاء المعمورة. وما يُعزّز يقين المسلمين بهذه العقيدة جملة الروايات التي أكّدت على استمرار وجود حجة إلهية على الأرض لا تخلو منهم. فقد ورد عن النبي ﷺ: «إِنَّ عَلِيًّا إِمَامُ أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي، وَمَنْ وُلِدَ الْقَائِمُ الْمُنْتَظَرُ الَّذِي إِذَا ظَهَرَ يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا»^(٢).

المبحث الخامس: غيبة الإمام المهديّ ﷺ

تؤكد النصوص الدينية، وكما يشهد الواقع، أنّ للإمام الحجة ﷺ غيبتين،

١ - محمد صادق الصدر: تاريخ الغيبة الكبرى، ص ٢٥١ وما بعدها.

٢ - شهاب الدين المرعشي النجفي: شرح إحقاق الحق، ج ٢٩، ص ٢٣٨.

إحداهما تطول عن الأخرى. وسنخصّص الحديث في هذا المقام عن الغيبة الصغرى بإذن الله، فقد روي عن (أبي بصير) أنه قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام): كانَ أبو جعفر (عليه السلام) يقول: "لقائم آل محمّد غيبتان: واحدة طويلة، والأخرى قصيرة، قال: فقال لي: نعم يا أبا بصير إحداهما أطول من الأخرى" (١).

المبحث السادس: الإمامة والغيبة الصغرى

ابتدأت مرحلة الغيبة الصغرى بوفاة الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) سنة ٢٦٠ هـ، وكان عمر الإمام المهدي (عليه السلام) آنذاك حوالي خمس سنوات. واستمرّت هذه الفترة ما يقرب من سبعين عاماً، حتى سنة ٣٢٩ هـ، والتي انتهت بوفاة السفير الرابع وبداية مرحلة الغيبة الكبرى. وخلال فترة الغيبة الصغرى، لم يكن يعلم بمكان إقامته (عليه السلام) إلا خواصّ شيعته والمقرّبين منه.

المبحث السابع: النّوَاب الأربعة

اتصل أتباع مذهب أهل البيت بالإمام الحجة (عليه السلام) خلال الغيبة

الصغرى من خلال أشخاص عُرفوا بالسفراء أو النواب، وهم بالترتيب:

١. النائب الأول: (عثمان بن سعيد العمري الأسدي)، المعروف

بـ (أبي عمرو)^(١).

٢. النائب الثاني: (محمد بن عثمان بن سعيد العمري)،

المعروف بـ (أبي جعفر)^(٢).

٣. النائب الثالث: (الحسين بن روح النوبختي)، المعروف بـ

(أبي القاسم)^(٣).

٤. النائب الرابع: (علي بن محمد السمری)، المعروف بـ (أبي

الحسن)^(٤).

وفي نهاية عهد النيابة، صدر توقيع من الإمام المهدي عليه السلام يُعلن

انتهاء الغيبة الصغرى وبدء الغيبة الكبرى، جاء فيه: بسم الله الرحمن

الرحيم: "يا علي بن محمد السمری أعظم الله أجر إخوانك فيك، فإنَّك

ميت ما بينك وبين ستة أيام، فاجمع أمرك ولا توص إلى أحد فيقوم

مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التامة، فلا ظهور إلا بإذن الله

١ - والمدة هي في حدود خمس سنوات تقريباً.

٢ - والمدة هي حوالي أربعين سنة.

٣ - والمدة هي حوالي واحد وعشرون سنة تقريباً.

٤ - والمدة هي حوالي ثلاث سنوات تقريباً.

تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب وامتلاء الأرض جوراً، وسيأتي لشيعتي من يدعي المشاهدة، ألا فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفينائي والصيحة فهو كذاب مفترٍ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١).

وفي اليوم السادس، توفي (السمري) (رضوان الله عليه)، وكان آخر ما نطق به حين سُئل عن من يوصي إليه، فقال: "لله أمرٌ هو بالغه"^(٢).

المبحث الثامن: دواعي الغيبة وأسبابها

أولاً: الحفاظ على حياة الإمام عليه السلام:

كانت السلطة العبّاسيّة تبحث بجدّ عن المولود الجديد للإمام العسكري عليه السلام بهدف القضاء عليه. لكنّ التخطيط المحكم للإمام العسكري عليه السلام حال دون اكتشافهم له. في خضمّ هذه الأجواء المضطربة والملاحقة المستمرة من قبل العبّاسيين، لم يكن متاحاً للإمام أن يظهر علناً بين الناس، إذ كانت مهمّته الأساس هي الحفاظ على ذاته ليكون قادراً حين

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٣٦١.

٢ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ص ٤٣٣.

يأتي الوقت الموعود على إقامة الدولة الإسلامية العالمية العادلة. وقد أشارت إلى هذا السبب رواية عن رسول الله ﷺ حين سئل: "لا بد للغلام من غيبة"، ف قيل: "ولم يا رسول الله؟" فأجاب: "يخاف القتل"^(١).

ثانيًا: اختبار المؤمنين وتمحيصهم:

مشروع ضخّم بمثل حجم مشروع الإمام الحجة ﷺ لا يقوى على حمله وتحقيقه إلا الأتباع المخلصون حقًا الذين صمدوا أمام شتى أنواع المحن والتحديات. ومن جهة أخرى، فإنّ هذه الغيبة تعمل على كشف المتخاذلين وأصحاب النفوس الضعيفة ليتساقطوا وينسحبوا قبل أن يشكّلوا نقطة ضعف في جيش الإمام المنتظر ﷺ. وقد أشار الإمام الرضا ﷺ إلى هذه الحكمة في غيبة المهدي الطويلة بقوله: "والله لا يكون ما تمدون إليه أعناقكم حتى تميزوا وتمحصوا، فلا يبقى منكم إلا الأندر"، ثم تلا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]^(٢).

١ - الشيخ محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): علل الشرائع، ج ١، ص ٢٤٣.

٢ - داود بن سليمان بن يوسف الغازي: مسند الإمام الرضا ﷺ، ج ١، ص ٢٦٤.

المبحث التاسع: شروطُ انتهاء الغيبة

إنَّ تحققَ العلامات المذكورة وحده لا يكفي لتحقيق ظهور الإمام المهدي عليه السلام، بل ثمة أسباب وشروط إضافية لا بدَّ من توفرها ليكون الفرَج، منها:

أولاً: توفرُ الأنصار:

يجب أن يتوفَّر العدد الكافي من الأنصار الأوفياء القادرين على دعم مشروع الإمام عليه السلام وتحقيقه، والذين سيلتفون حوله مع بداية حركته المباركة، ليشكّلوا النواة الصلبة لتحركه. ويشمل ذلك وجود القادة في جيشه، وعددهم ٣١٣ قائداً بعدد أهل بدر، وهؤلاء هم الذين -كما ورد في رواية عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام- "يحفُّون به يقونه بأنفسهم في الحروب ويكفونه ما يريد"^(١).

ثانياً: تحذير عدم التوقيت:

هناك جملة من الروايات تؤكِّد على تحريم تحديد وقت محدّد

لظهور الإمام الحجة ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻴﻦ، كما في الرواية عن الإمام علي بن موسى الرضا ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻴﻦ حيث قال: "لقد حدثني أبي عن أبيه عن آبائه عليهم السلام أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى يَخْرُجُ الْقَائِمُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ؟ فَقَالَ ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻴﻦ: مِثْلُهُ مِثْلُ السَّاعَةِ لَا يَجْلِيْهَا لَوْقَتُهَا إِلَّا هُوَ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً"^(١).

بل إِنَّ هُنَاكَ رَوَايَاتٍ صَرِيحَةٌ تُكَذِّبُ كُلَّ مَنْ يَحْدُدُ وَقْتًا لِلظَّهْرِ، كالرواية عن الإمام مُحَمَّدٍ الْبَاقِرِ ﺍﻟﻤﻮﺗﺎﻟﻴﻦ: "كُذِبَ الْوَقَاتُونَ، كُذِبَ الْوَقَاتُونَ، كُذِبَ الْوَقَاتُونَ"^(٢).

المبحث العاشر: حكمة إخفاء وقت الظهور

ثُمَّ حَكَمَ عِدَّةٌ وَرَاءَ إِبْقَاءِ وَقْتِ الظَّهْرِ غَيْرَ مَعْلُومٍ، نَذَرَ مِنْهَا:

١. بما أَنَّ للظهور شروطاً موضوعيةً يتحقق كثير منها بجهود المؤمنين وعملهم، فمن المنطقي أن يرتبط مواعده بجديّة عمل هؤلاء الناس وهِمَّتِهِمْ واستعدادهم. وهذا بدوره

١ - مُحَمَّدٌ بَاقِرُ الْمَجْلِسِيِّ: بحار الأنوار، ج ٥١، ص ١٥٤.

٢ - مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الْكَلِينِي: الكافي، ج ١، ص ٣٦٨.

يحفّزهم على العمل الجادّ وإعداد الأرضيّة المناسبة للظهور، وبالتالي يعجّل في تحقّقه. أمّا ربطه بتاريخ محدّد مجرد، فهو يفصله عن أسبابه الحقيقيّة ولا يشكّل حافزاً للناس للسعي نحو تحقيق شروطه.

٢. إبقاء وقت الظهور مجهولاً يحافظ على شعلة الأمل متّقدة دائماً في قلوب المؤمنين. ففي رواية عن (محمّد بن الفضيل) عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه سُئِلَ عن الفرج، فقال: «أليس انتظار الفرج من الفرج؟ إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢]»^(١). وهذا الأمل الدائم يدفعهم لإصلاح أحوالهم، واجتناب المعاصي، والالتزام بالطاعات، والاستعداد لنصرة الإمام حين يظهر. ولهذا جاء في توقيع الإمام عليه السلام الموجه للشيخ المفيد: «فليعمل كلّ امرئ منكم بما يقربه من محبّتنا، ويتجنّب ما يذنيه من كراهيّتنا وسخطنا، فإنّ أمرنا بغتة فجأة، حين لا تنفعه توبة ولا ينجيه من عقابنا ندم على حسرة»^(٢).

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٢٨.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ١٧٦.

المبحث الحادي عشر: إمكانية طول عمر الإمام عليه السلام

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. فطالما أنَّ الله -تعالى- قد أراد للإمام الحجة عليه السلام أن يغيب هذه المدة الطويلة، فلا مجال للشك في إمكانية ذلك أو ادعاء استحالتها، فالله قادر على كل شيء. وقد قال عليه السلام نفسه عن ظهور الفرج: "وَأَمَّا ظُهُور الْفَرَجِ فَإِنَّهُ إِلَى اللَّهِ"^(١).

المبحث الثاني عشر: نماذج تاريخية للعمر المديد

إنَّ التشكيك في إمكانية تعمّر الإنسان لفترات زمنية طويلة، يوحى بأنَّ طول عمر الإمام المهدي عليه السلام حالة فريدة لا سابق لها في التاريخ، لكن هذا التشكيك يثير الاستغراب نظراً لوجود نماذج مؤكّدة ومعترف بها لأشخاص عاشوا أعماراً مديدة جدّاً، وقد ورد ذكرها في نصوص قرآنية أو روايات متواترة مقبولة. وفيما يأتي نستعرض نموذجين بارزين:

١ - محمد بن الحسن الطوسي: الغيبة، ص ٢٩١.

١- النبي نوح عليه السلام:

يقول الله - تعالى - في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]. هذه المدة الطويلة من عمر نبي الله نوح عليه السلام - ألف سنة إلا خمسين عامًا - تمثل فقط الفترة التي قضاها في دعوة قومه منذ بعثته حتى حدوث الطوفان، وليست مجمل عمره.

فإذا كانت ظروف نبي الله نوح عليه السلام قد اقتضت أن يعيش كل هذه المدة الطويلة، أفلا تستحقّ تحقيقات الوعد الإلهي بالنصر النهائي، وإقامة العدالة في الأرض، وانتشار جنود الله، وعلو شأن دينه. فألا تستوجب كل هذه الأهداف العظيمة أن يمدّ في عمر صاحب الزمان عليه السلام ليتولّى تحقيق هذا المشروع الجليل بنفسه؟

٢- الخضر عليه السلام:

من الثابت أنّ الخضر عليه السلام هو من المعمّرين، وقد امتدّ به العمر لآلاف السنين. ورد في رواية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله: "إنّ الخضر عليه السلام شرب من ماء الحياة فهو حيّ لا يموت حتّى ينفخ في الصُّور، وإنّه ليأتينا فيُسَلِّم علينا، فيُسمَعُ صوته ولا يُرى شخصه، وإنّه ليحضر حيث ما ذكر، فمن ذكره منكم فليُسَلِّم عليه، وإنّه ليحضر

الموسم كلّ سنة، فيقضي جميع المناسك ويقف بعرفة، فيؤمّن على دعاء المؤمنين وسيؤنس الله به وحشة قائمنا في غيبته ويصل به وحدته^(١).

وتشير الروايات إلى وجود علاقة وطيدة بين طول عمر الخضر ﺍﻟﻪﻳﻤﺎﺱ وطول عمر الإمام المهدي ﺍﻟﻪﻳﻤﺎﺱ. فقد رُوي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق ﺍﻟﻪﻳﻤﺎﺱ قوله: وأمّا العبد الصالح الخضر، فإنّ الله تبارك وتعالى ما طوّل عمره لنبوّة قدّرها له، ولا لكتاب ينزله عليه، ولا لشريعة ينسخ بها شريعة من كان قبله من الأنبياء، ولا لإمامة يلزم عباده الاقتداء بها، ولا لطاعة يفرضها له، بلى، إنّ الله تبارك وتعالى لمّا كان في سابق علمه أن يقدرّ من عمر القائم ما يقدرّ من عمر الخضر وما قدرّ في أيّام غيبته ما قدرّ وعلم ما يكون من إنكار عباده بمقدار ذلك العمر في الطول، طوّل عمر العبد الصالح من غير سبب يوجب ذلك إلّا لعلّة الاستدلال به على عمر القائم ﺍﻟﻪﻳﻤﺎﺱ، وليقطع بذلك حجة المعاندين لئلاّ يكون للناس على الله حجة^(٢).

١ - محمد تقي الأصفهاني: مكيال المكارم، ج ١، ص ١٧١.

٢ - محمد تقي الأصفهاني: مكيال المكارم، ج ١، ص ١٧١.

المبحث الثالث عشر: المحاور والمفاهيم الرئيسة

١. وُلد الإمام المهدي عليه السلام في الخامس عشر من شهر شعبان عام ٢٥٥ للهجرة، في مدينة سامراء.
٢. أوصى الإمام الحسن العسكري عليه السلام بالإمامة من بعده لولده المهدي عليه السلام، فصار إماماً للأمة وقائداً لها وهو في سنٍّ لم يتجاوز الخامسة. وقد اشتهر الإمام المهدي عليه السلام -كسائر آبائه المعصومين- بالعبادة والمواظبة على التقرب إلى الله سبحانه. وقد نُقلت عنه العديد من الأدعية، ومن أبرز ما أُرث عنه تسبيحٌ يقول فيه: "سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضًا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ مَدَادَ كَلِمَاتِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِينَةَ عَرْشِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِثْلَ ذَلِكَ" (١).
٣. يُعدّ الاعتقاد بوجود المهدي عليه السلام تعبيراً عن حاجة فطريّة في الإنسان. فانتشار فكرة المنقذ العالمي الحتمي الظهور في الفكر البشري على نطاق واسع يُظهر مدى رسوخ هذه الفكرة وقوّة أسسها المنبثقة من الجبلة الإنسانية.

٤. يشكّل الإيمان بحتميّة ظهور مصلح عالميّ يقيم دولة إلهيّة عادلةً على الأرض نقطة اتفاقٍ جوهريّةٍ بين جميع الديانات السماويّة.

٥. يعتقد الإماميّة الاثنا عشرية بالإمام المهدي (عليه السلام) استناداً إلى الأخبار المتواترة الصادرة عن رسول الله ﷺ والأئمة (عليهم السلام) التي تبشّر بظهوره في آخر الزمان، لينشر العدل في العالم وينصر المستضعفين.

٦. مرّت إمامة المهدي (عليه السلام) بفترة غيبةٍ صغرى كان له خلالها سفراءٌ أربعةٌ يمثلون حلقة الوصل بينه وبين شيعته، وهم بالترتيب: السفير الأول (عثمان بن سعيد العمري الأسدي)، ثمّ ابنه (محمّد بن عثمان العمري)، ثمّ (الحسين بن روح النوبختي)، وأخيراً (عليّ بن محمّد السمری).

٧. من أبرز حِكَم غيبته (عليه السلام) سببان رئيسان: الأول هو صيانة شخصه من القتل، والثاني هو اختبار المؤمنين وتمييز الصادقين في إيمانهم.

٨. لا يكتمل شرط الظهور بمجرد تحقّق مجموعة من العلامات فقط، بل يجب أن تتوفّر أيضاً جملةٌ من الأسباب والشروط الأخرى، مثل وجود مجموعةٍ من الأنصار الأوفياء، مع

التنبيه على تحريم تحديد وقت معين للظهور.
٩. إطالة عمر الإمام المهدي عليه السلام أمرٌ ممكنٌ عقلاً وشرعاً، فقدرة
الله - تعالى - مطلقة، كما يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ
يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وهناك نماذج معمرة في
التاريخ ذكرتها النصوص، مثل النبي نوح عليه السلام والخضر عليه السلام.

المبحث الرابع عشر: علامات الظهور

سبق أن أوضحنا أن ظهور الإمام الحجة عليه السلام لا يرتبط بموعد محدد،
ومع ذلك، لم يترك هذا الحدث الجلل دون إشارات تدلّ على اقترابه،
فقد تضمّنت عدد من الروايات ذكر أحداث ووقائع عدّة جعلت دليلاً
على قرب زمن الظهور، وهو ما اشتهر بتسميته "علامات الظهور".
وتتنوّع هذه العلامات وتختلف في تصنيفاتها.

فبعض هذه الإشارات يكون واضحاً ومباشراً في دلالتها، بينما يحمل
بعض آخر طابعاً رمزياً يصعب فهم مراميّه بدقّة. ويرجع هذا الغموض
والانزياح الرمزي إلى فارق الزمان وصعوبة التعبير عن أمور لم تكن
معهودة في العصر الذي صدرت فيه تلك الروايات، فاستُبدل وصفها
بالتشبيهات والإيماءات.

كما أنَّ بعض علامات الظهور ترسم المشهد العام للعصر الذي سيحدث فيه الظهور. ومن البديهي أنَّ هذه الأجواء العامَّة لا تتشكَّل في لحظة واحدة، بل هي نتاج تراكمات تدريجيَّة على المستوى المجتمعي، وبالتالي فإنَّ هذه العلامات لا تكون بالضرورة ملاصقة تمامًا لزمن الظهور، بل قد يفصل بينها وبينه فترة زمنيَّة. في المقابل، توجد علامات أخرى تشبه الأحداث المفصليَّة التي تقع قبل الظهور بفترات وجيزة وتليها مباشرة، ما يجعلها مؤشَّرات قريبة جدًّا من لحظة الظهور.

وقُسِّمت العلامات أيضًا إلى علامات حتميَّة الوقوع، وأخرى غير حتميَّة، قد تتحقَّق أو لا تتحقَّق، ولا يشترط تحقُّقها لبدء مرحلة الظهور. وقبل الخوض في تفاصيل ذلك، ثمة سؤال جوهري يطرح نفسه: ما الحكمة من الإخبار بعلامات الظهور؟

المبحث الخامس عشر: الحكمة من الإشارات أو العلامات

علامات الظهور فوائد عظيمة ومتعدِّدة، على صعيد حفظ المؤمنين أثناء فترة الغيبة ومواجهة تحدِّيات ذلك العصر، وكذلك على مستوى

استعدادهم النفسي والعملي لمرحلة الظهور، ومنعاً لفتور الهمم وتراخي العزيمة مع طول أمد الانتظار.

أمّا فيما يخص حفظ المؤمنين ومواجهة التحديات، فتتجلى الفائدة من وجهين:

الوجه الأول: إشعال جذوة الأمل وسط تراكم المحن والصعوبات والتعقيدات.. فحين ينتشر الفساد في المجتمع وتُنتهك الحقوق وتعمّ المظالم، ويبدأ الإنسان بالشعور بالإعياء والإحباط أمام هذه التحديات الكبيرة والقاسية، فإنّ ملاحظة إحدى علامات الظهور أو عدّة منها تعيد إشعال نور الأمل في روحه وقلبه، فيتذكّر أنّ للباطل والظلم جولة ستنتهي لا محالة، وأنّ بشائر اقتراب نهايتها قد بدأت تلوح عبر هذه العلامات.

الوجه الثاني: أنّ التعرّف على طبيعة علامات الظهور، وكيف أنّ الظهور سيأتي بعد بلوغ الظلم والفساد ذروته، يجعل المؤمن -مهما شاهد من مظاهر الانحراف- في منأى عن الصدمة واليأس، فهو يتوقّع ذلك استناداً إلى ما ورد في أوصاف عصر الظهور وإشارات العامة، فيتحوّل ردّ فعله من الإحباط بسبب وجود الظلم إلى التفاؤل باقتراب النصر.

وأمّا تأثير العلامات على حالة الاستعداد، فيتمثّل في أنّ المؤمن

عندما يرى علامة توحى باقتراب الظهور، يزداد تفاؤلاً وحماساً، وبالتالي يصبح أكثر حيويةً وفاعليةً في مجابهة الفساد، سعيًا لاكتساب الأهلية لأن يكون فردًا من أنصار الإمام وجنوده.

المبحث السادس عشر: المشهد العام قبل الظهور

توجد رواية عن الإمام علي عليه السلام تُجمل حالة الانحدار التي تصل إليها المجتمعات المنحرفة؛ حيث يقول: «احفظ... فإنَّ علامات ذلك: إذا أَمَاتَ الناس الصلاة، وأضاعوا الأمانة، واستحلُّوا الكذب وأكلوا الربَّا، وأخذوا الرُّشا... وباعوا الدين بالدُّنيا واستعملوا السفهاء، وقطعوا الأرحام وأتبعوا الأهواء واستخفُّوا بالدماء، وكان الحِلْمُ ضعفًا والظلم فخرًا، وكان الأمراء فجرة، والوزراء ظلمة والعرفاء خونة والقُرَّاء فسقة، وظهرت شهادات الزُّور واستُعْلِنَ الفجور وقول البهتان والإثم والطغيان... وكان زعيم القوم أرذلهم، وأتقى الفاجر مخافة شرِّه وصدَّق الكاذب وأوْتِمِنَ الخائن وأُتْخِذَتِ القِيَانُ والمعازف، ولعن آخر هذه الأُمَّة أولُها، وركبت ذوات الفروج السروج وتشبَّه النساء بالرجال والرجال بالنساء...»^(١).

المبحث السابع عشر: أحداث ما قبل الظهور

تتضمّن الروايات ذكرًا لعدد من العلامات والأحداث التي ستسبق الظهور، ونذكر هنا بعضها مصنّفًا إلى فئات:

١- التحركات العسكرية:

أ. خروج السفيناني: وهذا ما جاء في حديث عن النبي الكريم ﷺ، يقول فيه: "فبينما هم كذلك، أي أثناء الفتنة بين أهل المشرق والمغرب، يخرج عليهم السفيناني من الوادي اليابس في فور ذلك حتّى ينزل دمشق، فيبعث جيشين: جيشًا إلى المشرق وآخر إلى المدينة حتّى ينزلوا بأرض بابل من المدينة الملعونة "يعني بغداد" فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويفضحون أكثر من مائة امرأة ويقتلون بها ثلاثمئة كبش من بني العبّاس ثمّ ينحدرون إلى الكوفة"^(١).

ب. خروج اليماني: جاء عن الرسول ﷺ: "خروج الثلاثة: السفيناني والخراساني واليماني في سنة واحدة في شهر

واحد في يوم واحد وليس فيها من راية أهدى من راية اليماني؛ لأنه يدعو إلى الحق^(١). وفي حديث عنه: "خروج السفيناني واليماني والخراساني في سنة واحدة وفي شهر واحد وفي يوم واحد، ونظام كنظام الخرز يتبع بعضه بعضاً، فيكون البأس في كل وجه، ويل لمن ناوهم، ليس في الرايات أهدى من راية اليماني هي راية هدى؛ لأنه يدعو إلى صاحبكم، فإذا خرج اليماني حرّم بيع السلاح على كل الناس"^(٢).

ج. إقبال الرايات السود من خراسان: قال النبي الكريم ﷺ: "تنزل الرايات السود التي تخرج من خراسان إلى الكوفة، فإذا ظهر المهديُّ بعثت إليه بالبيعة"^(٣). وجاء عن الإمام علي عليه السلام: "إذا سمعت الرايات السود مقبلة من خراسان فكنّ في صندوق مقفل عليك، فاكسر ذلك القفل وذلك الصندوق حتّى تُقتل تحتها"^(٤).

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢١٠.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢٣٢.

٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢١٧.

٤ - علي بن حسام الدين الهندي: كنز العمال، ج ١١، ص ٢٧٨.

٢- أحداث بارزة محدّدة:

مقتل النفس الزكيّة بين الركن والمقام: ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الفاصل الزمني بين حادثة مقتل النفس الزكيّة وقيام قائم آل محمد عليه السلام هو خمس عشرة ليلة فقط، وفقاً للرواية: "وليس بين قيام قائم آل محمد وبين قتل النفس الزكيّة إلا خمس عشرة ليلة"^(١).

٣- كوارث وظواهر طبيعيّة مذهلة:

أ. خسف في البیداء: تذكر الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ من العلامات الحتميّة التي تسبق قيام القائم عليه السلام هي ظهور اليماني والسفياي، ومنادٍ ينادي من السماء، مضافاً إلى حدوث خسف في أرض البیداء ومقتل النفس الزكيّة^(٢).
ب. خسوف في المشرق والمغرب: يُستدل بحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله على أنّ هذه الفترة ستشهد ثلاثة أخسوف كبرى: خسف في المشرق، وآخر في المغرب، وثالث في جزيرة العرب^(٣).

١ - محمد بن الحسن الطوسي: الغيبة، ص ٤٤٥.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢٠٣.

٣ - علي الكوراني العاملي: معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام، ج ١، ص ٣٦١.

ج. طلوع الشمس من المغرب: من الأحداث المحتومة التي ستحصل طلوع الشمس من جهة المغرب^(١)، كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام.

المبحث الثامن عشر: الإعلان السماوي عن الظهور

الصيحة في السماء: سيكونُ لظهور الإمام المهدي عليه السلام إعلانٌ سماويٌّ مهيب، حيث ينادي منادٍ من السماء باسم القائم عليه السلام.. وسيسمع هذا النداء كلٌّ من في المشرق والمغرب، حتى يوقظ الجميع من نومهم، ويثير الرهبة في كلِّ قلب.. فرحم الله من اعتبر بذلك الصوت فأجاب^(٢).

المبحث التاسع عشر: رايات تسبق الظهور

إنَّ النصر الحقيقي والكامل الذي يطال العالم بأسره لن يتحقَّق إلا

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢٨٩.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢٣٠.

بظهور الإمام المهدي عليه السلام، وهذه حقيقةٌ تؤكِّدُها النصوصُ بوضوحٍ لا مجال للشك فيه. وبما أنَّ النصر النهائي محصور بظهوره، فهل يمكن أن توجد رايات ذات شأن قبل ذلك الحدث العالمي؟!

المبحث العشرون: الدلالة الرمزيَّة للرايات

يحمل مفهوم "الراية" في عصرنا الحاضر دلالة رمزيَّة ومعنويَّة قويَّة، فهي تمثِّل حضور أصحابها وقوَّتهم أينما حلَّت، وسقوطها يعبر عن هزيمتهم وضعفهم.

أما في السياق التاريخي، فالإلى جانب قيمتها المعنويَّة، كانت للراية دور عملي محوري؛ فهي تجمع الشتات وتوحِّد الصفوف تحت قيادة واحدة لمواجهة العدو. وكان سقوطها في المعارك يعني انهيار الجيش وتشنُّته وحدوث الهزيمة. لذلك، كان يختار لحمل الراية أشجع الجنود وأقدرهم على الصمود والثبات، والذي يتحلَّى بإيمان عميق، كما في قول النبي صلَّى الله عليه وآله في غزوة خيبر: "لأُعْطِينَ الراية غدًا رجالًا يحبُّ الله ورسوله ويحبُّه الله ورسوله، كرَّارًا غير فرَّار" ^(١).

وبالتالي، فإنَّ رفع الراية هو في جوهره دعوة صريحة للتَّجمُّع والالتحاق تحت مظلتها والاستعداد للتضحية والفداء في سبيل الهدف الذي ترمز إليه.

المبحث الواحد والعشرون: حُكْمُ رفع الرايات قبل ظهور الإمام عليه السلام

يشير هذا السؤال نفسه نتيجةً للرباط بين مفهوم النصر النهائي المرتبط بظهور الإمام المهدي عليه السلام ومسألة العمل الجماعي المنظم قبل ذلك الظهور. فهل يجب تأجيل رفع الرايات حتى زمن الظهور، أم أنَّ ذلك ممكن ومطلوب في عصر الغيبة؟

والجواب: إنَّ رفع الراية يمثل عملاً جماعياً منظماً، قد يصل إلى حدِّ بذل التضحيات، وهو وسيلة لتحقيق أهداف كبرى. وفي زمن الغيبة، ثمة واجبات عدَّة ومصالح مُهمَّة تتطلب بالضرورة عملاً جماعياً منظماً، وتضحية بالغالي والنفيس. ومن هذه الواجبات:

١. الدفاع عن حوزة المسلمين: يُجمع الفقهاء على وجوب الجهاد والدفاع عن بلاد المسلمين ومقدّراتهم وأعراضهم. ولا يتحقَّق هذا الدفاع بالفرق والسلبية، بل يتطلَّب مواجهة

منظمةً وجمعاً للطاقات والقدرات على كل المستويات،
استجابةً لأمر الله تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِنَاهِهِمْ ظُلُمُوا
وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٢٩].

٢. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهي فريضة عظيمة لا يجوز
التخلي عنها، كما في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ
لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ولا تكفي في مواجهة منكرات
هذا الزمن الجهود الفردية بل لا بدَّ من عمل جماعي منظم
يواجه التحديات على جميع الأصعدة: الثقافية، والإعلامية،
والاجتماعية، وغيرها، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ
أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

٣. إقامة الأحكام الإلهية: يشمل الإسلام تشريعات تفصيلية
في كل المجالات، حتى في القضاء والحدود والاقتصاد
والمعاملات. ولا يجوز لأحد ادعاء سقوط هذه الأحكام
في زمن الغيبة بل نحن مكلفون بالعمل بها والالتزام بها،
كما أمر الله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

المبحث الثاني والعشرون: التحذير من الالتحاق بالرايات المشبوهة

وردت نصوص عن أئمة أهل البيت ﷺ تحذّر المؤمنين من الانضمام إلى كل راية تُرفع، حتى لو اتّشحت بشعارات برّاقة. ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام يحذّر قائلاً: "فالخارج منّا اليوم إلى أيّ شيء يدعوكم؟ إلى الرضا من آل محمد ﷺ؟ فنحن نشهدكم أنّنا لسنا نرضى به وهو يعصينا اليوم.." (١).

وكان سبب هذه التحذيرات هو حركة العباسيين الذين استغلّوا شعار "الرضا من آل محمد" للثأر من الأمويين، وهذا ما خدع بعض المؤمنين. فأراد الإمام عليه السلام كشف حقيقتهم وأنّ مقصدهم الملك والسلطة، وليس إقامة حقّ أهل البيت ﷺ، مؤكّداً أنّهم لو حكموا لما كانوا خيراً من سابقهم.

أمّا إذا كانت الراية صادقة وتمثّل قيادة يرضى عنها الإمام المعصوم، فإنّ الحكم يختلف. ومثال ذلك "وليّ الفقيه" الذي أعلن الإمام المهدي عليه السلام الرضا عن عمله، وألزم الناس بطاعته في عصر الغيبة في

الحوادث الواقعة، كما في التوقيع الشريف: ”وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا“^(١). فوليّ الفقيه لا يدعو لنفسه، بل هو ممهّدٌ لظهور الإمام عليه السلام وداعٍ إليه، ورايته هي في الحقيقة راية الإمام نفسه.

المبحث الثالث والعشرون: رايات الحقّ الممهّدة للظهور

تتواتر الروايات عن أهل البيت عليهم السلام التي تبشّر برايات حقّ وهدى سترفع قبل ظهور الإمام المهدي عليه السلام، تكون بمثابة تمهيدٍ لقيادته العالمية. ومن هذه النصوص:

رواية عن الإمام الباقر عليه السلام جاء فيها: ”كأنّي بقوم قد خرجوا بالمشرق يطلبون الحقّ فلا يعطونه، ثمّ يطلبونه فلا يعطونه. فإذا رأوا ذلك وضعوا سيوفهم على عواتقهم فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتّى يقوموا ولا يدفعونها إلّا إلى صاحبكم، قتلهم شهداء“^(٢).

١ - الفضل بن الحسن الطبرسي: الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٨٣.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢٤٣.

حديث عن رسول الله ﷺ: ”يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي“^(١)، أي يمهّدون الطريق ويعدّون الأرضية لظهوره. رواية عن الإمام الكاظم (عليه السلام) يقول فيها: ”رجل من أهل قم يدعو الناس إلى الحقّ، يجتمع معه قوم قلوبهم كزبر الحديد، لا تزلّهم الرياح العواصف، ولا يملّون من الحرب، ولا يجبنون، وعلى الله يتوكّلون، والعاقبة للمتّقين“^(٢).

المبحث الرابع والعشرون: معنى الانتظار وروحانيته

الانتظار في معناه اللغوي هو الترقّب^(٣) والتربّص^(٤)، وهو حالة نفسيّة إيجابيّة تبعث على الاستعداد النفسي والعملي لما ينتظره المرء، ويكون ضدّ اليأس والقنوط. فكّلما اشتدّت حالة الانتظار، ازداد استعداد الإنسان وتجهّزه^(٥).

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٨٧.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٧، ص ٢١٦.

٣ - محمد بن مكرم (ابن منظور): لسان العرب، ج ١، ص ٤٢٤.

٤ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧، ص ٣٩.

٥ - محمد تقی الأصفهاني: مكیال المکارم، ج ٢، ص ١٣٦.

المبحث الخامس والعشرون: سؤال التكليف في عصر الغيبة

تطرح مسألة "كيفية الانتظار" نفسها بإلحاح، نظراً لطول فترة الغيبة التي امتدّت لقرون، ومرور أجيال متعاقبة في ظروف متباينة. وهذا يستدعي تحديد تكليف شرعي واضح لهذه الأجيال: ما هو واجبهم؟ وكيف يجب أن ينتظروا ظهور الإمام المهدي عليه السلام وتحقق الفرج على يديه؟

المبحث السادس والعشرون: نمطان متباينان للانتظار

ثمة تصوّران متعارضان لواجب المؤمن ودوره خلال غيبة الإمام عليه السلام:

١. الانتظار السلبي: وهو أن يبقى الفرد سلبياً، متوقفاً عن أيّ حراك أو فعل، مكتفياً بمراقبة علامات الظهور وترقبها، دون أي محاولة لتغيير الواقع الاجتماعي أو السياسي المنحرف. وجوهر هذا النهج هو العزلة وترك الساحة خالية لأهل الباطل.

٢. الانتظار الإيجابي: وهو النهج الفعّال الذي لا يعني جمود الإنسان حتى يحلّ الفرج، بل يلزمه أن ينهض بأعباء التكاليف الشرعيّة كافّة، سواء أكانت فرديّة أم اجتماعيّة، بما في ذلك العمل على إصلاح النظام المجتمعي والسياسي وإقامة الحق قدر المستطاع. والسؤال الجوهرى هو: أي النهجين هو الانتظار الحقيقي الذي يريده الشرع؟!

المبحث السابع والعشرون: كيف نعيش زمن الانتظار بشكل صحيح؟

عندما نتعمّق في دراسة النصوص والروايات الدينيّة، نصل إلى قناعة راسخة بأنّ دور المؤمنين في عصر الغيبة الكبرى لا يقتصر على السلبية والانكفاء على الذات، بل يتعدّاه إلى العمل الإيجابي والقيام بجميع الواجبات الشرعيّة التي تحقّق مصلحة الأُمّة وتخدم قضيتها. ويمكن تلخيص أهم هذه الأدوار في النقاط الآتية:

أوّلاً: الالتزام العملي بالشرع وطاعة الولي الفقيه: يؤكّد الإمام المهدي ﷺ في أحد أحاديثه أنّ اتحاد المؤمنين قلبياً

والتزامهم بعهدهم هو السبيل الأسرع لتحقيق اللقاء به ونيل شرف الانتظار الحقيقي. وهذا الاتحاد لا يقتصر على الجانب العقدي فحسب، بل هو اتحاد عملي على الساحة، يجسّد معنى "الجسد الواحد" الذي يقوده "الرأس" الذي أوكلت إليه قيادة الأمة في زمن الغيبة، وهو الفقيه العادل الجامع للشرائط، الذي يكون مرجعاً في الحوادث المستجدة وفقاً للتوكيل الصادر من الإمام عليه السلام.

جاء عن المهدي عليه السلام: "ولو أنّ أشياعنا وفقّهم الله لطاعته على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد لما تأخّر عنهم اليّمن بلقائنا، ولتعلّجت لهم السعادة بمشاهدتنا على حقّ المعرفة وصدقها منهم بنا" ^(١).

ولذلك، فإنّ الهمّ الأكبر للمتظرين يجب أن يكون هو العمل بتقوى الله، والتمسك بأحكامه، ونصرة قضيتّه، كما جاء في توجيه الإمام المهدي عليه السلام: ﴿يُرِيدُونَ لِيُظْفِقُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

ثانياً: بناء القوة الداخلية والوحدة التنظيمية:

تشير الروايات إلى أنّ ظهور الإمام المهدي عليه السلام سيكون حينما يجد

”أولي قوة“. وهذه القوة ذات شقين:

■ قوة مادية: وتحقق عبر الاستعداد والتجهيز والتدريب

المستمر، ما يفترض حركة دؤوبة وجادة في هذا المسار.

■ قوة معنوية: وهي قوة الإرادة والثبات العقدي التي تجعل

قلب المؤمن ”أشد من زبر الحديد“، لا تزعه المحن، ولا

تشنيه التحديات.

وجاء في الرواية التي تصفهم: ”إنَّ قلب رجل منهم أشدَّ من زبر

الحديد لو مرُّوا بالجبال الحديد لتكدكت، لا يكفُّون سيوفهم حتّى

يرضى الله عزَّ وجلَّ“^(١).

ثالثاً: التمهيد الفعلي للظهور:

هناك عدد من البشارات التي تتحدّث عن حركات وأشخاص

سيكونون طلائع تمهّد لظهور الإمام ﷺ وتُهيئ الظروف المناسبة له،

كما في الحديث النبوي الشريف: ”يخرج ناس من المشرق فيوطّئون

للمهدي“^(٢).

١ - سليمان بن خوجة القندوزي البلخي: ينابيع المودة، ج ٣، ص ١٧٧.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٢٤١.

إن أمنية كل مؤمن حقيقي أن يكون جزءاً من جيش الإمام عند ظهوره، وقد بشر الإمام الباقر (عليه السلام) بأن "طوبى لمن أدركه وكان من أنصاره"^(١). لذا، يعمل المخلصون على تهيئة الأرضية المناسبة وتحقيق الشروط اللازمة لظهوره، صامدين في انتظاره دون يأس أو استعجال، مصداقاً للرواية التي تفسر سبب تسميته بـ "المنتظر"، لأنه ينتظر خروجه المخلصون وينجو فيه المسلمون^(٢).

المبحث الثامن والعشرون: آداب التواصل مع الإمام المهدي (عليه السلام)

أولاً: معرفة الإمام المهدي (عليه السلام):

١- ضرورة التعريف بالإمام المهدي (عليه السلام):

يؤكد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على أهمية معرفة الإمام فيقول: "مَنْ مَاتَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً"^(٣).

١ - محمد بن ابراهيم النعماني: الغيبة، ص ٢٤٠.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٣٠.

٣ - راجع: محمد بن ابراهيم النعماني: الغيبة، ص ١٣٠؛ محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٢١.

٢- التمسك بالدين وولاية أهل البيت ﷺ:

يعد الثبات على مبادئ الدين والولاء لأهل البيت ﷺ من أهم الواجبات في عصر الغيبة، والثقة بإمامة الأئمة الاثني عشر. وقد حذر النبي ﷺ من الشك في هذه الفترة قائلاً: "...فَمَنْ أَدْرَكَ زَمَانَهُ فَلْيَتَمَسَّكْ بِدِينِهِ وَلَا يَجْعَلْ لِلشَّيْطَانِ إِلَيْهِ سَبِيلًا فَيُشْكِهِ فَيُزِيلَهُ عَنْ مِلَّتِي وَيُخْرِجَهُ مِنْ دِينِي" (١).

٣- التذكير بمناقب الإمام المهدي عجل الله فرجه:

من مظاهر الثبات على الولاية ذكر فضائل الإمام المهدي ﷺ، ونشرها بين الناس، والبراءة من أعدائه. وقد بشر الرسول ﷺ بقوله: "طُوبَى لِمَنْ أَدْرَكَ قَائِمَ أَهْلِ بَيْتِي وَهُوَ يَأْتُمُّ بِهِ فِي غَيْبَتِهِ قَبْلَ قِيَامِهِ... ذَلِكَ مِنْ رُفَقَائِي وَدَوِي مَوَدَّتِي وَأَكْرَمِ أُمَّتِي عَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (٢).

٤- التحلي بالأدب عند ذكره ﷺ:

يُستحبُّ عند ذكر الإمام أن يُنادى بألقابه المحترمة، مثل:

١ - محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين، ج ١، ص ٥١.

٢ - راجع: محمد بن الحسن الطوسي: الغيبة، ص ٢٧٥؛ الصدوق: كمال الدين، ج ١، ص ٢٨٦.

الحجّة، والقائم، والمهدي، وصاحب الزمان، وصاحب الأمر، مع إضافة عبارات التكريم مثل عليه السلام أو عليه السلام، والقيام عند سماع لقب "القائم".

٥- الدعاء للإمام المهدي عليه السلام بتعجيل فرجه:

ورد في إحدى التوقيعات المقدسة: "وَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ بِتَعْجِيلِ الْفَرَجِ، فَإِنَّ ذَلِكَ فَرَجُكُمْ"^(١).

٦- إظهار المحبة والشوق إليه عليه السلام:

من الآداب نشر محبّته بين الناس، وإظهار الشوق للقائه، والتباكي والحزن على فراقه، والتصدّق نيابة عنه دعاءً لسلامته.

٧- إحياء مجالس فضائله عليه السلام:

يشمل ذلك إنشاء المجالس التي تُذكر فيها مناقبه وفضائله، أو دعمها ماليًا، أو حضورها، والسعي إلى نشر فضائله.

١ - راجع: محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين، ص ٤٨٥؛ الفضل بن الحسن الطبرسي: الغيبة، ص ٢٩٣؛ أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٨٤.

٨- إهداء ثواب الأعمال الصالحة إليه ﺍﻟﻤُﻮﺗﺎﻫِﺪِﻳﻦَ:

كإهداء ثواب الحج، والطواف، والصوم، والصلاة، وزيارة المعصومين ﺍﻟﻤُﻮﺗﺎﻫِﺪِﻳﻦَ له، أو دفع المال لنائب يقوم بهذه الأعمال نيابة عنه.

٩- تجديد البيعة للإمام ﺍﻟﻤُﻮﺗﺎﻫِﺪِﻳﻦَ:

كما ورد في دعاء العهد: ”اللَّهُمَّ إِنِّي أُجَدِّدُ لَهُ فِي صَبِيحَةِ يَوْمِي هَذَا... عَهْدًا وَعَقْدًا وَبَيْعَةً لَهُ فِي عُنُقِي، لَا أُحَوِّلُ عَنْهَا وَلَا أَزُولُ أَبَدًا...“.

١٠- الصلاة والسلام عليه ﺍﻟﻤُﻮﺗﺎﻫِﺪِﻳﻦَ:

ورد في دعاء العهد: ”اللَّهُمَّ بَلِّغْ مَوْلَانَا الْإِمَامَ الْهَادِيَ الْمَهْدِيَّ الْقَائِمَ بِأَمْرِكَ... صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آبَائِهِ الطَّاهِرِينَ...“ (١) ..

١١- الصلاة على الإمام ﺍﻟﻤُﻮﺗﺎﻫِﺪِﻳﻦَ وﺍﻟﻤُﻮﺗﺎﻫِﺪِﻳﻦَ:

جاء في دعاء العهد: ”اللَّهُمَّ بَلِّغْ مَوْلَانَا الْإِمَامَ الْهَادِيَ الْمَهْدِيَّ الْقَائِمَ بِأَمْرِكَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آبَائِهِ الطَّاهِرِينَ عَنْ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ“.

١ - راجع: ابن طاووس: مصباح الزائر، ص ١٦٩؛ ابراهيم بن علي الكفعمي العاملي: البلد الأمين والدرع الحصين، ص ٨٢؛ الكفعمي: المصباح، ص ٥٥٠.

وَالْمُؤْمِنَاتِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا سَهْلِهَا وَجَبَلِهَا وَبَرِّهَا وَبَحْرِهَا،
وَعَنِّي وَعَنْ وَالِدَيَّ مِنَ الصَّلَوَاتِ زِنَةَ عَرْشِ اللَّهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ، وَمَا
أَحْصَاهُ عِلْمُهُ وَأَحَاطَ بِهِ كِتَابُهُ...“^(١).

المصادر والمراجع

- ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد بن هبة الله: شرح نهج البلاغة، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠٠٩م.
- ابن الأثير، علي بن محمد: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٩٩٤م.
- ابن الأثير، عز الدين: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.
- ابن بابويه، محمد بن علي (الشيخ الصدوق): الأمالي، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠٠٩م.
- ابن بابويه، محمد بن علي (الشيخ الصدوق): الخصال، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠١٢م.
- ابن بابويه، محمد بن علي (الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ.
- ابن بابويه، محمد بن علي (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠١٦م.
- ابن بابويه، محمد بن علي (الشيخ الصدوق): من لا يحضره الفقيه، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠١٢م.

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي: الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.
- ابن حنبل، أحمد: مسند أحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمّد: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، لبنان/بيروت، ط ١، ١٩٨١م.
- ابن شهر آشوب، محمّد بن علي: مناقب آل أبي طالب، شركة الأعلمي للمطبوعات، لبنان/بيروت، لا ط، ٢٠٠٩م.
- ابن طاووس، علي بن موسى: الطوائف في معرفة مذاهب الطوائف، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لا ط، ١٩٩٩م.
- ابن طاووس، علي بن موسى: المجتني من دعاء المجتبي، دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لا ط، ٢٠١٢م.
- ابن طاووس، علي بن موسى: مصباح الزائر، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ١٩٩٦م.
- ابن عتبة، جمال الحسيني: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠١٥م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي: البداية والنهاية، مطبعة

- كردستان، مصر/القاهرة، ط١، ١٣٥٨هـ.
- ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- أبو زهرة، محمد: الإمام الصادق (حياته وعصره، آراؤه وفقهه)، دار الفكر العربي، القاهرة، لا ط، ٢٠٠٥م.
- الأربلي، علي بن عيسى: كشف الغمة في معرفة الأئمة، دار التعارف، بيروت، ط١، ٢٠١٢م.
- الأردبيلي، محمد بن علي: جامع الرواة، الناشر: مكتبة المرعشي النجفي، إيران/قم، لا ط، ١٤٠٣هـ.
- الأسفراييني، أحمد بن عبد الوهاب النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، مصر/القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.
- الأصفهاني، علي بن الحسين: الأغاني، دار صادر، لبنان/بيروت، لا ط، ٢٠١٩م.
- الأصفهاني، علي بن الحسين: مقاتل الطالبين، شركة الأعلمي للمطبوعات، لا ط، ٢٠١٧م.
- الأصفهاني، محمد تقي: مكيال المكارم، منشورات الفجر، دمشق، لا ط، ٢٠١٢م.

- الأمين العاملي، محسن: أعيان الشيعة، تحقيق وتخريج: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط ١، عام ١٩٨٣ م.
- الأنصاري، محمد علي: الموسوعة الفقهية الميسرة، مجمع الفكر الإسلامي، إيران/قم، لا ط، ١٤٢٢ هـ.
- البحراني، هاشم: حليّة الأبرار، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ١٩٩٢ م.
- البحراني، عبد الله: العوالم (الإمام الحسين)، مصادر الحديث الشيعة، قم، لا ط، ١٤٠٧ هـ.
- البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، دار طوق النجاة، مصر/القاهرة، لا ط، ١٤٢٢ هـ.
- البلاذري، أحمد بن يحيى: أنساب الأشراف، تحقيق وتقديم: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٦ م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين: دلائل النبوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٥ م.
- الترمذي، محمد بن عيسى: صحيح الترمذي، كتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر/القاهرة، ط ٢، ١٩٧٥ م.
- الثقفى الكوفي، إبراهيم بن محمد: الغارات، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لا ط، ١٩٨٧ م.

- الجلالي، محمّد رضا: جهاد الإمام السجاد، مؤسسة دار الحديث الثقافية، قم، لا ط، ١٤١٨هـ.
- الجلالي، محمّد رضا: حياة الإمام السجاد، دار الحديث للطباعة والنشر، بيروت، لا ط، ١٩٩٩م.
- الحر العاملي، محمّد بن الحسن: وسائل الشيعة، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠٠٧م.
- الحراني، الحسن بن علي بن شعبة: تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق: حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- الحلبي، محمّد بن إدريس: السرائر، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط٢، ١٤١٠هـ.
- الحلبي، علي بن ابراهيم: السيرة الحلبيّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط٢، ١٤٢٧هـ.
- الحاكم النيسابوري، محمّد بن عبد الله: المستدرک على الصحيحين، دار الكتب العلميّة، بيروت، لا ط، ١٩٩٠م.
- الخامني، علي: الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت عليهم السلام، مركز بقیّة الله، بيروت، ط١، عام ٢٠١٥م.
- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي: تاريخ بغداد، دار النوادر

- للنشر والتوزيع، سوريا/دمشق، لا ط، ٢٠١٦م.
- الخوارزمي، الموفق بن أحمد: مناقب علي بن أبي طالب، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران/قم، لا ط، ١٤٢١هـ.
- الديار بكري، حسين بن محمد: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، دار صادر، بيروت، لا ط، ١٩٧٣م.
- الدينوري، أحمد بن داود: الأخبار الطوال، الناشر: وزارة الثقافة، مصر/القاهرة، ط ١، ١٩٦٠م.
- دحلان، أحمد بن زيني: السيرة النبوية، دار القلم العربي للنشر، بيروت، لا ط، ٢٠٠١م.
- الراوندي، سعيد بن هبة الله: قصص الأنبياء، تحقيق: عد الحلیم عوض الحلبي، مكتبة العلامة المجلسي، إيران/قم، ط ١، ١٤٣٠هـ.
- الراوندي، سعيد بن هبة الله: قصص الأنبياء، مجمع البحوث العلمية، إيران/مشهد، لا ط، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- الراوندي، قطب الدين: الخرائج والجرائح، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان/بيروت، لا ط، ١٩٩١م.
- السجستاني، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، المكتبة العصرية، لبنان/صيدا، لا ط، ١٣٩٢هـ.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين): الخصائص الكبرى، دار الكتب العلميّة، بيروت، لا ط، ٢٠٠٨ م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين): الدر المشور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لا ط، ٢٠١٠ م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين): تاريخ الخلفاء، الناشر: وزارة الأوقاف، قطر/الدوحة، ط ٢، عام ٢٠١٣ م.
- شرف الدين، عبد الحسين: صلح الحسن، الناشر: تحقيقات ونشر معارف أهل البيت (ع)، إيران/أصفهان، لا ط، ١٩٥٨ م.
- شمس الدين، محمّد مهدي: ثورة الحسين في الوجدان الشعبي، الدار الإسلاميّة للطباعة والنشر، لبنان/بيروت، ط ١، ١٩٨٠ م.
- الصدوق، محمّد بن علي بن بابويه: علل الشرائع، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر، لبنان/بيروت، لا ط، ٢٠١١ م.
- الصفار، محمّد بن الحسن: بصائر الدرجات، شركة الأعلمي للمطبوعات، لبنان/بيروت، لا ط، ٢٠٢٥ م.
- الصدر، محمّد باقر: بحث حول المهدي (عج)، دار التعارف للمطبوعات، لبنان/بيروت، ط ١، عام ١٩٧٧ م.
- الصدر، محمّد صادق: تاريخ الغيبة الكبرى، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٢ م.

- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، مصر/القاهرة، ط ٢، ١٩٦٧ م.
- الطبري، محمد بن جرير: دلائل الإمامة، تحقيق ونشر: قسم الدراسات الإسلامية-مؤسسة البعثة، إيران/قم، ط ١، ١٤١٣ هـ.
- الطبرسي، أحمد بن علي: الاحتجاج، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠٠٩ م.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن: تاج الموالي، الناشر: مكتب المرجع المرعشي النجفي، قم، ١٤٠٦ هـ.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان/بيروت، ط ١، ١٩٩٥ م.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن: إعلام الوري بأعلام الهدى، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، العراق/النجف، ط ١، ١٤١٧ هـ.
- الطبرسي، علي بن رضي الدين: مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ١٩٩١ م.
- الطبراني، سليمان بن أحمد: المعجم الأوسط، دار الحرمين، الرياض، لا ط، ١٩٩٥ م.
- الطبراني، سليمان بن أحمد: المعجم الكبير، دار الصميعي، السعودية/الرياض، ط ١، ١٩٩٤ م.

- الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، دار الأميرة للطباعة والنشر، بيروت، طبعة عام ٢٠١٠م.
- الطوسي، محمد بن الحسن: اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران/قم، ١٤٢٧هـ.
- الطوسي، محمد بن الحسن: رجال الطوسي، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠١٥م.
- الطهراني، آغا بزرك (محسن بن علي): الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء للطباعة والنشر، بيروت، ط ٣، لا ت.
- العاملي، جعفر مرتضى: الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص)، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت، ط ٥، ٢٠٠٥م.
- العاملي، علي الكوراني: معجم أحاديث الإمام المهدي (عج)، مؤسسة المعارف الإسلامية (مطبوعة بهمن)، إيران/قم، ط ١، ١٤١١هـ.
- العاملي النباطي البياضي، علي بن يونس: الصراط المستقيم إلى مستحقّي التقديم، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠٢٤م.
- العياشي، محمد بن مسعود: تفسير العياشي، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠١٠م.

- الفيروز أبادي، محمّد بن يعقوب: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، ط ٨، ٢٠٠٥ م.
- القاضي النعمان المغربي: دعائم الإسلام، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لا ط، ١٩٩٥ م.
- القاضي النعمان المغربي، النعمان بن محمّد التميمي: شرح الأخبار في فضائل الأئمّة الأطهار، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠١٨ م.
- القمي، الشيخ عباس: منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، دار مداد للثقافة والإعلام، المنامة، لا ط، ٢٠٢٤ م.
- القمي، علي بن إبراهيم: تفسير القمي، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠١٤ م.
- القندوزي البلخي، سليمان بن خوجة: ينابيع المودة، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠٠٩ م.
- الكفعمي، ابراهيم بن علي: البلد الأمين والدرع الحصين، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ٢٠١٩ م.
- الكفعمي، ابراهيم بن علي: المصباح، دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان/بيروت، لا ط، ٢٠٠٧ م.
- الكوفي، محمّد بن سليمان: مناقب الإمام أمير المؤمنين(ع)،

تحقيق: محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، لبنان/بيروت، ط ١، ١٩٧٦م.

- المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط ١، ١٩٨٣م.
- المرعشي النجفي، شهاب الدين: شرح إحقاق الحق، نشر: مكتبة المرعشي النجفي، إيران/قم، لا ط، لا ت.
- المسعودي، علي بن الحسين: التنبيه والإشراف، مكتبة المشنى، بغداد، ط ١، ١٩٣٨م.
- المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الهجرة، إيران/قم، لا ط، ١٤٠٩هـ

الفهرس

المقدمة ٥

الفصل الأول: الرسول الأكرم ﷺ ٧
خاتم النبیین وسيد المرسلین

١٢ | المبحث الأول: الولادة الطاهرة والنشأة المباركة

٢٥ | المبحث الثاني: البعثة والهجرة

٦١ | المبحث الثالث: تأسيس الكيان الإسلامي وبدء مواجهة الصعاب

الفصل الثاني: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ٩١

٩٣ | المبحث الأول: السيرة المشرفة

٩٧ | المبحث الثاني: محطات رئيسة في حياة الإمام علي عليه السلام في الإسلام

١٠٥ | المبحث الثالث: وفاة الرسول ﷺ ومسألة الخلافة

١٠٧ | المبحث الرابع: دور الإمام علي عليه السلام في عهد الخلفاء

١١٠ | المبحث الخامس: من الخلافة إلى الاستشهاد

١١٢ | المبحث السادس: مبادئ حكم الإمام علي عليه السلام

الفهرس

١١٤ | المبحث السابع: الصّراعاتُ في عهد الإمام (عليه السلام) (حروب على ثلاث جبهات)

الفصل الثالث: السيّدَةُ فاطمة بنت محمد (عليها السلام) ١١٧

١١٩ | المبحث الأول: سيرة السيّدَة الزهراء.. نورٌ يقتدى به

١٢٢ | المبحث الثاني: دورها العظيم في ظلّ الإسلام

١٢٤ | المبحث الثالث: مكاتها في حديث المباهلة

١٢٥ | المبحث الرابع: السيّدَة فاطمة الزهراء (عليها السلام) بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

الفصل الرابع: الإمامُ الحَسَنُ بن عليّ (عليه السلام) ١٢٩

١٣١ | المبحث الأول: محطاتٌ من سيرته العطرة

١٣٦ | المبحث الثاني: سيرة الإمام الحسن (عليه السلام) الجهاديّة

١٣٨ | المبحث الثالث: الإمام الحسن (عليه السلام) واستلام دَفّة الحكم

١٤٠ | المبحث الرابع: صلحُ الإمام الحسن (عليه السلام)

١٤٩ الفصل الخامس: الإمامُ الحُسَيْن بن عليّ عليه السلام

١٥١ | المبحث الأول: سيرة مشرقة

١٥٥ | المبحث الثاني: ملامحُ عصر الإمام الحسين عليه السلام

١٥٧ | المبحث الثالث: خطوات الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة سياسة (معاوية)

١٥٩ | المبحث الرابع: الخيارات الاستراتيجية للإمام الحسين عليه السلام

١٦٠ | المبحث الخامس: دوافع الرحيل عن المدينة المنورة

١٦١ | المبحث السادس: إقامة الإمام الحسين عليه السلام في مكة المكرمة

١٦٢ | المبحث السابع: العزم على مغادرة مكة إلى العراق

١٦٥ الفصل السادس: الإمامُ عليّ بن الحسين عليه السلام

١٦٧ | المبحث الأول: سيرة مضيئة

١٧٣ | المبحث الثاني: المحطات الرئيسة في حياة الإمام السَّجَّاد عليه السلام

١٧٩ | المبحث الثالث: مرحلة التحوُّل الاستراتيجي

الفهرس

الفصل السابع: الإمام محمد بن عليّ الباقر (عليه السلام) ١٨٣

- ١٨٦ | المبحث الأول: سيرة عطرة
- ١٨٨ | المبحث الثاني: عبادته ودعاؤه وتقواه (عليه السلام)
- ١٩٠ | المبحث الثالث: مكارم أخلاقه وسجاياه
- ١٩١ | المبحث الرابع: العوامل المؤثرة في عصر الإمام الباقر (عليه السلام)
- ١٩٤ | المبحث الخامس: إسهام الإمام الباقر (عليه السلام) في تأسيس المدرسة العلمية لأهل البيت (عليه السلام)

الفصل الثامن: الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) ٢٠٧

- ٢١٠ | المبحث الأول: سيرة ذاتية مضيئة
- ٢١٥ | المبحث الثاني: السِّيَاقُ التاريخي لعصر الإمام الصادق (عليه السلام)
- ٢١٧ | المبحث الثالث: منهجية الإمام الصادق (عليه السلام) في الإصلاح العلمي
- ٢٢١ | المبحث الرابع: العناية بالتدوين
- ٢٢٤ | المبحث الخامس: موقف الإمام الصادق (عليه السلام) من حكم (المنصور)

الفصل التاسع: الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام ٢٢٧

٢٢٩ | المبحث الأول: سيرة الإمام موسى الكاظم عليه السلام

٢٣٤ | المبحث الثاني: الإطار التاريخي والسياق العام

٢٣٥ | المبحث الثالث: الحفاظ على الاستمرارية الفكرية والعلمية

٢٣٦ | المبحث الرابع: النشاط السياسي

٢٤١ | المبحث الخامس: الدوافع وراء سجن الإمام عليه السلام

الفصل العاشر: الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام ٢٤٥

٢٤٩ | المبحث الأول: سيرة مضيئة

٢٥٤ | المبحث الثاني: الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام

٢٥٧ | المبحث الثالث: الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد

الفصل الحادي عشر: الإمام محمد بن عليّ الجواد عليه السلام ٢٦٧

الفهرس

- ٢٦٩ | المبحث الأول: سيرة حياة مضيئة
- ٢٧٣ | المبحث الثاني: السياق السياسي السائد
- ٢٧٥ | المبحث الثالث: استراتيجية المأمون
- ٢٧٧ | المبحث الرابع: رد الإمام الجواد (عليه السلام)
- ٢٨١ الفصل الثاني عشر: الإمام علي بن محمد الهادي (عليه السلام)
- ٢٨٣ | المبحث الأول: حياة مضيئة
- ٢٨٨ | المبحث الثاني: استلام الإمام الهادي (عليه السلام) لمنصب الإمامة
- ٢٨٩ | المبحث الثالث: السياق التاريخي لعصر الإمام الهادي (عليه السلام)
- ٢٩٧ | المبحث الرابع: الجانب التنظيمي (نظام الوكالة)
- ٢٩٩ الفصل الثالث عشر: الإمام الحسن بن علي العسكري (عليه السلام)
- ٣٠١ | المبحث الأول: حياة مضيئة ومشرفة

المبحث الثاني: الأوضاع والتحوّلات السياسيّة	٣٠٦
في زمن الإمام العسكريّ عليه السلام	
المبحث الثالث: الإمام العسكريّ عليه السلام والإعداد لظهور	٣٠٩
الإمام المهديّ عليه السلام	
المبحث الرابع: النشاط والحضور العلميّ	٣١٣
والثقافيّ للإمام العسكريّ عليه السلام	
المبحث الخامس: استشهاد الإمام العسكريّ عليه السلام	٣١٥
الفصل الرابع عشر: الإمام المهديّ عليه السلام	٣١٩
(العقيدة المهدويّة: المعتقد والغيبة)	
المبحث الأول: محطات من سيرته العطرة	٣٢١
المبحث الثاني: الاعتقاد بالمهديّ عليه السلام تعبير عن حاجة فطريّة	٣٢٣
المبحث الثالث: الإيمان بحتميّة المنقذ في الأديان السماويّة	٣٢٣
المبحث الرابع: معتقّد الإماميّة في الإمام المهديّ عليه السلام	٣٢٤
المبحث الخامس: غيبة الإمام المهديّ عليه السلام	٣٢٤

الفهرس

المبحث السادس: الإمامة والغيبة الصغرى	٣٢٥
المبحث السابع: النُّوَاب الأربعة	٣٢٥
المبحث الثامن: دواعي الغيبة وأسبابها	٣٢٧
المبحث التاسع: شروطُ انتهاء الغيبة	٣٢٩
المبحث العاشر: حكمة إخفاء وقت الظهور	٣٣٠
المبحث الحادي عشر: إمكانية طول عمر الإمام (عجل الله)	٣٣٢
المبحث الثاني عشر: نماذج تاريخية للعمر المديد	٣٣٢
المبحث الثالث عشر: المحاور والمفاهيم الرئيسة	٣٣٥
المبحث الرابع عشر: علامات الظهور	٣٣٧
المبحث الخامس عشر: الحكمة من الإشارات أو العلامات	٣٣٨
المبحث السادس عشر: المشهد العام قبل الظهور	٣٤٠
المبحث السابع عشر: أحداث ما قبل الظهور	٣٤١
المبحث الثامن عشر: الإعلان السماوي عن الظهور	٣٤٤

المبحث التاسع عشر: رايات تسبق الظهور	٣٤٤
المبحث العشرون: الدلالة الرمزية للرايات	٣٤٥
المبحث الواحد والعشرون: حكم رفع الرايات قبل ظهور الإمام <small>عليه السلام</small>	٣٤٦
المبحث الثاني والعشرون: التحذير من الالتحاق بالرايات المشبوهة	٣٤٨
المبحث الثالث والعشرون: رايات الحق الممهدة للظهور	٣٤٩
المبحث الرابع والعشرون: معنى الانتظار وروحانيته	٣٥٠
المبحث الخامس والعشرون: سؤال التكليف في عصر الغيبة	٣٥١
المبحث السادس والعشرون: نمطان متباينان للانتظار	٣٥١
المبحث السابع والعشرون: كيف نعيش زمن الانتظار بشكل صحيح؟	٣٥٢
المبحث الثامن والعشرون: آداب التواصل مع الإمام المهدي <small>عليه السلام</small>	٣٥٥
المصادر والمراجع	٣٦٠



مركزُ برائثا للدراساتِ والبحوثِ

مركزُ بحثي مستقل غير ربحي، مقره في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والأكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها الحراك الاجتماعي والانساني الكبير الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية، ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والاجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة؛ سعياً للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

ملخص الكتاب

يرتبط الحُضور الثقافيُّ الغربيُّ بالتَّفوق والنَّمذجة الكونيَّة، الَّتِي تُصنِّفه كعتبة تاريخيَّة تتجاوز جُلَّ الحضارات السَّابقة، غطَّى هذا الحضور على إمكانيَّة تحقيق تلاقٍ بين ثقافات مُختلفة، قد تحوز على نفس المرتبة التَّصنيفيَّة في المسار التَّاريخي الَّتِي يتم تأطير النَّمذج الغربيِّ وفقها، ممَّا أكسب المركزيَّة الغربيَّة رداء العُنصريَّة الثقافيَّة، الَّتِي تستمدُّ جذورها من الاعتقاد بالتَّفوق النَّاتج عن: الطَّابع الأوروبي والعقيدة المسيحيَّة والسَّلف الإغريقي.

يُؤسِّس هذا التَّصور العُنصريُّ في بنية الثقافة الغربيَّة والأيدولوجيا الأوروبيَّة -الَّتِي انكشفت خلال النّهضة ولا زالت ممتدَّة إلى يومنا هذا- لإبداع سرديَّة غربيَّة، تنتعش على الاستمراريَّة والامتداد التَّاريخي من اليونان القديمة، مروراً بروما إلى القرون الوُسطى، وصولاً إلى النيوكولونياليَّة المُعاصرة (الاستعمار الجديد - Neocolonialism)، الأمر الَّذِي يقطع الصِّلة بالتأثيرات الثقافيَّة الأخرى. وبالتالي، نُصبح أمام طرف مُعاكس لهذا الغرب وهو الشَّرْق، ونتيجة هذا التَّقابل يحوز الشَّرْق على الصِّفات الدُّنيا واللاعقلانيَّة المُعاكسة للغرب، ممَّا يمنح أحقيَّة التَّفوق الثقافيِّ للغرب، كُلُّ هذا أوجد أُحاديَّة ثقافيَّة، تتغذى على العُنصريَّة وإقصاء المُختلف بدعوى التَّخلف.